كتاب الاثنينية (٤٧)

الأعمال الكاملة



للأديب الكبير الأستاذ

حمزة شحاتة



الجزء الثاني

النثر

الناشر
عبد المقصود محمد سعيد خوجه
جدة



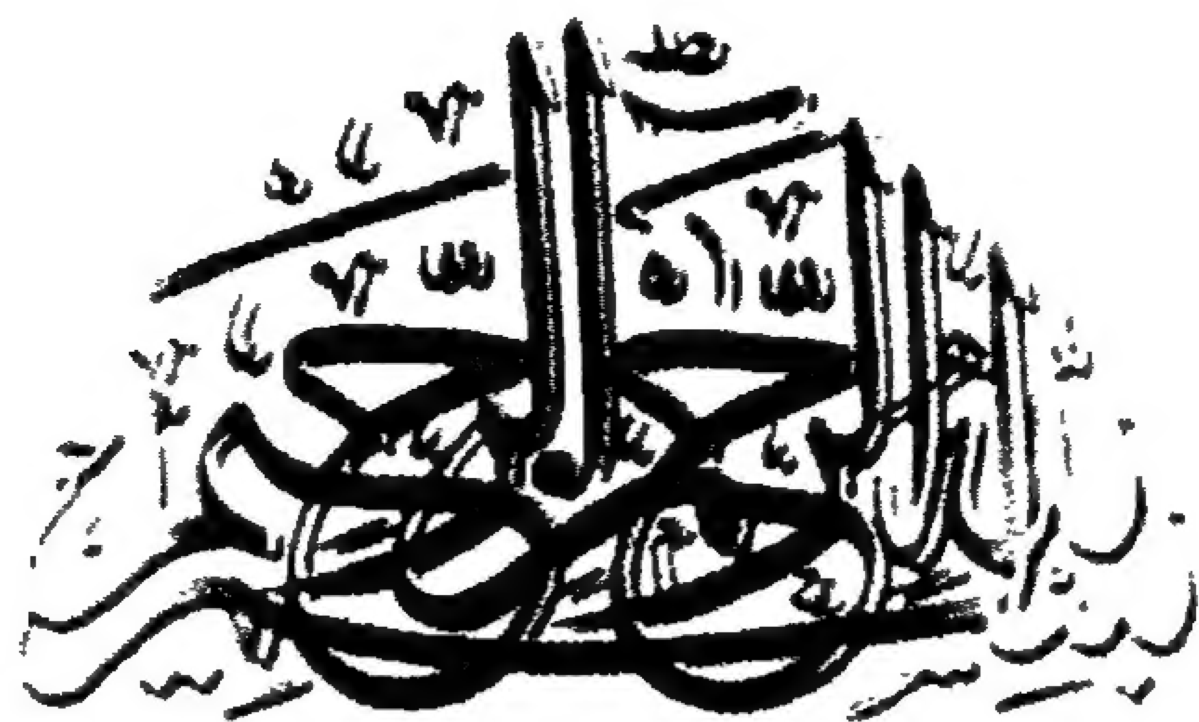
منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

الأعمال الكاملة

للأديب الكبير الأستاذ

حمزة شحاتة

الجزء الثاني





كتاب الاثنينية

(٤٧)

الأعمال الكاملة

للأديب الكبير الأستاذ

حمزة شحاتة

الجزء الثاني

الناشر
عبد المقصود محمد سعيد خوجه
جدة

ح عبدالمقصود محمد سعيد خوجه ، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

شحاتة ، حمزة

الأعمال الكاملة للأديب الكبير حمزة شحاتة ./ حمزة شحاتة .- جدة ١٤٣١هـ

(٣ مج ١٣٢٠ ص) المجلد الثاني ٣٨٨ ص ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الاثنينية ٤٧)

ردمك ٥-٥٩٨٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٩-٥٩٨٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

١ - شحاتة ، حمزة ٢ - الأدباء السعوديون أ- العنوان

ديوي ٩٢٨،١٥٣١ ١٤٣١/٨٢٠٤

رقم الإيداع : ١٤٣١/٨٢٠٤

ردمك : ٥-٥٩٨٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٩-٥٩٨٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

الناشر

عبدالمقصود محمد سعيد خوجه

جدة

النثر

الرجولة عماد الخلق الفاضل

مقدمة(*)

بقلم الأستاذ عزيز ضياء

إخواني من الشيوخ يذكرون المحاضرة التي ألقاها حمزة في جمعية الإسعاف في شهر ذي الحجة عام ألف وثلاثمائة وتسعة وخمسين.. ولا شك أني سعيد الحظ حين تلقيت هدية الدكتور منصور إبراهيم الحازمي وهي الجزء الأول من كتابه: (معجم المصادر الصحفية) عما نشر من المقالات والقصائد والبحوث في جريدة أم القرى في الفترة من سنة ألف وثلاثمائة وثلاثة وأربعين إلى سنة ألف وثلاثمائة وخمسة وستين. وأجده يمدني بما لم يكن في الوسع أن أذكره إذ يقول في الصفحة الثانية والخمسين: (أما قلة المحاضرات قبل عام ١٩٣٦م فيرجع في ما يبدو إلى عدم وجود رابطة تجمع بين الناشئة من الأدباء المثقفين) ثم يقول: (ولعل هذه الرابطة قد بدأت تبرز إلى الوجود عندما تأسست جمعية الإسعاف الخيري بمكة المكرمة عام ألف وثلاثمائة وخمسة وخمسين، وهي السنة التي شهدت بدء النشاط الثقافي في إلقاء المحاضرات العامة. وقد رأينا

(*) هذه المقدمة أخذت من كتاب «حمزة شحاتة.. قمة عرفت ولم تكتشف» للأستاذ عزيز ضياء الصادر في سلسلة المكتبة الصغيرة التي يصدرها الأستاذ عبد العزيز الرفاعي. وقد صدر برقم (٢١) عام ١٣٩٧هـ.

جمعية الإسعاف تجتذب الكثير من الأدباء والمفكرين والأطباء والعلماء.. ولا شك أن من يؤرخ للحركة الثقافية في البلاد السعودية، لا يستطيع أن ينسى الدور المهم الذي لعبته هذه الجمعية الطبية الخيرية، والتي تأسست بعد سنوات قليلة من تأسيس الحكم السعودي في الحجاز).. وينهي الدكتور منصور إبراهيم الحازمي هذه الملاحظة بقوله: (الطب، والدين، والقضايا الإسلامية، والتاريخ، والتراجم..). ثم يضيف: (وهناك بعض المحاضرات التي تناولت موضوعات أخرى كالأدب والصحافة والاجتماع والاقتصاد والتعليم ولكنها قليلة إذا ما قيست بعدد المحاضرات التي تناولت الموضوعات الرئيسية الثلاثة التي ذكرناها) وفي الصفحة التاسعة والعشرين بعد المائتين، ضمن قائمة (المحاضرات) يذكر الدكتور منصور ما يشير إلى أن جريدة أم القرى قد نشرت (خبراً) عن محاضرة ألقاها (حمزة شحاتة) بعنوان (الخلق الكامل عنوان الرجولة).

ولم تنشر هذه المحاضرة كما سبق أن أشرت ورفض حمزة يرحمه الله أن يصدرها في كتاب - مستقلة أو مع مجموعة من شعره أو نثره - ولكنها ظلت المحاضرة التي لم ينسها أحد سواء ممن سمعوها منه أو سمعوا عنها ولعلهم ما يزالون يسمعون عنها حتى اليوم.

وهنا لا بد من وقفة قصيرة، نلتمس بها نوعاً من وزن الأسلوب الذي كتب به حمزة هذه المحاضرة وتمعن مستوى الأستاذية في اللغة، نحواً وصرفاً، ومفردات، وقدرة على أداء المعنى، وانتقاء الألفاظ التي يراعى فيها دقة الجرس الموسيقي في اللفظ بالنسبة للجملة، ثم منهج التحليل للموضوع الذي عالجه وهو كما أراده لا كما اقترح عليه، وكما نشرت عنه جريدة أم القرى... فقد عدل عن (الخلق الكامل عنوان الرجولة) واختار (الرجولة عماد الخلق الفاضل).

والتماس الوزن هنا يعود بنا إلى ما قلته من أن حمزة يبدو وكأنه قد ولد ودرج على تراب هذه الأرض قمة شامخة.. ولا أقول ولد عبقرياً، إذ خصيصة العبقري، أن يولد بطاقة قد تبكر في الظهور وقد تتأخر إلى أن يتاح لها التفجر والاندفاع بينما حمزة، قد بدأ منذ عرفه عشاق الحرف والكلمة قمة لا تدري كيف تكونت...؟

ولد حمزة، في عام ألف وثلاثمائة وثمانية وعشرين وألقى هذه المحاضرة، في عام ألف وثلاثمائة وتسعة وخمسين فهو يومها قد أتم الثلاثين من عمره... ونحن نعلم أن هذه المحاضرة ليست أول أعماله، فقد سبق أن ذكرت أنني عرفته في عام ألف وثلاثمائة وواحد وخمسين - أي يوم كان لا يزال في الثالثة والعشرين - ويعرفه قبلي الأستاذ (عبد الوهاب آشي) والأستاذ (محمد سعيد عامودي) والأستاذ (محمد حسن عواد)... وكلهم عرفوه شاعراً في الذروة وناثراً يمتلك ناصية اللغة والأسلوب امتلاك أستاذية تعمّق فنها وعلمها في الأمهات من المصادر.

ومرة أخرى، أجد نفسي مضطراً أن أتساءل متى؟ وكيف؟ أتيح له أن يبلغ هذه المرتبة التي تفترض أنه بلغها في العشرين.. ومن المفروض أنه لم يكن الوحيد الذي تخرج في مدرسة الفلاح ولم يكن أيضاً الوحيد الذي ابتعث إلى الهند. لم يكن الوحيد الذي قرأ ما قرأناه وظللنا نقرأه من مصادر الثقافة وينابيع الفكر.

يستطيع من يتفرغ لبحث أدب حمزة، في ما نرجو، أن يجمع من شعره، ونثره، وعلى الأخص رسائله، أن يجيب بما أسميه اكتشافاً للقصة، التي أقدِّم اللمحة عنها في هذا الحديث، واللمحة، لا أكثر ولا أقل.

بلغ عدد صفحات هذه المحاضرة مائة وإحدى وعشرين صفحة، بخط يده على ورق مقاسه (متوسط) واستغرق إلقاؤها أكثر من أربع ساعات

وقوطعت بالتصفيق أكثر من ثلاثين مرة واجتمع لسماعها عدد من الناس قل أن اجتمع لسماع أي محاضرة سبقتها في جمعية الإسعاف.. فماذا في هذه المحاضرة؟؟

لا يتسع الوقت لعرض الكثير.. ولكني أستطيع أن أقدم النتف، والقطوف التي تلمح، أو تلقي بعض الضوء على الكثير مما فيها مما لا أجد له اسماً أكثر أو أقل من أنه فكر، وأدب، وفلسفة، وفن.

ويبدأ المحاضرة بقوله: (عندما يكون الإقدام على المخاطرة ضرورة، لا يعد شجاعة).

ويعلق على هذه الضرورة، فيقول: (للضرورة في حساب الحياة أبعد الأثر. والتطور ما لعب دوره الخطير في تكميل أسباب الحياة الاجتماعية إلا على أساس الضرورة الحافزة).

(إن حديثي في الواقع، ولا أسميه محاضرة، عن الخلق الكامل كعماد للرجولة، لا عن الضرورة كأساس للخلق الفاضل، أو كعماد للرجولة، لكنني اخترت أن أمهد لهذا الحديث هذا التمهيد، وأن أزحزح العنوان المقترح عن وضعه قليلاً فيكون (الرجولة عماد الخلق الفاضل) لا الكامل، فما يزال الكمال نشدة الحياة المطولة ووهمها الذي ينساق أبداً في طلابه، وما دامت مراحل الحياة تمتد ولا تنتهي، وقوافل الأحياء تسير ما يثقل خطاها الزمن الجاهد، وما دام التغير الدائم، دأب الحياة وسبيل ما فيها، فهل نقول إن شيئاً كمل، قبل أن يوفى على غايته ويبلغ تمامه؟).

ويضيف، وكأنه يعتذر عن (زحزحة العنوان) فيقول:

(وأنا لست أعرف معنى لهذه الحرية، بيد أني ألفت أن أطلق لفكري عنانه.. فهذا عندي أخلق، بأن يجعلني أكثر شعوراً بحياتي، وفهماً لها، وأنا طامع بعد، في أن تحمدوا لي نتائج هذه الحرية إن شاء الله).

ثم يفلسف ألفته في إطلاق العنان لفكره فيقول:

(لا تكون النظرة إلى حقائق الحياة والفكر خالصة إلا من أناس يرون أنفسهم فوق قيودها وقوالبها، وهؤلاء يدعون بالمجانين تارة، وبالفلاسفة وقادة الفكر تارة، لأن حظ الصفات والمبادئ والنزعات يرتبط دائماً بحظ الداعين إليها والمتصفين بها من النجاح. هذه حقيقة فطن لها الناس من القدم فقالوا كثيراً ما معناه:

الناس من يلق خيراً قائلون له ... ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

ليس هذا حظ الأحياء فحسب، بل حظ المبادئ والأغاني والنظريات، والفضائل وحظ موقفي بينكم الليلة...).

ويمضي فيقول:

(وأنا أريد التجريد، والتعرية كباحث، لا كمحاضر، فإني لو قصرت كلامي على الرجولة أو على الخلق الفاضل، خشيت أن يتحول حديثي إلى موعظة، لا تعدو أن تكون تمدحاً حماسياً بالفضائل دون تحليلها وردها إلى مصادرها، وتحديد قيمها ومعاييرها، وأثرها في صميم الحياة، وعلاقتها بالنفوس).

والتجريد مبدأ قديم لي، وهو مرضي الذي لا أشفى منه، عرفني به من عرفوا طريقتي في الحياة ومن قرأوا نظراتي القديمة في الخير والشر، وفي الفضائل والرذائل، وفي الحب... وفي الشعر).

(فإذا ظن ظان أن في ما أقوله الليلة خلطاً أو إطلاقاً أو شذوذاً، فإنما يكون هذا الظن معقولاً لا أضيق به، فهو عندي شبيه بالنظرة إلى مجهول لم يتكشف، لا إلى مجهول أخذ سبيله في التكشف والوضوح).

ويمضي بعد هذه المقدمة القصيرة، في ما يشبه التحليق تارة،

والغوص تارة، وراء موضوعه، بحيث يرينا دنيا مترامية الأطراف، تلتف فيها خمائل الفكر، وتتفتح في ساحاتها مساتير الحقائق وتتلألأ في سمائها وأفلاكها أنهار من الضوء تمعن في أبعاد سحيقة، قد تحتاج لاستيعابها إلى منظار مقرب يسعفك بالتفاصيل ومقومات البناء والتكوين وتسرف في الاقتراب والإشعاع، حتى تبهر البصر، وترهق أو تزلزل ما استقر في الذهن من القواعد والأسس للكثير من المسلمات والبديهيات.

وقد رأينا في هذه المقدمة على قصرها، مستوى الأسلوب، الذي سبق أن تحدثت عنه. وما أظن أن أحداً من الكتاب في المملكة، وفي غيرها، تلك الأيام قد بلغ هذا الأوج من الجمال والترابط وتوخي جرس اللفظ في اتساقه مع الجملة، وهذا يعود إلى الأستاذية، التي لا تقف عند حد المعرفة من اللغة ودقائقها ومن نحوها وصرفها ومناهل البلاغة ومآتيها، وإنما تتخطى كل ذلك إلى فنية الأستذة إذا جاز التعبير.

مسيرته الثقافية

ونعود إلى الخلفيات الثقافية في حياة الشاعر، وفي حياة رصفائه في تلك الأيام.. ولا أجد بداً من وقفة قصيرة عند لطفي السيد باشا، فقد كنا نتسامع بعبقريته وعلمه وفضله على العلم والعلماء والأدب والأدباء، والفكر والمفكرين.. كما كنا نتسامع عن ترجمته لكتاب (السياسة) لأرسطو طاليس... عن الترجمة الفرنسية لبارتي سانتيهيلير... فنتمنى أن نرى هذه الترجمة مطبوعة.. ولم تطبع إلا في عام ١٩٤٧م وأذكر أني كنت في القاهرة وكان حمزة رحمه الله قد استقر فيها. فما أسرع ما أخذنا نتدارسه معاً. فينقضي الليل، وينام من في البيت من الأهل والأطفال... ويستيقظون في الصباح ليجدونا ما نزال كما تركونا في الساعات الأولى من الليل.. وأطباق الرماد طافحة بأعقاب السجاير. وأكواب الشاي تتثاءب

فراغاً وحلق كل منا يتقصف جفافاً، فلا نكاد نلمح من استيقظ، حتى نستنجده بطلب شاي جديد، لنبدأ أو لنواصل الحديث عن أرسطو، وعن ذلك الغرض البعيد، الذي استهدفه (لطفي السيد) من ترجمة هذا الكتاب بالذات ومقدمة سانتيهلير فيه على الأخص.. بل ذهبنا إلى أن لطفي السيد لم ينقل الكتاب إلى العربية، إلا لينقل إليها هذه المقدمة.

وأدع جانباً تلك الدفقة الكبيرة من القصص التي نشط لنقلها إلى اللغة العربية أساطين فن الترجمة في مصر، من أمثال المرحوم الأستاذ (إبراهيم عبد القادر المازني) في قصة (ابن الطبيعة) للكاتب الروسي المغمور (هاتزبياتشيف)، وقد نقلها المازني عن الانجليزية. ولهذه القصة في حياتنا، تلك الأيام أثر لا ينسى، فقد كان يطيب لحمزة شحاتة رحمه الله، أن يسمي كلاً منا بأسماء أبطال القصة، ويختار لنفسه بطلها الأول أو الأظهر الذي تدور حول حياته القصة كلها، وهو «سانين»، واختار لي اسم «يوري» ولست أذكر بماذا سمى بقية المجموعة من الأصدقاء. وقد نشر المازني - بعد أكثر من عشر سنوات - قصة بعنوان إبراهيم الكاتب اتهمه بعض النقاد بأنه قد سرقها من (ابن الطبيعة). وقد قرأنا القصة، واستسخفت أنا رأي هؤلاء النقاد إذ لم يكن في وسع المازني أن يستغني أو أن يتخلى عن أسلوبه في ما يكتب، من أدبه أو من الآداب التي ينقلها إلى العربية. وكانت وجوه الشبه بين القصتين، تنحصر في هذا الأسلوب الرفيع الذي عرف به المازني رحمه الله.

ومن القصص التي لا بد أن تذكر، وتعتبر من الأسس في خلفياتها الثقافية، قصة (تاييس) و(الزنبقة الحمراء) لأناتول فرانس. وكان مما دار بيني وبين (حمزة) عن أناتول فرانس في هاتين القصتين، أن إنسانية فرانس، ومعالجته لموضوع الفحش والطهر، بالنسبة لتاييس، والراهب يافنوس، قد

انطوت والتفّت أو هي اندثرت في الجو الخاص الذي تدور فيه أحداث الزنبقة الحمراء، وأن حريته المطلقة التي مارسها في تصوير (تاييس) الغانية. ثم (تاييس) القديسة قد جمدت جمود الكريستال على الموائد المترفة، وجمود الماس واللؤلؤ على صدور النساء في حفلات العشاء التي يدور حولها الأبطال في (الزنبقة الحمراء) ومع ذلك، فلم نكن نملك إعجابنا بأسلوب فرانس وتصويره الرائع للصراع الرهيب الذي ظل يعانيه الراهب (بافنوس) مع أفاعي الجنس التي تنهش صدره. والذئاب الجائعة في أعماق نفسه المحرومة من مطلبها الغريزي. . كان صورة أخاذة، عبقرية الملامح والألوان والسمات، لقدرة فرانس كفنان منطلق لا سبيل إلى أن تقف أمام ريشته وأفكاره أية سدود أو قيود. وأذكر كيف كنا نعض أصابعنا أسفاً على جهلنا باللغة الفرنسية. لنقرأ المزيد مما كتبه (أناتول فرانس) ولم يطل بنا الانتظار، فقد ترجم له من لا أذكر اسمه الآن - وليس من أعلام الترجمة - كتاباً باسم (حديقة أو مائدة أبيقور) فيلسوف اللذة المعروف ثم وقع في أيدينا كتاب آخر للأمير (شكيب أرسلان) عن (أناتول فرانس في مباذله) وبذل توهمنا أننا قد استكملنا بعض ما كان ينقصنا عن الإلمام المعقول بأدب (أناتول فرانس). ومن المؤسف أننا لا نجد من يهتم بإعادة طبع هذه الكتب اليوم، لنعود إلى شرائها، بعد أن بعتها في مزاد.

وإذ أذكر هذه القصص، لا أنسى، ولا ينسى رصفاؤنا الشيوخ، رواية نقلها إلى العربية (طانيوس عبده) تحت عنوان (أهوال الاستبداد) لكاتب روسي نسيت اسمه الآن. ثم (آنا كارنينا) لتولستوي ولم تكن قصة (الحرب والسلام)، وهي من أشهر أعمال تولستوي، قد نقلت إلى العربية بعد. ولكن لم نفتأ أن نقرأ ما يكتب عنها في المجلات والصحف وعن تولستوي نفسه. وما زلت أذكر كيف كان تطلعنا إلى إنتاجه يزداد ويحتدم وبالأخص يوم قرأنا

كلمة نسبت إلى (بيرنارد شو) يقول فيها عن كتاب لم ينقل إلى العربية باسم (ما هو الفن؟) لتولستوي: (ها نحن نسمع صوت أستاذ بحق)... وبالتتبع ربما كانت تحفل به مجلات تلك الأيام. عن أعاظم كتاب الأدب العالمي. استطعنا أن نكوّن حصيلة لا بأس بها من المعلومات والأفكار كثيرين ممن ذكرت وممن لا يتسع الوقت لذكرهم في هذا الحديث.

أما أدب المهجر، وعلى الأخص من أدبائه (جبران خليل جبران) و(إيليا أبو ماضي) و(ميخائيل نعيمة) فليس بيننا من ينكر أثرهم في بداية مراحل هذه الثقافة الذاتية. ومثل هذا الأدب وفي بداية تلك المرحلة أيضاً، يمكن أن نذكر كتب (مصطفى لطفي المنفلوطي)... ولكن ما كدنا نوغل في الأمهات من كتب الأدب العربي. وفي الواقع من المنقول إلى العربية من الأدب العالمي، ولجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر صاحبة الفضل الكبير، في هذا النقل، حتى أخذنا نشعر بأن أدب المهجر يمكن أن يوقف المشاعر ويوجهها نحو أجواء الفن، ولكنه لا ينميها، ولا يبني العضلات الفكرية القوية، وأن أدب المنفلوطي يمكن أن يصلح للشداة والناشئين إذ يغري بالقراءة، ويعين على تكوين محصول قوي أحسن المنفلوطي اختياره من مفردات اللغة العربية، التي يسهل تناولها وربما هضمها في قصة كماجدولين أو سيرانودي برجراك. بينما يتعذر هذا الهضم على الشادي والناشئ، إذا ما قرأ «البيان والتبيين» للجاحظ، أو «مقدمة ابن خلدون» أو أي كتاب لأبي حيان التوحيدي.

أطلت دون شك، في ما يبدو استطراداً، وجنوحاً عن الحديث عن القمة التي لم تكتشف، ولكني أتحدث عن مسيرة ثقافية عشناها مع الفقيد في ظروف، كانت فورة الشباب، ونوازع الطموح ومشاعر الإيمان بحق الوطن علينا، تخفف من عسرها ووعثاء الرحلة ووعورة مسالكها، مع

ضعف الموارد وانعدام أسباب الدعة والرخاء... بل وانعدام الضوء الذي نسهر به عاكفين على القراءة والبحث والمتابعة باستثناء (الفانوس الهندي) الذي نفضِّل الحجم الصغير منه، لندخله معنا في «الناموسية»، رغم شدة الحر، واحتباس النسمة، هرباً من البعوض، وإصراراً على القراءة والدرس مع عدم التخلف عن العمل في الوظائف التي نشغلها في أوقات الدوام المقررة. وقد كانت تعرف البداية في الصباح، ولا تعترف بالنهاية، ما دام هناك عمل يجب أن يؤدى، ولو استغرق ساعات طويلة من الليل. ولا أستطيع أن أؤرخ لدخول ما يسمى (الأتريك) في حياتنا ولكني أذكر فرحتنا به حين أصبح من الميسور شراؤه، بفتيلته وغازه، وعملية نفخه وشحنه بالهواء. ولا أخفي أننا كنا نشعر بالزهو، حين نستعد به لاستقبال الزائرين والضيوف، ولعل انتفاخة الزهو ونحن نراه يضيء (المجلس) كانت لا تقل عن انتفاخ الأتريك نفسه، مع إحساس بأننا ـ والحمد لله ـ قد أخذنا طريقنا إلى ما كنا نسمع عنه، ولا نرى له أثراً من حضارة القرن العشرين.

وبعد.. فقد قلت إن حمزة شحاتة يبدو وكأنه قد ولد قمة منذ درجت قدماه على تراب هذه الأرض. وللقارئ أن يسمي هذا مبالغة وإسرافاً في التقدير، ولا أنكر أن التعبير ينبض بهذا المعنى ولكن عندنا من الشواهد، ما يجعلنا نتساءل ونحن نستعرضها: متى؟؟؟ وكيف؟ استطاع حمزة أن يهضم كل الذي هضمه وتمثله من ثقافات، مصادرها التراث العربي القديم من جهة، ثم ما شهده الأدب العربي من تطور خلال فترة يمكن أن تحدد بما لا يقل عن قرن من الزمان من جهة أخرى.

صحيح أنه كان يقرأ ما نقرأ.. وصحيح أن ما كان يصل إلى أيدينا من الكتب، كان يصل إليه أيضاً. ولكن، كيف تأتى له ذلك النضج العقلي والفني وهو بين مرحلة الصبا الغض والشباب في فجره دون ضحاه؟

المحاضرة(*)

سادتي - إخواني

عندما يكون الإقدام على المخاطر ضرورة، لا يعد شجاعة، ومعنى هذا أن النسبية تدخل في حساب الحقائق الفكرية.

والضرورة هي التي تدفعني اليوم أن أقف منكم هذا الموقف على إيماني بضآلة شأني في ميزان الفهم العام... فما كان يسعني أن أرد لجمعيتكم المخلصة طلبين في عام واحد.

وللضرورة في حساب الحياة أبعد الأثر. ونعتقد أن التطور ما لعب دوره الخطير في تكميل أسباب الحياة الاجتماعية إلا على أساس الضرورة الحافزة.

إن حديثي في الواقع ولا أسميه محاضرة، عن الخلق الكامل كعماد للرجولة، لا عن الضرورة كأساس للخلق الفاضل، أو كعماد للرجولة، لكني اخترت أن أمهد لهذا الحديث هذا التمهيد، وأن أزحزح العنوان المقترح عن وضعه قليلاً فيكون «الرجولة عماد الخلق الفاضل» لا الكامل

(*) ذاع صيته في المشهد الثقافي في هذه المحاضرة المطوّلة التي استغرق القاؤها خمس ساعات متواصلة في جمعية الإسعاف الخيري بمكة المكرمة عام ١٩٣٨م وعمره آنذاك ثلاثون عاماً، وصفق له الجمهور أكثر من ثلاثين مرة لبلاغته ونمط تفكيره الفلسفي.

فما يزال الكمال نشدة الحياة المطولة، ووهمها الذي تنساق أبداً في طلابه، وما دامت مراحل الحياة تمتد ولا تنتهي. وقوافل الأحياء تسير ما يثقّل خطاها الزمن الجاهد. وما دام التغير الدائم دأب الحياة وسبيل ما فيها، فهل نقول إن شيئاً كمل، قبل أن يوفى على غايته، ويبلغ تمامه؟

وأنا لست أعرف معنى لهذه الحرية، بيد أني ألفت أن أطلق لفكري عنانه فهذا عندي أخلق بأن يجعلني أكثر شعوراً بحياتي، وفهماً لها، وأنا طامع بعد في أن تحمدوا لي نتائج هذه الحرية إن شاء الله.

لا تكون النظرة إلى حقائق الحياة والفكر خالصة، إلا من أناس يرون أنفسهم فوق قيودها وقوالبها، وهؤلاء يدعون بالمجانين تارة، وبالفلاسفة وقادة الفكر تارة، لأن حظ الصفات والمبادئ والنزعات يرتبط دائماً بحظ الداعين إليها، والمتصفين بها، من النجاح والفشل.

هذه حقيقة فطن لها الناس من القدم، فقالوا كثيراً ما معناه:

الناس من يلق خيراً قائلون له ... ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

ليس هذا حظ الأحياء فحسب، بل حظ المبادئ والأغاني والنظريات والفضائل، وحظ موقفي بينكم الليلة أيضاً.

وأنا أريد التجريد والتعرية كباحث لا كمحاضر، فإني لو قصرت كلامي على الرجولة، أو على الخلق الفاضل، خشيت أن يتحول حديثي إلى موعظة لا تعدو أن تكون تمدحاً حماسياً بالفضائل، دون تحليلها، وردها إلى مصادرها وتحديد قيمها، ومعاييرها، وأثرها في صميم الحياة وعلاقتها بالنفوس.

والتجريد مبدأ قديم لي أو هو مرضي الذي لا أشفى منه. عرفني به من عرفوا طريقتي في الحياة ومن قرأوا نظراتي القديمة في الخير والشر.

في الفضائل والرذائل، وفي الحب، وفي الشعر.

فإذا ظن ظان أن في ما أقوله الليلة خلطاً أو إطلاقاً أو شذوذاً، فإنما يكون هذا الظن معقولاً لا أضيق به، فهو عندي شبيه بالنظرة إلى مجهول لم يتكشف، لا إلى مجهول أخذ سبيله في التكشف والوضوح.

* * *

كان الحديث عن المسائل الجنسية، وعلاقتها بحياة الإنسان الفكرية، وأخلاقه، وميوله، وعقده العصبية ووجدانه؛ أول ما فوجئ به الناس مساً لمواطن العفة والتقديس في نفوسهم وعقائدهم الفكرية، حتى نالت المسألة الجنسية نصيبها من الفهم والتقدير، فإذا تناولها اليوم باحث بالتوليد والتكرار والتمحيص والاكتشاف، لم يلق العنت الذي لقيه الباحث الأول.

وأنا لا أزعم لكم أني الباحث الأول في الفضائل والرذائل، ولكني أظن أني أول من يتناول البحث فيها بهذه الطريقة التجريدية وبهذا الأسلوب العاري.

والتجريد في مرحلته الأولى، رد للمسائل إلى أصولها المفروضة، وإلى أساساتها العارية. فهو يمس العقائد الفكرية ـ لا شك ـ ويهدم منها شيئاً، ليقيم شيئاً محله.

وهو فرض ينازل حقيقة تحجر بها الاصطلاح، وهم ينازل اعتقاداً، وشك تعارض به معرفة.

وما زالت النفوس أضعف استعداداً لقبول المفاجآت التي تحاول أن تنتزع من معتقداتها ومشارعها، شيئاً له قيمته وقداسته، وله صلابته العنيدة.

وشأن الجديد في هذه السبيل، أن يكون رمز الإقلاق والبعثرة، وما يهون على النفوس والأفكار أن تنزل عن قوانينها الأدبية، وتقاليدها وعقائدها، إلا مكرهة.

والجديد متى استطاع أن يقيم الشك في نفس، كان قد غزاها الغزوة الأولى ولكن هذا ليس سهلاً كما يظن.

فقد يكون هدم قانوني رياضي، أو هدم قاعدة علمية، أهون كثيراً من مس عقيدة في رجل، أو في فضيلة، بل هو هكذا.

قلب أينشتين ـ العالم الألماني ـ بعض القواعد العلمية والرياضية رأساً على عقب، فما عبأ به الناس، ولا تنكروا له. ولعله لو اقترح تحويل كنيسة مهملة إلى ملعب رياضي، لمس بهذا الاقتراح أطراف مشكلة قد تجر إلى الاعتداء عليه.

إذاً نحن نعرف الخطورة في اعتراض عرف متصلب، حتى في أهون المسائل النظرية المتعلقة بعقائد الفكر والنفوس، فلماذا نجازف...؟

إن المجازفة الليلة ضرورة، ومن الخير أن نستفيد من قوانين الضرورات المرتجلة، لنكون باحثين مجازفين. فالمجازفة في تاريخ نشأة الحياة، وفي تاريخ تطوراتها، قادت روادها إلى القمم الشامخة وأعانت على كشف مساتير الوجود والفكر.

والفكر المؤمن بنظرته إلى شيء نظرة خاصة، لا يسعه إلا أن يؤدي الأمانة.

ونحن لا نحلم بالقمم الشامخة، ولكننا نرجو أن نصحح مقياساً من مقاييسنا الفكرية، ولو بالشك فيه، لأن الركود في تاريخ أمة تتطلع إلى ما وراء حدودها الجامدة، شر من الخطأ.

لهذا ستكون نظرتنا إلى الفضائل ـ على أن أساسها التجريد القاسي ـ نظرة من يريد أن ينطلق بها من حدودها الضيقة المتصلبة، إلى حدود رحيبة من الشك والوسواس، خاضعاً لسعة إدراكه لأطرافها، وخفاياها ورموزها،

وعلاقتها بأشباهها، وهو لا يفعل بها هذا ليضعفها، بل ليبلغ بها أبعد حدود القوة والاحتمال.

والناس يمتحنون قواهم الجسدية، بألوان عنيفة من الرياضة، والكد المصطنع، لتمرينها على احتمال الأعباء، ولشحذ طاقتها، ولتقوية مراكز الإرادة والسلطان فيها. على أن الرياضة في ذاتها ـ كمشقة ـ نصب للجسم، وانتهاك صريح لحرمة نشاطه المذخور.

وسأكون الليلة أكثر حرية. وإن كانت أفكاري ونظراتي، ستفقد الترابط والانسجام، لضيق المجال الذي يشعر به باحث أو محدث، يجيء في غبار السادة المجلين قبله. فهنا تنتصب الموازين الدقيقة، وتضيق دائرة التسامح والتغاضي. فقد عرفت الأذهان أنماطاً عالية من التفكير وأنماطاً قوية من أساليب القول المجود، كونت ذوقاً أرستقراطياً، لا يرضيه من الجمال إلا أن يكون فتنة تهز المشاعر، ولا من القول إلا أن يجيء عبقرية.

وهذا لون من ألوان الإدمان الأدبي، بل هو عندي الليلة شر ألوانه، فإن الأذواق متى ألفت أن تصيب لذتها من جمال محدود، تاقت بعد ألفته، واستصفاء معانيه. إلى ما يكمن وراء حدوده الظاهرة، وإلى ما يقودها بعيداً عن هذه الحدود، على وفاق نصيبها، من سعة التخيل، وجشع الإحساس، والمقدرة على تصور الصور واستحضارها وانطلاق الميول.

وإدمان النظرة إلى صورة جميلة، يفقدها شيئاً من تأثيرها القوي كلما تجدد إليها النظر المشغوف، وارتوى منها الحس المنهوم، حتى تفقد مقدرتها على التأثير والأداء.

وإنك لتعجب بالمنظر يفتنك، ويلقاك بألف معنى. أول ما تلقاه فما تزال نفسك دائبة في تحليل معانيه وإذابتها، حتى تنتهي بها إلى الإصغاء والإفلاس، وتكون قد حولتها إلى دمك شيئاً منه، فما تلبث أن تتصرف عن

هيكلها العاري، وقد تركته مادة جامدة، وأضفت إلى قانون الجمال وفهمه، والإحساس به في نفسك، مادة جديدة، لا يبلغ بها الرضا عندك، إلا أن يضمن لك المنظر الجديد، معنى جديداً، يزيد عما تعرف.

ولبعض النفوس والأذواق قوة النار واستشراؤها، شأنها في الإذابة شأن النار، ما يستقيم فيها شيء إلا إن كان في معناه معنى الصخر والحديد وهو بعد ذاهب لا يدوم، وذائب ما يبقى!

فإذا خفت الليلة، فإنما أخشى خطراً عرفت مشابهه في نفسي، فإن كتبت لي السلامة ـ ولا أتوقعها ـ فإنما تكون أثر الحظ، وخارقة من خوارقه المعروفة.

ولست أرجو أن أصيب النجاح في مثل هذه السبيل الجانحة، لكنها الضرورة، وما كنت لولاها أوثر أن أتكشف لكم عن سرائر ودخائل ضئيلة تخيب أملكم فيَّ، وأملي في نفسي.

ولقد يواجه المرء خطراً لا معدى له عن مواجهته، فتكتب له النجاة. فيقول الخليون: إنه شجاع، فإن أسلم روحه قالوا إنه الجهل والتهور واختلال القياس، أو ذهبوا يعددون منادح الخلاص التي يرون أنه كان خليقاً بأن يتفطن لها.

ولا شك عندي في أن سراوة مظهري ستجني عليَّ كثيراً، وتردد اسمي بين أسماء إخواني الأدباء، يوهمكم فيَّ، ويعدكم بما أعجز عن تحقيقه. ورب قائل يقول: أليس هذا عصر الانتهاز والإعلان؟ فأقول له: بلى، ولكنه عصر المنطق والوزن والتقدير والمقارنة أيضاً!؟ وإنما يقاس النجاح فيه، بما تعد به الطاقة المتخيلة، والإمكان المفروض. والناس إن أدهشهم الرجل العادي، لأنه لعب على الحبل بمهارة، لم يقنعوا من

البهلوان الشهير إلا بما يدخل في حدود السحر من الأفعال الخارقة.

ونحن نفرح بالطفل يهدينا ما لا يساوي في ميزان المادة شيئاً، أضعاف ما نفرح بهدية غني تساوي العشرات؛ ذاك أنّا ننظر من وراء القيم والمعايير، إلى الطاقة والإمكان، وإلى بواعث الشعور ونسبتها؛ فالكبير إن أهدى فسبيل مثله أن يفعل، أما الطفل فسبيله الأثرة والشح، فهو إن أهدى شيئاً فإنما يهديه من نفسه، وإنما يعبر بهذه الدلالة عن عاطفة ساذجة في حرارة اندفاعها، وصدق انفعالها، غير ناظر إلى الربح والبذل.

والكبير يقدر الغاية، ويرسم الوسيلة إليها، أو يؤدي الدين، أو يفتتح السبيل، وميزانه في ذلك ميزان الحساب الدقيق، إما في اعتبارات المادة، أو في اعتبارات الشعور بمطالب القلب والفكر، ونوازع الأريحية والوجدان فشأني الليلة أمامكم، هذا الشأن. وما أود أن تكون خاتمتي بينكم موتاً، بل انتحاراً. فالانتحار ـ هنا على الأقل ـ أضمن لتحقيق معنى الاختيار من الاستسلام للموت. ولعله أدل عندي على الحيوية، وتركز الإدارة، ووضوح الفكرة، وقديماً قالت العرب «بيدي لا بيد عمرو» و:

«تأخرت أستبقي الحياة، فلم أجد لنفسي حياة، غير أن أتقدما»

* * *

ليس من السهل أن يتكهن باحث بالعهد الذي عرف فيه الإنسان الخير والشر، وإن كانت معرفتهما ـ على الأرجح ـ متصلة بحياته الفطرية الأولى، أو منتزعة من صميمها.

وإذا كان صعباً أن يحدد التاريخ الذي عرف فيه الإنسان، الزراعة وزاولها، والتاريخ الذي اكتشف فيه النار، وعرف صنع السلاح، وإقامة الأكواخ، فإن من أصعب الصعاب، أن يكتشف اليوم باحث، تطور نفسيات

الإنسان الأول، وتطور مدركاته الفكرية.

وقد يمكن ترتيب الأطوار الكبرى التي اجتازها الإنسان القديم بشيء من الفرق الدقيق، وبشيء من الاستقراء، ولكن التعرض لسلسلة المراحل التي تخللت هذه الأطوار الكبرى، ليس هيناً.

وإن كانت دراسة أحوال الجماعات الهمجية اليوم، تشير إلى أحوال الإنسان القديم، وتحل بعض الرموز، فإن ما لا شبهة فيه أن حياة أية جماعة همجية في هذا العصر الراهن، تختلف كثيراً عن تاريخ همجية الإنسان الأول ولا يمكن أن تعطي صوراً تقريبية لها.

فانتشار الجماعات الأولى على سطح الكرة الأرضية، يعد وثبة مجهولة لا يمكن أن يهتدي فيها فكر الباحث أو المفترض إلى نتيجة، يطمئن إليها العقل. وتحديد المجتمع الأول، للجماعة الأولى، لا يقوم إلا على ترجيحات ذهنية ضعيفة، يسهل نقضها.

فآثار الإنسان والحيوان المتحجرة، تكتشف في نواحٍ كثيرة متباعدة من الأرض، لا تصلها ببعضها وسائل النقل السريعة في هذا العصر إلا بصعوبة.

والذي دفع الجماعات البشرية الأولى إلى التفرق والتباعد، لا يمكن أن يتعدى الدوافع التي تنشأ عن الحاجة إلى الطعام، أو الشعور بعدم ملاءمة البيئة؛ لأن نظرية التكاثف الاجتماعي، لا يمكن التسليم بصحتها، بالنسبة للأطوار الأولى.

ولو أمكن التسليم بأن الجماعات المشتقة من الجماعة الأولى، اندفعت بعوامل بيئية، أو غذائية إلى الهجرة عن مواطنها الأولى على شاطئ نهر مثلاً، لما جاز أن تقطع طول هذا النهر، لتهجره إلى بيئات جافة، يقل استعدادها الطبيعي للزراعة، ولتكوين مجتمع حيواني، أو إلى بيئات بعيدة

يستغرق الوصول إليها عمر الجماعة المهاجرة قطعاً.

ولا شك أن عوامل الانتشار والهجرة من أول بيئة عمّرها الإنسان ستبقى لغزاً مبهماً.

وعلى قدر الصعوبة في استنتاج النتائج المتعلقة بالحياة الاجتماعية للإنسان الأول، تتضاعف الصعوبة في الحكم على تطوراته الفكرية والنفسية.

ولا تزال الفكرة عن الخير والشر في بقايا الجماعات الهمجية، الآن غامضة كل الغموض، بالرغم من أن همجيتها، تعد حياة اجتماعية عريقة، إذا قيست فكرياً إلى ما يفرضه العقل لهمجية الإنسان في أطواره الأولى.

وقد تستغربون العلاقة بين الأطوار الاجتماعية الأولى، والبحث في الأخلاق، ونحن نراها في أوثق العلاقات، وألزمها لباحث يريد أن يحدد الفضائل، التي تقوم كل فضيلة منها مقام شريعة أدبية قامت بمجهود كبير في تهذيب النفوس، وتحديد ميولها، وكبح نزعاتها.

إن القوانين التي تسن اليوم، تشير إلى المجهود المضني الذي تبذله قيادة كل جماعة، لتنظيم حياتها، وعلاقاتها، وإقامة الحدود بين أفرادها، وتشير إلى التنازع المستمر بين رغبات الفرد، ورغبات الجماعة، أو بين الرغبات التي تمثل المصلحة الفردية، والرغبات المثلى للجماعة.

ومصادر التشريع اليوم، لا تلقى المقاومة التي تلقاها مصادر التشريع في الأطوار الهمجية الأولى. فقد كان كل فرد في جاهلية الحياة، حكومة تمثل نفسها، وتفرض رغباتها، وتمهد السبيل لمصالحها، بقانون قوتها الغاشمة!

فالعهد الذي برزت فيه أول فضيلة، أي أول شريعة أدبية، هو العهد

الذي انبثق فيه فجر المدنية الفكرية للإنسان بلا شك، وهو العهد الذي تهيأت فيه الولادة المستمرة للفضائل، والشرائع الأدبية.

كيف نشأ الشعور بهذه الفضيلة؟ وكيف فرضت؟ وكيف تم الإيمان بها، أو الاصطلاح عليها؟ وكيف سادت أحكامها؟ وممن ممثلوها في الجماعة؟ وهل كانوا يمثلون سلطتها؟ وهل كانوا أقوياء، أم ضعفاء؟

تتداعى هذه الأسئلة في فكر الباحث باعتبار علاقتها بأهم خطوة في الأطوار الأولى لحياة الإنسان القديم.

ولا شبهة في أن الإنسان عرف النفع والأذى قبل أن تقوم في نفسه فكرته الأولى عن الخير والشر باعتبار مفهوميهما العام، فاهتداؤه إلى فكرة الخير والشر، كان بعد عقيدته في النفع والأذى.

والنفع والأذى جاءا، أو جاء الشعور بهما بعد اللذة والألم، لأنهما صادران عن أحكام جسده وحياته في نطاقها الحيواني الضيق.

ولما كان بحثنا أشبه بمحاولة أدبية جريئة لتحليل الأخلاق، وعلاقتها الأصيلة بالحياة، فإنا سنتسامح كثيراً في التقيد بالقيود التي تستوجبها الدقة العلمية، في أبحاث تحمل شارة التقيد بأحكام العقل، والعلم المدقق.

❊ ❊ ❊

نبدأ بتعريف الفضائل، والرجولة، والأخلاق، وهي الكلمات التي شملها عنوان هذا البحث مع إيماننا بأن تعريفنا لا يمكن أن يضمن تحديداً دقيقاً لها، إنما يكون أساساً تبنى عليه النظرة الخاصة، وتقوم عليه فروضها.

ولا نستبعد أن يكون ما نقوله في هذه التعاريف، وفي ما يتلوه من الفروض والنظرات متأثراً بما سبقنا إليه الباحثون. ولنا في هذا رأي نرى إيراده ضرورة.

إن الأساسات المدرسية، والأدبية القديمة، في اللغة العربية، وفي ما دخل عليها من اللغات الأخرى، تكون جزءاً من فكرة الأديب ومبدئه الأدبي، وجزءاً من نزعاته الفكرية.

وإذا كان الشاعر في عصرنا لا يخرج بلغته عن جملة الألفاظ التي استعملها الشعراء قبله، ولا عن قوانين الصياغة والرصف، ولا عن قوانين التخيل والتصور، فلأنه لا يستطيع أن يبتدع لنفسه لغة خاصة، ولا فكراً يصاغ على غير ما صيغت عليه أفكار الشعراء قبله، ولا قوانين صياغة غير قوانين لغته التي ورثها.

ومصادر الشعر النفسية والفكرية، وأسبابه العاطفية، والعقلية، ما تزال هي هي في شاعر اليوم وفي شاعر الأمس.

وإذا كانت أوضاع الحياة قد تغيرت، فإن خصائص النفس والفكر لم تتغير، تغيراً انتزع عواطفه الإنسانية وبدلها.

وإذا كانت العلوم قد تقدمت فليس تقدمها دليل أنه صار ذكاء الإنسان إلى غير ما كان عليه قبل ألف سنة.

إنما معناه أن الاكتشاف وتقدم وسائل التعليم، وتطور نفوذ الثروة والسلاح، والتقدم الآلي، وسعت مجالات الذكاء وضاعفتها.

وإن كان الإنسان المتحضر اليوم لا يعيش كما كان يعيش سلفه، فإن قلبه لا يزال ذلك القلب، وقريحته الشعرية ما تزال تلك القريحة، وما تزال أسباب الحب، ومشاكله، وابتعاثاته، وأوهامه في نفس شاعر اليوم، هي ذاتها في شاعر الأمس.

فالباحث في الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، لا يمكن أن يأتي في

تعريفها بجديد يختلف كثيراً عما أتت به الملكات والأفهام قبل ألف سنة مثلاً وما يصيبه من تقدم الاكتشافات الفكرية، وتعدد سبل الحياة والعقل، يوسع مجالات العلائق فقط، ولكنه لا يخرج الاعتبارات الفكرية عن حدودها إلا قليلاً.

وجمود بعض الحقائق النفسية والفكرية معروفة، ما نجدنا بحاجة إلى التدليل عليه، وإنما تختلف العصور في الإيمان بالحقائق والتوسع في فهم علاقاتها. فإذا قال مفكر اليوم إن الفضائل أوهام عقلية أو نفسية، غايتها إيجاد مثل عليا للجموع، تستمد منها روح العزاء والعزيمة والأمل، لم يكن معنى هذا إنكار صحة تعاريفها، أو صحة الأحكام التي أعطيت عنها.

فالشيء قد يكون صحيحاً في ذاته، وصحته لا تستدعي صحة الفكرة عن الاعتراف بإمكان تطبيقه، أو استحالة هذا الإمكان، ولا تستدعي الإيمان به أو رفضه.

على أن تحديد بعض الحقائق وتعريفها قد يختلف في عصر عن عصر، بل في فكر عن فكر، ولكن حقائقها الأصيلة لا تختلف.

فإذا قال قائل عن الكذب ليس هو حكاية غير الواقع، لاختلاف التصورات والإدراكات في بعض النفوس عن بعضها، لم تكن مقالته إنكاراً لحقيقة الكذب، بل لتحديده وتعريفه.

وقد نكون مسبوقين إلى هذه التحديدات، أو مخالفين بها تحديدات يظن أنها أكثر دقة واستغراقاً لمعنى ما تحدده. فما نضطر أحداً إلى التسليم بما نقوله، أو قد يكون كل ما نقوله عن الفضائل والرذائل شيئاً قديماً فيما ندعي له الجدة أمامكم. وقد يكون شيئاً تجدون مشابهه في الجديد فما تنفى عنه هذه الشبهة.

إنما ندعي الاستقلال، وإنما نقول إن الأساسات المدرسية والفكرية القديمة، والأساسات الفكرية الجديدة، وشيوعها، جعلت بين الأفكار العامة روابط صلات، ما ينكر أثرها في إزالة الفوارق وتقريب الأفكار وتشابه السمات.

وحسبكم أن تقرأوا اليوم في الحجاز، أساليب من الشعر، وأساليب من الكتابة، لا يختلف بعضها عما تعرفون لخيرة الكتاب والشعراء في مصر، فمن يَعُدَّ هذا تقليداً أو سرقة؟ إنما هو أثر الاشتراك العام في مؤثرات فكرية متشابهة، وأثر انتشار الثقافة، وتهيؤ أسباب العلم لمستحدثات العقل والفكر والصناعة والفنون، وتوثق الصلات الفكرية والأدبية، وتوحد اللغة والدين، وتقارب الطباع والأمزجة وتأثير الاختلاط والامتزاج الاجتماعي والفكري.

وفي شعراء مصر من نجد على شعره سمات شاعر عربي قديم، وطابع صياغته في كُتَّابها من نجد في آثاره ما يعلن صلته الصريحة بأديب من كبار أدبائها، وفي كبار أدبائها من تطالعنا آثاره بأفكار أديب، أو نظرات عالم، أو مذاهب فيلسوف من الغرب، فماذا نحن قائلون؟؟

أغير أن مجال الفكر اليوم قد اتسع، وتحرر من القيود التي أقامتها العزلة القديمة بين الشعوب؟ وإن آثار حرية الفكر وشيوع مذاهب التفكير وأساليبها في أنحاء العالم، وتقدم المواصلات والصلات الاقتصادية والفكرية والسياسية قد خلقت طائفة من القرابات الذهنية والأدبية بين الناس؟؟ وكانت سبباً في القضاء على كثير من أسباب التباين الفكري والأدبي بين الشعوب المتباينة!

وما نرى بعد ما قلناه، دليلاً على براءتنا من تهمة التقليد أو ترديد المألوف، أقوى من ضعف هذا البحث، واضطراب مذهبنا فيه، هذا الاضطراب الواضح.

والآن نبدأ:

الخلق الفاضل يعرفه الناس، فلا يزيدهم فهماً له أن تقيم الكلمات والتعاريف حدوده.

فهم يكذبون ويخونون، ويؤمنون بأن الصدق والأمانة نبل.

ويتبذلون، ويشعرون أن العفة سمو.

ويضعفون، ويكبرون القوة.

ويَظلِمُون، ويقدسون العدالة.

فالفضائل إذاً صفات وأعمال، تؤمن الجماعة الغالبة اصطلاحاً بفائدتها وضرورتها، أو بأنها خير.

والرذائل صفات وأعمال تؤمن الجماعة الغالبة اصطلاحاً بضررها أو بأنها شر.

فالنفع والأذى أساس الاعتبار في الفضائل والرذائل.

والأخلاق هي آثار الفضائل القائمة في النفوس، أو أثر مزاولتها، والرجولة في ميزان الاعتبار الأدبي، ليست هي الفارق الطبيعي بين جنسين ولكنها مجموعة من الصفات الرائعة في الرجل الرائع.

* * *

ومن حسن الظن أن الألفاظ في مجال البحث الأدبي، وتقرير التعاريف لا تحدد المفاهيم تحديداً هندسياً، ولكن تُقربها، لأن مدركات الذهن عادة تقوم بنصيب وافر في تكميل الصور، وحل رموزها، وتوسيع مدى مضامينها وإشاراتها.

وواضح أني لو أردت أن أضع تعاريف أدق وأكمل للفضيلة والرذيلة

والرجولة والأخلاق، لوجب أن أسوق أمامي قطيعاً من أفكار الحكماء والعلماء والأدباء والفلاسفة، وأكون قد عرضت عليكم بضاعة غيري وبهذا تكون اللعبة أقل خطراً مما يراد، أو مما ينتظر.

والإيمان بالفضيلة قديم، كما أن الكفر بالرذيلة قديم، والحرب بينهما لا تزال قائمة، ما تهدأ لها ثائرة، وهي سجال بينهما، ميدانها النفس الإنسانية تارة، ومجال الحياة الظاهر تارة أخرى، وستبقى سجالاً هكذا. إلا إن أراد الله، فإذا انهزمت الرذيلة في مجال الحياة الظاهر، لم تنهزم في مجالها الباطن، فعرشها ما يزال موطد الأركان في النفوس.

فهل كانت الرذيلة ضربة لازبة على الحياة؟

أم أن في النفس الإنسانية ضعفاً؟ ما تكون الحياة كاملة معاني القوة إلا به. وإلا بأن يبقى قائماً يذكي نار الصراع فيها حتى تنتهي إلى غايتها المقدورة لها، أم أن الشر فطرة النفس الإنسانية، والخير عدوها اللدود فما ينفك يغزوها، وهي تدفعه؛ لأنه الدخيل الواغل على حياتها، فإن استكانت له فإنما تكون استكانة المجاهد المغلوب على أمره، لا استكانة الإيمان بالحق، فإذا استعادت قوتها على الصيال صالت، وعادت سيرتها التي مما تتبدل ولا تزول.

ذلك ما لا يجد الفكر عليه جواباً.

لا خلاف في أن الإيمان بالفضيلة، والكفر بالرذيلة، غير سلوك سبيلهما، لكن الخلاف يجيء من التفرقة بين الإيمان والعمل به، والكفر والعمل به، والموقف من الدقة بحيث يخشى فيه الزلل على العقل البصير.

هذه مسألة لا يجيب عليها العقل وحده، بل يجب أن يُستنجد لها الضمير؛ فالإيمان بالفضيلة عند الفارابي ـ الملقب بأرسطو العرب ـ خير من سلوك سبيلها على غير إيمان.

وهو يريد بالإيمان هنا المعرفة. معرفة الفيلسوف المتعمق المنتهي إلى الطمأنينة والاعتقاد؛ فكأنه يقول: إذا عرفت أن الصدق خير من الكذب، وآمنت بهذا إيماناً قاطعاً مستمداً من معرفتك، كنت عندي خيراً من الصادق ما دام لا يماثلك في هذه المعرفة. واسمعه يقول: «لو وجد رجلان أحدهما واقف على مبادئ وتآليف أرسطو، ولكن لا يسلك سلوكاً منطبقاً على مبادئ هذا الفيلسوف، والآخر يسلك سلوكاً منطبقاً على ما جاء في هذه المؤلفات، ولكنه جاهل بها، فإن الأول أفضل من الثاني، لأن المعرفة أفضل من الفعل الفاضل!».

هكذا يقول هذا العقل الجبار، فهل هي كبوة من كبواته، أم هي حقيقة الحقائق في الإيمان بالفضيلة؟

إننا نرى وراء هذه الكلمة أمداء مترامية ما يحيط بها الفكر، فما نود أن نهيم فيها على وجوهنا، قبل أن نعود إلى الإيمان بالفضيلة، نحدده أو نقيسه، أو نزنه عساه يكون عدتنا لهذه الرحلة العسيرة.

ولا مراء في أن الإيمان الكامل الصحيح بالفضيلة، معرفة، وعمل، تقتضيه هذه المعرفة، وإرادة، وحرية..

هذا هو المظهر الكامل للإيمان بالفضيلة في اعتقادنا. فلنستعرض الآن ألواناً أخرى للإيمان بها.

إن الإيمان بالفضيلة دون العمل بمستلزماته، ضعف لا يتناول حقيقة الإيمان، بل يتناول قوة النفس وضعفها، وفتورها ونشاطها، فهو إيمان المعرفة، لا إيمان اليقظة.

وهناك لون من ألوان الإيمان بالفضيلة يعمل بمستلزماتها، ولكنه لا يعرفها المعرفة التي هي الإيمان، فهو اندفاع آلي لا اختيار فيه للنفس ولا

إرادة، فنصيب النفس فيه، نصيب الآلة في حركة تؤديها، فهي تتحرك ولا تعي، وتفعل ولا تريد، كالصخرة تتدحرج فتصيب حياً فتقتله، وكالحيوان يطأ حياً فيودي بحياته، لا إرادة، ولا إدراك.

ولون آخر من الإيمان بالفضيلة تولده الضرورة، لا يكون لاختيار الإرادة فيه مجال، ولا لحريتها مساغ، كإيمان المرء بضرورة الثبات على الاستبسال دون نفسه أمام خطر داهم لا مناص له من مواجهته.

فالثبات هنا ليس إيماناً بالثبات، والعمل بمستلزماته ليس عملاً بمستلزمات إيمان يقوم على اقتناع الحرية المختارة، لكنه إيمان ضرورة بهذه المستلزمات والاستجابة لها.

فهذا إيمان، وعمل بمستلزماته وإرادة ظاهرة. لا ينقصه إلا الاختيار ليكون إيماناً كاملاً، ففيم يختلف عن إيمان رجل تحمله بالسيف على أن يؤمن بأن الصدق خير من الكذب، وعلى أن يكون صادقاً؛ فإذا عرف وصدق، فإنما يكون هذا إيمان ضرورة، وعملاً آلياً لا اختيار له فيه ولا حرية، وإنما يكون إيماناً تنتقض عليه نفسه كلما مارسه!

وإيمان بالفضيلة يولده الانقياد التقليدي، لا تنتقض فيه النفس على شيء، لأنها لا تحس شيئاً، بل تساير عليه الناس، تراهم يفعلونه فتفعله، لا مختارة ولا مكرهة، وإن كان ظاهره الاختيار والإرادة.

هذا إيمان بهيمي.



نحن نستطيع المقارنة الدقيقة بين هذه الألوان، ونعرف أيها له الغلبة، ونعرف أنها تتقاسم النفوس في القرن العشرين كما كانت تتقاسمها في المراحل الأولى من الحياة، لكنا نؤثر شيئاً غير المقارنة.

نؤثر أن نجعل السبيل إلى الشك والقياس مجهوداً. وحسبنا أن نقيم المقياس، أو نصححه، أو نشير إليه ليقيس كل إيمانه بالفضيلة كما يقوم هذا الإيمان في نفسه لا كما يقوم في أذهان الناس وعيونهم.

أنتم لا تعرفون عني إلا ما أريد لكم أن تعرفوه، وهذه سبيلكم أمامي.

الإنسان كما يشاء أن يفهمه الناس، غير الإنسان كما هو في نفسه.

هذه حقيقة نعرفها جميعاً.

وفي سرائر النفوس، سراديب تنطوي على ما فيها من عوامل الشر وآثاره ومن عوامل الخير وآثاره.

ولرب رجل يأتي الأمر، تظنه خيراً كله، وهو سبيله إلى الشر والأذى، وانتهاك الحرمات ومطيته إلى أغراض خائنة تسبح في دم الضحايا.. يرى إعجابك، وإعجاب الناس بما ظنوه خيراً فيتهلل، لأنه عرف مكانه من براعة الحيلة، ونفاذ الدهاء! فوارحمتاه للإنسان من أخيه الإنسان.

كلنا يؤمن بضرورة الارتقاء والنهوض، ويؤمن بوسائله وأسبابه الواضحة وكلنا يؤمن بالفضيلة والخير، ويكفر بالرذيلة والشر، فهل أفادنا هذا الإيمان؟ هل أفدنا به ارتقاءً أو نهوضاً؟

إنما نراه عاملاً قوياً من عوامل ضعفنا، وإنما نراه أثقلها وطأة على مواطن الضمائر والهمم فينا، فلماذا؟

ألأنه الإيمان الذي يدعوه الفارابي عملاً فاضلاً، ولا يدعوه معرفة؟

أم لأنه إيمان الضرورة، الذي لا يخرج بالإنسان من حدود ذاته المغلوبة.

أم تراه الإيمان البهيمي، فيه الانقياد، وفيه العمل، وفيه الاختيار الظاهر وفيه الإرادة الزائفة، وليس فيه الإيمان؟؟

وبعد.. فهذا حد العظة الآن، في حديثي عن الفضيلة وعن الإيمان بها، أوجزت الكلام فيه، لأن الوعظ يمس النفوس ولا يرجها، ويثير فيها الرغبة، ولا يوقظ الإرادة، ولأني لا أريد لحديثي الليلة أن يكون موعظة، تلف النفوس في ما يشبه الغيم الرقيق، لا هو يجلوها ولا هو يتركها في غياهبها المطبقة.

إنما أريد الوضوح والتعرية، وإنما أريد أن نعرف جميعاً حقيقة الفضائل والرذائل، وقرابتها من العقل المبصر، وحقيقة الإيمان بها، ونصيب هذا الإيمان من الصحة والقوة، كما نعرف حقيقة كائن حتى نشأ وترعرع واكتمل وانساق بعوامل الحياة حوله. عسانا إن آمنا بالفضيلة بعد، أن نؤمن بشيء نعرف معناه، ونعرف مواضع الضعف والقوة فيه.

والآن بعد أن بسطت لكم هذا التمهيد أسأل:

هل كانت الفضيلة، أو كان الشعور بها، أساس البناء الخلقي في الحياة؟

ولا معدى هنا من توسيع مدى النظرة وإطلاقها، وإغفال أصوات المعارضة ولو قليلاً، هي هدنة نلتمسها، والباب بعدها على مصراعيه للرفض والإنكار.

* * *

إن مطالب الحياة للإنسان الأول لم تكن تعدو حاجته إلى الطعام والمأوى والقوانين الأدبية لا تنبت إلا حيث تتسع مطالب الحياة، وتتعدد صورها، وتنفرج مسافاتها، وهذا استقراء واضح لا غموض فيه.

في هذا الطور البدائي من الحياة تكون القوة العارية مبدأ الإنسان وقانونه، وتكون الرجولة رمز هذه القوة لأن للأنوثة فيه حدها الذي لا

تتعداه، ويكون الرجل المرموق، من استطاع أن يكتسب طعامه، وأن يقيم مأواه الواقي.

فالرجولة في هذا الطور شيء يتعلق بقوة الجسد، لا بقوى النفس، ووشائج أطوارها الباطنة وتكون أيضاً الأصل في نشأة اعتبارات المحاسن، أو نشأة حلقاتها الأولى.

ونحن نسوق الكلام مساق التقرير. والواقع أنا نفترض فروضاً عقلية مجردة نلتمس أن تقيم لنا حدود الفهم والتصور والاقتناع، فالبحث في أصل نشأة الأنواع، أو في أصل نشأة الحياة الاجتماعية، لا يشبه في الغموض أصل نشأة الأخلاق والفضائل وتطورها وإن كان ارتباطه الوثيق بالحياة الاجتماعية، شيئاً لا شك فيه.

ونزيد قولنا وضوحاً فنقول إننا لا نرى معنى لنشوء الفضائل في الطور الأول من حياة الإنسان القديم.

هنا إنسان لا يعرف إلاّ جسده وغرائزه وضروراته، مطلبه الأول: قوت، ووقاية.

والغرائز قائده الخفي، وبصيرته الملهمة وسلاحه، فهي مادة التكوين الباطن فيه، لا تصدر الحركات والاندفاعات والشهوات إلا عن أحكامها القاهرة.

الغذاء ـ الحياة!

هذا تنازع البقاء

الغذاء ـ الحياة!

هما المادة التي يتكون منها دستوره الأول.

وما زالت الغرائز في الإنسان والحيوان مظهر حياتهما الفطري، ومادة الاشتقاق وسبيل التحول.

والغذاء مطلب مشترك للإنسان والحيوان الضاري على السواء ولكن الحيوان الضاري أقدر على هذا المطلب، وأسعى له، وهنا موضع الاحتكاك والصراع.

فلا جرم أن يمتحن الإنسان في هذا الطور بعواد من الجهاد، ومفاجآته الطارئة، تتطلب الصبر والثبات والقوة العارمة، وتتطلب إلى هذا تبادل المعونة والنجدة، والتكاتف على دفع المخاطر.

وفي وسعنا الآن أن نقول: إن الإنسان إنما أراد بمسعاه الأول في حياته الأولى، تحقيق مطلب حياته الصارخ (الغذاء) وهو من صبره على ما يلقاه من عنت في هذه السبيل المملوءة بالمخاطر. عرف الصبر والثبات والشجاعة، وطائفة من هذه المحاسن المتصلة بضرورات عيشه.

نحن ندعوها محاسن أو فضائل، وهو يراها ضرورات تتصل بحياته يأتيها طائعاً أو مكرهاً، لأنه يريد أن يعيش.

وفي هذا الطور عرف الخوف، واعتاد الفرار، وأحس الجبن، وانعقال القوى.

نحن ندعو هذه معائب أو رذائل، وهو يراها سبيل حياته وبقائه. هي ضرورات قائمة في دمه يستجيب لها طائعاً أو مكرهاً، لأنه لا يريد أن يموت.

رأى هذا الإنسان، أثر القوة في الحيوانات الضارية حوله وهو ضعيف، فأحس الحاجة إلى القوة وأحبها بقدر ما فيه من إرادة الحياة وحبها.

ورأى أثر القوة في الحيوانات الضعيفة، إذا تجمعت وتعاونت على

اتقاء المخاطر، فأحس الضرورة إلى التعاون.

وإذا كان بين الحيوانات الضعيفة، ما يزيدها التجمع ضعفاً، فالمرجح أن تجمعها في أطوار الحياة الأولى، كان يمثل إرادة البقاء. والأرجح أن هذه الحيوانات لم تكن موجودة بلا سلاح، يوم كان كل حي في الوجود مسلحاً بما يدفع به الغائلة عن حياته، فالذي لا تكفي قوته للدفاع تتحول فيه إرادة البقاء إلى كفاءة جريء أو مقدرة على التشكل والاختفاء.

وأثر الغرائز في الإنسان، أضعف من أثرها في الحيوان.

كان هذا هكذا، وما يزال هكذا.

فالفرّوج على ضعف بنيته وتركيبه، يندفع إلى الحياة نشيطاً آلفاً محيطه، مضطلعاً بمؤثراته العنيفة.

لكن الإنسان الصغير والطفل، يفتقر إلى المعونة الدائمة من والديه حتى يقوى.

إذاً ضعف الإنسان اقتضى شيئاً، اقتضى التجمع، التجمع التعاوني وكان تجمعه قبل ذلك طبيعياً محدوداً.

وضرورات جهاده للغذاء، اقتضت التعاون على مثال أرقى، والتعاون اقتضى تجمعاً آخر معنوياً. . الاقتسام، الاشتراك، التعاطف.

وما يزال التعاطف في حياة البشر، ضرورة منشؤها الضعف، والشعور به في أفراد الجماعة، وفي أفراد الجنس.

هذا يشير إلى ذاك.

في هذا الطور بدأ الشعور بضرورة التكتل يقوى.

الحيوانات الضعيفة تتكتل وتتجمهر.

إذاً شعور الإنسان بالضعف اقتضى التكتل أمام المؤثرات المشتركة «أخطار الحيوانات والطبيعة» فاتسعت الدائرة قليلاً وأصبح الاجتماع ضرورة. وأصبحت له فرائض جماعية، نزل لأجلها عن شيء من أنانيته.

هذا واضح في حياتنا أيضاً.

أفراد الطبقة الممتازة في الجماعة، أميل إلى التباعد والعزلة، لشعورهم بالقوة والاكتفاء، وعندما تكون بواعث التكتل، مذيبة لفرائض العزلة، يتجمعون ويخرجون من حدودها، لشعورهم بالضعف وينزلون عن شيء من امتيازات تميزهم لفرائض الجماعة، ولفرائض الاشتراك والتعاون.

هذه ضرورات حياة.

ماذا يفعل الإنسان القديم في طور الكفاح الغشيم للحياة، لو أنه انفرد؟ وجافى جماعته؟

يموت جوعاً، أو خوفاً، أو يفترس، يندر أن ينجو.. لأن الحيوانات، حتى الحيوانات الضعيفة أقدر منه على الشم والجري والنظر، والإحساس الفطري بالمخاطر، وتجنبها.

هي ذات غرائز قوية وهو ذو غرائز ضعيفة.

السبع، لا يخاف النمر، ولا يخاف الذئب لأنه يغلبهما، ويفترس ما دونه فانتفاء الخوف عنه جعله ينفرد. قوته وصولته تتكفلان بعيشه وحمايته.

الإنسان يخاف السبع والنمر والذئب، ويخاف الوعول والكلاب. هي ذات براثن وحوافر وأظلاف وقرون ونيوب.

وهو ذو حجر وعصا وأنشوطة، وذو حيلة وصبر ومهارة. فما يخشاه السبع إذا انفرد، ولكنه يخشاه إذا تجمع.

فالتجمع تكفل بحماية الإنسان، ووسع دائرة تعاونه وتعاطفه.

كانت انفعالاته جسدية محضة، فأصبحت انفعالات جسدية نفسية استمد إدراكها من ضرورة العناية بابنه وبرفيقته. . . (بأم هذا الابن) ومن مظهر التعاون بينه وبين رفيقه، وشريكه في الصراع اليومي والاشتراك لون من ألوان القرابة المؤثرة، ما يزال هكذا.

ارتقت غرائز الإنسان وتقدمت، تطورت قليلاً، فولدت الشعور بالتعاطف كضرورة.

كان التعاطف الدعوة الأولى إلى نشوء عواطف محدودة في الإنسان ضاقت معها حدود أنانيته قليلاً. . وأخذت تضيق باتساع عوامل الضرورات الجديدة، المتحولة عن الضرورات الأولى. كان يحب نفسه وأسرته، فصار يحب الجماعة أيضاً.

كان يحب مأواه، فصار يحب مأوى هذه الجماعة. . (المأوى العام الموطن)، لأنه في اعتباره، موضع انتفاء الخوف، واتقاء عوادي الطبيعة، وموضع ألفة ألوان من الحياة، والجماعة والقرابة، وتبادل العلم بالأشياء وفهمها، والتحدث عنها، وموطن ذكريات النشأة الأولى، وخطرات النفس في أول شعرها بما حولها، وبما فوقها من مجهولات تخيف وتثير وموطن تكتل الجماعة وشعور الأُنس بها.

وحب الوطن فضيلة ـ لا شك ـ.

هو فضيلة المتوحش والهمجي والاجتماعي والمتمدن، وفضيلة قد تتسع وتمتد حتى تكون أساساً لحب الموطن العام للبشرية كما كان حب المأوى الخاص أساساً لحب الموطن الجماعي، فالموطن القومي.

فهل كان أساسها إلا الضرورة؟ وهل كان الوطن عند الإنسان القديم إلا هذه المعاني؟ وإلا قرابة مدلولاتها من حياته.

فالغرائز، وضرورات الحياة، والشعور بالضعف، هي المعين الذي استمدت منه تطورات الإنسان في تكتله، وتعاونه، وتعاطفه، ومزاياه الأولى خصائصها ومقوماتها، كما كانت القوة في الرجل القادر، رمز الشعور بالمحاسن أو مثار الإعجاب والمحاكاة.

وفي وسعنا الآن أن نستخلص مما تقدم أن الرجولة، كمظهر للقوة ومقدراتها كانت أصل الشعور بمحاسن القوة، والأصل الذي اشتقت منه القيادة المحدودة والزعامة المطلقة، بعد.



هذه صور متلاحقة سريعة، أعرضها في دقائق، فتدركونها، وترتبونها وتحسون الترابط الوثيق بينها. لكن كل صورة منها كانت في حياة الإنسان القديم أجزاء، ما يتألف منها جزء على جزء إلا ببطء كبير.

لم تكن الحياة سخية كما هي الآن، ولا كما كانت قبل ألفي سنة. ولم تكن الحوادث والتطورات تسير بالسهولة التي تسير بها الآن وقبل ألفي سنة. كان كل شيء في الحياة يبدو مخيفاً، مغلقاً، جامداً، مبهماً بطيئاً، لا يزحف، ولكن يختلج، ويتقدم بصعوبة.

وكان الإنسان يهيم في ظلمة مطبقة من نفسه، ومن الأخطار والألغاز المتوثبة حوله، وتحته، وفوقه.

الشمس، العاصفة، الليل، القمر، النجوم، المرض، الموت، الأحلام، الصاعقة، البرق، كلها غامض وكلها مرعب نحن نفهمها ونستمد من بعضها أسباب سرورنا بالحياة، وسرورنا بأنفسنا، ولكن الإنسان القديم كان يخافها ويجهلها.

كانت كلها ألغازاً مجهولة معقدة، ما يرتفع عنها الستار، ولكن

يزحزحه الإنسان، وذخيرته ما يلقى في روعه عنها. وهو يتوجس الموت في كل خطوة مرتجفة يخطوها، وفي كل خطرة من خطرات نفسه القلقة وبصيرته الكليلة.

الأشد ما عانى هذا الإنسان القديم، كم جاهد، واحتمل المشقات والأهوال وخاف، ولقي الموت عارياً، في مراحل نشأته الأولى وحياته، حتى مهد لنا سبيل الحياة الآمنة.. ولو أنه كان مضطراً أن يفعل.

ها نحن نجاهد بعد انبثاق فجر المدنية آلاف السنين للتقدم، وها نحن نلقى الطبيعة، وقد قلت في نفوسنا هيبة مخاطرها المرعبة، وانزاحت ظلماتها المتراكبة، وارتقت وسائل الدفاع ووضحت مسالك العقل، وندرت المخاوف.. وما زلنا نخشى الظلمة، وما زالت فرائضنا ترتعد من حركة مجهولة فيها، وما زلنا نخشى المغاور والثقوب والمفاجآت المنبعثة منها.

فالدنيا كلها كانت مغارة مظلمة، أمام الإنسان القديم تترصد له فيها كلمات خطا خطوة، مخاوف الموت حاسرة أو مستخفية، وطافرة أو زاحفة... رائحة الموت في كل شيء..!

وكان البطء الممتد المرعب، والتجارب القاسية القتالة، مفتاح هذه المستحيلات والمجهولات ومفتاحها الفرد.

والحساب هنا ليس حساب سنين، لكنه حساب أجيال، في وسعنا أن نفترضها، متى قارنا طفل القرن العشرين، بجده الإنسان القديم البعيد.

الطفل الذي تقوم على تربيته الأولى أمة بأسرها، بغرائبها، ومعلوماتها، وحضارتها، أمة يؤلفها المنزل، والزقاق، والحارة، والمدينة والمدرسة، وذخائر من الكتب والقواعد والدين واللغة الكاملة والحب

والعواطف، والعادات والتقاليد، والغرائز المهذبة، وقوانين الوراثة ووسائل الحضارة، والأمن والرخاء.

هذا الطفل الذي ما يبلغ مرحلة رشده الأولى حتى تتصبب الأمة عرقاً، وتتهافت إعياء، أين هو من الإنسان القديم الأعزل المندفع في بيئة مظلمة، تحتل الحيوانات الضارية نقطة الحياة منها؟ والذي مأواه كهف ضيق مظلم، أو رأس شجرة وفروعها، تتردد حولهما المخاطر عارية، ويتردد حولهما الجوع والرعب، والريح التي تشي برائحته؟

* * *

بهذا المقياس نقيس بطء التطور في هذه المراحل المتساوقة، وإن كانت طبيعة العرض للصور المتلاحقة أمامكم، تختزل هذه الأمداء المترامية في كلمات..

والآن إلى القوة.

فرصة الحياة شائعة يأخذ كل فرد في الجماعة بنصيبه منها.

هذا يطارد الغزال، وهذا يكمن له.

هذا يصيد أكثر لأنه أكثر قوة وحيلة.

وهذا لا يصيد لأنه أقل قوة وحيلة.

(لا يصيد كثيراً إلا الأقوى).

هذان طفلان يموتان في مطلع حياتهما، بسبب ظاهر أو خفي.

وهذا طفل يعيش.

هو قوي، وهما ضعيفان.

(القوي يعيش، والضعيف يموت).

هذا قوي يسقط من شجرة فيموت.

وهذا قوي تطبق عليه صخرة فيموت.

(لم يموتا لأنهما ضعيفان: دهشة، انقباض، إذعان، صدفة، حظ).

هذا قوي يصارع الرجال فيغلبهم (قوي).

هذا قوي يصارع الأسود ويصطادها (أقوى).

هذه مقارنة ثم: (خوف، حسد، تسليم، بطولة، زعامة).

هكذا آمن الإنسان بالقوة، وبمظاهر اقتدارها.

وكذا آمن بالحظ.. والزعامة.. والبطولة.

وهكذا قارن واستنتج.

ودع الإنسان عهده القديم، وقابل عهداً جديداً.

تراث هذا العهد المتحول:

غرائز تلطفت حدتها.

عواطف محدودة بين أفراد الأسرة.

تعاطف تعاوني بين أفراد الجماعة.

إيمان مطلق بقوة الجسد (الرجولة، البطولة، الزعامة).

محاسن، ومعائب، تتعلق بقدرة الجسد، وكفاءته الظاهرة.

خرافات فردية وجماعية عن الطور القديم.

* * *

يمتاز الطور الجديد بأنه أكثر ضماناً لطمأنينة الفرد والجماعة من سابقه، وبأنه أوفر غذاء.. لأنه عهد أكثر رخاء، ولأنه عهد ذو تراث.

هذه فرصة ينتهزها الإنسان للابتعاد عن حياة القلق والعراك، وللخروج من حدودها قليلاً.

هي فرصة الراحة بعد العناء، فرصة التعقل الهادئ، والالتفات والتأمل.

تدلنا أطوار الجماعات الهمجية الآن على أن سعة الشعور والإدراك، وامتداد التخيل، وتصور أمثلة أرقى للمدركات، والإحساس النفسي بالنزوع إليها، والصبوة إلى تحقيقها لا يمكن أن يتأتى شيء منه للإنسان في أطواره الأولى، إلا كلما قطع مرحلة في تقدمه الاجتماعي والفكري.

فالرجل البدائي، أو الهمجي مثلاً، لا يكون إلا مثال القصد والاكتفاء والوضوح، وانتفاء التعقد، في ظواهره وبواطنه.

ثم هو بقدر ابتعاده عن بيئته الطبيعية الأولى، وقوانينها، ودخوله في بيئات أكثر تعقداً، يأخذ في التحلل من تأثير إيمانه القديم بقوانين حياته الآبدة، ومطالبها المحدودة.

فنشوء المحاسن الاختيارية إذاً لا يمكن أن يكون إلا من صنع التقدم الفكري والاجتماعي، لازدحامه بالصور والأوضاع التي لا يمكن أن يعالج حل عقدها، بمنطق القوة وحده، والطور الجديد الذي نتكلم عنه الآن، وهو بيئة أكثر تعقداً وإن كانت أقل خطراً.

والتقدم الفكري والاجتماعي، تطور يتناول المدركات الحسية والمعنوية بالتحوير والتعديل والزيادة والنقص، يعطي قليلاً ويأخذ أقل.

وهو في أطواره الأولى يزيد خصائص الشعور بالقرابة الجماعية ويؤكدها. فلا غرابة إذاً، في أن يكون طور الانتقال البطيء من حياة التنازع الغشيم، سبباً في حمل الإنسان على الالتفات إلى الماضي، الذي ما زالت تربطه به روابط وثيقة.

هذا رجل شامخ القوة، حطمه الجهاد، أو حطمته السن بكلالها الطبيعي، لا بد أن تعتبره الجماعة القوية شيئاً من تراث أمسها الغابر، تقبل عليه بالرعاية والإيناس وتوليه إكبارها، وتعود إلى رأيه المستمد من ذخيرة تجاربه الواسعة، وتأملاته الهادئة فيكون بهذا قائد حركتها، أو معنى بارز الأثر في قيادة هذه الحركة.

وهذه امرأة فقدت ابنها القوي الذي كانت أياديه على الجماعة ما تنقطع فقعد بها الحزن عليه، وافتقاد الإعجاب به، والراحة إلى قربه، تكون مصيبتها رمزاً لمصائب الجماعة، وبعثاً لأحزان الأمهات والآباء فيها فنجد النفوس في مواساتها، وتخفيف لوعتها وإعانتها على قطع الرحلة الباقية لها ـ واجباً ـ يستنبط الشعور بضرورته، شعور الرقة والعطف، والارتياح إلى الإحسان.

وهكذا تنشأ العواطف أجزاء ثم تتواءم، ويزداد أثر الشعور بها، والحاجة إلى المبالغة فيها والاستزادة منها، وضوحاً في النفس بازدياد بواعثها وأسبابها، حتى تكون أخيراً النداء الملح إلى بروز الفضائل، وتكون اعتباراتها الأولى.

وكما كانت اللغة في أصل نشأتها أصواتاً ومقاطع، فقد كانت السلسلة الطويلة من ميراثنا الإنساني في الفضائل حلقات أبجدية، مشتقة من مؤثرات الحياة الأولى، وضروراتها الظاهرة والباطنة.

وقد قلنا إن القوة في الطور القديم كانت أصل نشأة الشعور بمحاسن الرجولة، والميل إلى تقليدها، واتباعها. أو كانت تمهيداً طبيعياً لنشأة المحاسن الاصطلاحية، وتمهيداً للإيمان بها، وتحتيمه في ما بعد.

ومن ينكر هذا على الطور الذي كانت فيه القوة الجسدية، مصدر الاعتبارات كلها؟

ألسنا في القرن العشرين وفي دولة الفكر، نرى أن القوة مصدر السلطان؟ وأن سلطانها عطل قوة الروح، وإعتاق نفوذها، وقام يرسم للأخلاق حدودها الجديدة، كما يفعل القائد لجنوده؟

ألسنا نرى عصف القوة بالمبادئ الخلقية والإنسانية، وعصفها بالضعف والقلة وخنقها لشعور الإنسان بحرية اختياره حتى في نفسه؟

إذاً فالطور الغشيم، ونقصد به الطور البدائي انتهى بالجماعة إلى اعتبارات روحية، زاحمت فيها قوة الجسد، قوة أخرى معنوية، تحولت عن قوة الجسد.

قوة أخرى معنوية، كان يمثلها رجال أقوياء (أجساد قوية) مات بعضها في إبان نشاطه مخلفاً ذكريات حياته النابضة في الأسرة والجماعة، وبقي بعضها ماثلاً، وقد أعياه الكفاح القديم وأضناه هذا من تراث الماضي.

ماضي الغلاب والعوادي والظلمة.

هو قوة ولكنها ذابلة حائلة، فهي بالضعف أشبه. بل هي ضعف ولكنه ضعف محترم محبوب.

هي شيخوخة الأم وشيخوخة الأب. بل هي الشيخوخة في غير الأم والأب. وهي الزمانة والكلال في الأخ والرفيق، وفي غير الأخ والرفيق.

وهي طفولة طفل خلفه فرد من الأسرة، أو فرد قريب من الجماعة أو خلفه.. رجل.

فهذا ضعف قوي يفرض نفسه على القوة فرضاً ويحتم عليها السنن والواجبات له، ويلقي عليها الأعباء تؤودها، ولكن تسرها.

وهو ضعف ينازل القوة وجهاً لوجه، ولكن في غير ميدان الجسد الذي خلفته وراءها يشرق بدم الضحايا من الحيوان والإنسان، ضعف نبيل

كانت الدعوة الأولى إليه صرخة الطفل وبسمته وعواطف النبوة والأبوة والأمومة والقرابة والاشتراك.

وهو في يوم الجماعة الجديد، مولود الجماعة كلها في أول استهلاله وهو المادة الأولى في شريعتها الأدبية.

ويشير انبثاق فجر جديد، شعرت بعده الجماعة بانطلاق حدودها، فبدأ القانون الأدبي يتألف، تؤلفه العواطف، ويؤلفه الشعور أو تؤلفه ضرورات أدبية.

فهذا طور من الحياة جديد، يهزم أو يخلف طوراً من الحياة قديماً وقد تمت له الغلبة أو كادت.

لكن الغلبة هنا ليس معناها استغراق الغالب للمغلوب وليس معناها أن الناس كلهم، فقدوا غرائزهم بل هذبوها، وحولوها، واتجهوا بها اتجاهاً يوائم مقتضيات الطور الجديد ومطالبه.

والناس منذ كانوا لا يتشابهون ضعفاً وقوة وهم في أطوار الانتقالات لا يتساوون إدراكاً وكفاءة للاضطلاع بأعبائها وألفة فروضها الجديدة، ولا يتساوون كفراً وإيماناً بواجباتها ومزاياها.

وإنك لترى خمسين طيراً من جنس، لا يختلف فيها طير عن طير في طريقة إحساسه بما حوله واستجابته لمطالب غريزته وفي ألفته ونفوره.

ولكنك تكون أمام أفراد من أسرة معينة، في بيئة خاصة، في جماعة تؤلف بينها وشائج القرابات الممتدة، فتكون أمام طائفة من الاختلافات لا يوائم فيها طور طوراً، ولا تطابق فيها صفة صفة، ولا يماثل فيها مزاج مزاجاً.

وهكذا تكون كلما صعدت، رأيت التمايز والاختلاف بين الناس متسعاً. والجماعات الهمجية أقرب إلى التشابه ولكنه تناقض واضح، وإن كانا في الظاهر، قريباً من قريب في اعتبار موازين التقدم التمدني أو النظرة العابرة.

فلا يدع أن يخرج على هذا القانون الأدبي الجديد أفراد يقل أثر الشعور بالشريعة الأدبية في نفوسهم، إما لأنها تمثل السلطة للأفراد السائدين، فهذه شارة التمرد عليهم، وإما لأن فوارق الإدراك من شأنها أن تفعل هذا. فلا جرم أن يكونوا عاجزين عن مسايرة التطور الجديد، لأن أثر الأنانية الغريزية فيهم أوضح، وأثر (الغيرية) أضعف، واختلاف العوامل النفسية ما يزال هكذا، حتى عندما يكون اتجاه الجماعة متحداً.

من هنا تنشأ الرذيلة، أو تنشأ الفكرة الأولى عنها، وتكون في شكلها البدائي (عيباً، أو نقصاً) سببه الإضراب عن مسايرة الجماعة.



كانت القوة في الرجل مصدر الإعجاب والتقديس. والقوة ما تعرف الهوادة في تأمين سبيل حياتها ومطالبها.

وكان الناس يتفاوتون في نصيبهم من هذه القوة، فامتاز في الجماعة أفراد، تفاوتوا أيضاً في درجات تمايزهم.

(هذا أكثر استفزازاً لشعور الجماعة، وهذا أقل).

وكان الطور طور ألفة واتحاد، وتعاون، وهذه ضرورات فلا رذيلة ولا فضيلة وإنما مقابح ومحاسن تتعلق بالجسد وكفاءته الظاهرة قوة وضعفاً.

هذا يشير إلى أن الفطرة البشرية ليست فطرة شر، ولا هي فطرة خير في مبدأ ظهورها على مسرح الكفاح للحياة. فإذا كانت سبلها إلى البقاء

تقتضي الخير فعلته مطمئنة، وإذا كانت تقتضي الشر فعلته غير مكترثة.

فالخير والشر قبل أن يصبحا من مفاهيم الإدراك الأدبي، في أطوار الانتقالات الاجتماعية البطيئة، لم يكونا خيراً وشراً، في ما يتصل بأعمال الإنسان، بل كانت هناك الحياة وكان الجسد وكانت الضرورة.

هذا إنسان يريد أن يعيش، يكمن لحيوان ويصرعه. أفي هذا شر؟ ماذا كان في وسعه أن يفعل الحيوان نفسه، لو ظفر به لجعل منه مادة غذائية. هذه حرب للحياة، وليست حرباً لشر مقصود، أو مفهوم.

الطبيعة ذاتها..! ألا تحمل بدورها على العاري والضعيف والضال؟ ألا تشح بالمطر؟ ألا ترسل الصاعقة؟ ألا تبعث الزلازل؟ والتغيرات المفاجئة والكوارث؟ ألا تدحرج صخرة فتقتل بها رجلاً قوياً غافلاً؟! من يقول إن هذا شر؟ إنما هو نظامها، وطريق مسراها إلى غايتها المرسومة لها من خالقها القوي الحكيم، فهو طريق الإنسان والحيوان إلى غايتهما أيضاً.

في هذا الطور كان التعاون ضرورة، وللتعاون الجماعي فرائض وسعت حدود النفس كثيراً أو قليلاً. وكان ضرورياً أن يتقبل فيه الإنسان فرائض الجماعة، عندما كانت حاجته إلى الحماية والتعاون ضرورة وخوفه من الطبيعة قاسياً.

فإذا تغير هذا الوضع قليلاً، وقلت المخاوف من الانفراد، وتقدمت وسائل العيش، وتعددت ـ مال إلى إظهار الشعور بحريته، والتمتع بمزايا مقدرته وقصرها على نفسه وأسرته، وتولد عنده الميل إلى المخالفة والاعتزال.

فلو اعتبر هذا في عرف الجماعة الغالبة خروجاً معنوياً على أساليبها المتبعة لم يكن الخروج الذي يقتضي الحرب، وشن الغارة، لأن الشرائع

الأدبية في بدء نشوئها والشعور بمزاياها، تكون مطلباً كمالياً، أو فرض كفاية يتلمس الطريق إلى النفوس في هدوء فمشاعر الجماعة هي التي كونته فحاجته إلى القوة تفرضه وتحتمه.

لذلك كان سلاح القوانين الاجتماعية، والشرائع الأدبية، القوة لا الإقناع في الأطوار التي قام بها ما يشبه الحكم، أو القيادة (أي في الأطوار الأكثر تقدماً).

عندما يكون الناس مختارين لا يفعلون شيئاً إلا من تجعلهم مواهبهم ومشاعرهم الخاصة في طور أرقى من طور الجماعة.. هذا في القرن العشرين أوضح مما كان في حياة الإنسان الأولى أو في حياة الهمج.

اختلاف الطبقات نظام سيىء، يجعل الأنانية، أنانية جماعية، لا أنانية فرد. الفقير يشعر شعوراً متطرفاً بشكوى فقد مثله أو دونه، الغني لا يشعر كشعوره، إلا نحو غني من درجته، أو أقل قليلاً.

الفقير يعرف حرارة الجوع.

الغني يعرف حرارة الاضطرار لبيع المنزل، المسكين عنده من اضطر لبيعه فهو في دنيا غير دنيا الفقير.

ما تزال عواطف الرحمة، والشفقة، والنخوة، ومشاركات الشعور، في الجماعات الدنيا، أكثر منها في الجماعة العليا.. (لعل هذا قانون الشعور بالضعف، أو قانون التشابه في مؤثرات مشتركة) أو لعله (قانون السذاجة).

النعمة لا تبطر... ولكنها قوة تجعل الإنسان انفرادياً، فهي تسد مسام الشعور والإحساس، وتقفل نوافذ النفس.

بل إنها تبطر، ألم يقل الكتاب العزيز: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق: ٦ ـ ٧).

ليس الأغنياء كلهم ولا الفقراء كلهم هكذا.

هناك غني يشعر، ويستجيب دواعي نفسه، ولكن في الألف.

وهناك فقير لا يشعر، ولا يستجيب، ولكن في الألف.

* * *

لم يكن في حياة الإنسان القديم فقر، ولا غناء، ولم تكن هناك طبقات وفوارق، كانت الثروة جسداً قوياً، والسلاح قوة. (هذا أقل قوة، هذا قوي، هذا أقوى) وكانت المشاعر واحدة، والغاية واحدة والسبيل واحدة.

لذلك يكون الشذوذ على المطلب الجماعي الأدبي، ضعيفاً، ومتقطعاً وخافتاً.

فإذا كان العهد الجديد أكثر رخاء، وأكثر أمناً، وهو هكذا قطعاً، كان الاستغناء المفروض عن هذه القلة الشاذة، وعما تؤديه ممكناً جداً.

فمتى ساهم الفرد في رد الغارة عن جماعته، وفي أداء نصيبه من الجهد إزاء الأخطار التي تهدد طمأنينتها، ومتى عال نفسه وأسرته وشارك الجماعة في حمالاتها، وتبعاتها المادية، كان قيامه بالفرائض في شريعتها الجديدة شيئاً اختيارياً، له قيمته، وله جزاؤه في العرف والاعتبار الأدبي فإذا شح بما يقتضيه العرف على الضعفاء والشيوخ، كان جافياً على نفسه، وعلى درجة اعتباره المعنوي بين الجماعة.

هكذا تشعر القوة الممثلة للشريعة الجديدة، والقوة الخارجة عليها في الابتداء...

ولكن الحوادث تلعب دورها بينهما، بعد...

تبدأ الخصومة بين الضعف الذي كان مصدر قوة التشريع، وسبب وضعه والذي نازل القوة فهزمها، وحبب إليها الهزيمة، فأصبح مصدر

السلطة الروحية في قانونها الجديد وبين القوة التي رجحت اعتزال الجماعة، والخروج على قانونها.

يبدأ التنكر والعراك بينهما، هادئين ثم مخيفين.

وسواء أشرع الضعف (المتسلط) قانونية هذا العراك الشعري أو شرعه الأقوياء الفضلاء باسمه فإنه المصدر. هكذا انشطر تقديس القوة ـ التي مظهرها كفاية الجسد ـ إلى شطرين. كما انشطرت القوة إلى شطرين، تحول أحدهما إلى قوة ذات سجايا نافعة لجماعة الضعفاء فاتسع أمامه مجال التطور، والظهور والتأثير، لأنه قوة نبيلة معقولة، والآخر قوة لا تخرج من حدود ذاتها الضيقة.

الأول قوة متعدية أو منصرفة.

والثاني قوة لازمة، أو جامدة.

ما زالت الفضائل المتعدية في القرن العشرين، وفي جاهلية الجماعات أكثر أعواناً، وأكبر نصيباً من تقدير الناس وإقبالهم.

والعراك دائماً يخلق ميادين النشاط والتزيد ويوسعها، وهذا عراك السجايا بين قوتين.. عراك جديد، لأنه نمط جديد.

فالفضائل الناشئة في هذا التطور تكون مظهراً للاختيار والقصد أولاً، أو مظهراً لضرورات أدبية، ثم تستحيل ممارستها، والحرص على الإنصاف بها إلى نوع من اللذة الخفية، وتداعي الشعور بحلاوة ما تلقاه من إعجاب وتشجيع ومناصرة.

والعزلة تتخذ مظهر الحرد والعناد والإصرار لما تلقاه من مقاومة وزراية واستغناء عنها فتمعن في ما يزيد حنق الجماعة ويسيء إليها.. هذا مفترق الطريق للقوتين.

وليس في تغلب قوة على قوة تماثلها في ميادين التطاحن، شر ولا نذالة كلتاهما تعمل للبقاء والسيادة، وكلتاهما تدافع عن حق تراه حقاً، فالنزاع بينهما مشروع، كما كان النزاع بين الإنسان والحيوان مشروعاً.

لكن قوة الخارجين على الشريعة الأدبية للجماعة هنا، لا تنازل قوة تماثلها، بل تنازل ضعفاً.. تحميه قوة.. فالانتصار عليه نذالة ولؤم.

هكذا يتولد الشعور بالرذيلة، وفهمها واضحين.

بدأت الفضيلة قوية مؤزرة، وبدأت الرذيلة ضعيفة متكورة.

ما تزال صرخة الفضيلة أقوى، في نفوس الجماعة.

ألمانيا تقول الحق، العدالة، المنطق.

انجلترا تقول الديمقراطية، نصرة الضعيف، حماية المبادئ الفاضلة.

لا يوجد من يقول الاغتصاب، العدوان، سحق الضعيف، الطمع لأن الرذيلة لا تنتصر إلا متى كان صوتها قوياً، وصوتها لا يكون قوياً إلا إذا نفخت في بوق الفضيلة.

هذا في حياة الأمم مثله في حياة الأفراد، وهو في القرن العشرين مثله في القرن العاشر، ولكنه لم يكن هكذا في حياة الإنسان القديم.

كانت الفضيلة حينئذٍ حقاً، أو شبيهة بالحق، وكانت صفات لازمة أو محبوبة ترتاح إلى ممارستها النفوس ولا تستغلها.

القوي الذي يعطف على الشيوخ، والنساء، والأطفال: أقوى، أحسن، أفضل (حب).

القوي الذي لا يعطف على هؤلاء رديء، قاسٍ (بغض).

القوي الذي لا يحب الجماعة، ويعتزلها، يحب نفسه، أناني (ازدراء).

اتسع دستور القوة قليلاً واتسع إدراك الجماعة قليلاً.

كان الإنسان يرى ويدرك بغرائزه، وضرورات حياته، فأصبح يدرك، بقلبه، بوجدانه بشيء من الشريعة الأدبية.

كان يرى قوة، وقوة، فيقيس بينهما ويفاضل (قوي، أقوى).

صار يرى قوة، وقوة وسجية، فيقيس بينهما، ويعلل، ويستنتج (حسن أحسن).

كان يكره الأقوى ويخافه، ويحسده، ويطيعه.

الآن يعظمه، ويحبه، ويتّبعه.

صار مختاراً بعد أن كان مضطراً.

هذه خطوات الجماعة.

خطوات الفرد الخاصة غير هذه، تختلف كثيراً عندما ينفرد.

يرى الأنانية حقاً إذا كان قوياً..

ويراها باطلاً إذا كان ضعيفاً.

ما تزال الجماعة أقل دقة، وأسرع إيماناً.. وأعمق استجابة، من الفرد.



تضيق حرية الفرد كلما تقدمت أطوار الجماعة اجتماعياً، وكلما تكاثرت الروابط الاجتماعية واتسعت الحدود لحرية الجماعة فيها.

لا يعود من مصلحة الجماعة، إطلاق الحرية للفرد، أو للأقليات، فتنشأ شرائع وضعية، يضعها الأقوياء، المسيطرون على الجماعة، تكون خلاصة لشرائعه الأدبية، التي تصبح بالتدريج معتقداً عاماً.

فالشريعة التي تكون فرائضها الأدبية، فرائض كفاية، أو فرائض اختيارية، تنقلب قانوناً لا معدى عن طاعته.

والمحاسن التي كان مصدرها الجسد والقوة، وجاء طور أصبحت فيه أساساً لشريعة أدبية يجيء عليها طور آخر، هو طور التلقي والمزاولة، لا بد أن تكتسب فيه صفة التقاليد الواجبة، ولا بد فيه من ممارستها، ومحاولة تحويلها إلى خصائص نفسية، وفكرية ثابتة (أخلاق ومعتقدات).

ولسنا نعني طبعاً في كل ما تقدم أن الإنسان في هذه الأطوار كان يضع الأسماء لمسمياتها على وفاق ما تشعر به إزاء إدراك معانيها، وشيوع الإحساس التام بها في نفوسنا، إنما نعني أن إعجابه بالقوة وبمحاسنها، وشعوره الأدبي بمعنويات الحياة والنفس، كان يقوم مقام هذه التسميات، ويرمز إلى مسمياتها أو إلى ما يشبهها.

ومن المؤكد أن تطور اللغة في الحياة الأولى لهذا الإنسان، كان أبطأ كثيراً من تطوراته الاجتماعية والفكرية، فالشعور والإدراك يسبقان عادة التسميات وألفاظها، تشعر أولاً أو ترى، أو تعرف، أو تسمى!

ومن المحزن حقاً انقراض الأصول الأولى للغات، فقد كان وجودها حرياً بأن يوسع آفاق حياتنا الفكرية، وبأن يحدثنا ألذ الحديث وأشهاه عن تواريخ تلك التطورات القديمة التي رافقت كفاح الإنسان في أطوار انتقالاته الاجتماعية والنفسية، والفكرية.

كيف حارب الإنسان؟ كيف كانت همومه؟ كيف فهم السجايا التي صارت أساس شرائعه الأدبية؟ وكيف سماها؟ كيف نشأت الآداب؟ كيف نشأ الشعر؟ كيف كانت أساليبه وموضوعاته؟ كيف غنى الإنسان؟ كيف تحمس وفاخر؟ كيف تعبد؟ كيف أحب؟

هذه الحلقات المفقودة، جزء من تقدم شرائعه الأدبية، بل هي أهم أجزاء هذا التقدم ودلائله وهي سبيل الفهم اليقيني أو ما يقاربه.

* * *

قبل أن ننتقل إلى تحليل الفضائل نتحدث إليكم قليلاً عن طور التلقي والمزاولة، وهو الطور الذي يتحول فيه الشعور بالسجايا والأفكار والشرائع إلى معتقدات لا شعورية أو إلى خصائص نفسية وفكرية ثابتة.

الإنسان الصغير الجديد في الطور الثاني أو الثالث، يتعلم بسهولة، ما كان يتعلمه جده القديم بصعوبة، ويعرف ما عرف أبوه وأمه وأجداده، فهو يعرف أكثر.

كان الجد القديم يتلقى عن الضرورات، وعن الطبيعة، وعن التجارب، فأصبح الثاني يتلقى عن هذه، ويتلقى عن الجماعة، ذخائر تجاربها، ومحاسن حياتها، وغرائب اكتشافاتها ومعتقداتها، وفرائضها وأوهامها.

الحياة رخاء، وأمن، فهي متسعة، متعددة السبل.

كان الطفل القديم في الأطوار الأولى يخاف ويساهم بنصيبه في احتمال قسوة العيش وأعبائه، وهو اليوم يمرح ويلعب، ولا يحمل عبئاً، إلا ما كان من قبيل التمرين والمحاكاة حتى يشتد.

عرف الفكاهة والعبث، كما يفعل الكبار حين يلعبون حول النار.

الكبار ذوو سجايا، وخبرة، ورحابة فهم، فهو يقلدهم.

يراهم يمثلون الحوادث التي تقع بعيداً، حيث الصيد والمغامرات، ويقلدون الحيوانات، حركاتها وأصواتها، فيحاكيهم.

التمثيل قديم في حياة الإنسان، الأرجح أنه عرفه بعد أن عرف النار،

وتجمع حولها للدفء واللعب والحديث.

والرقص فرع من فروع التمثيل، هذا معقول.

رجل لذعته النار، فقفز، وتوثب على رجل واحدة، وأمسك موضع اللذعة بيده.

هذه مفاجأة، يضحك لها الناس، لأن فيها شيئاً غير الجد المحض.

إذا قلده أحدهم ضحكوا أكثر.

هذا تمثيل، ثم رقص.

هكذا اتسعت الحياة رويداً.

الناس يمثلون، ويقلدون بعضهم في الجد وفي الهزل، تحبهم الجماعة.

الإنسان الصغير، يفعل فعلهم بسهولة، لأنه أذكى، طفولته أوسع مدى من طفولة جده، كذلك الطفل في المدينة الحافلة، أذكى من نِدِّهِ في القرية وفي الريف، وأوسع أفقاً لكثرة ما يتوارد عليه من الصور.

يزاول الطفل الشجاعة، العطف، احترام الشيوخ.. الإحسان إلى الضعفاء، أعمال البطولة، بوحي من نفسه، وبإيحاء من أبويه، وأسرته، ومن الجماعة.

يزاولها على أنها فضائل يتحتم الإيمان بها، وعلى أنها محاسن وسجايا يتصف بها الأقوياء الممتازون.

فالفضائل أو بعضها في هذا الطور مزاولة وتقليد، يستحيلان إلى أخلاق ثابتة، ومشاعر، بعد قليل أو كثير.

والمزاولة أقدر على ترسيخ الفضائل، وتحويلها إلى مشاعر ثابتة،

وأخلاق مغلغلة في النفس من أحكام الضرورات الطارئة والمتكررة.

***

أعتقد أني أسرفت كثيراً في سوق الأمثلة وحشدها، وأظن أنه لم يعد صعباً أن تساير جميعاً هذه الطريقة إلى حدود أبعد.

هذه الحلقات الأولى من السلسلة، أو الدرجات الأولى من السلم، فلم يبق ما يمنعنا من التصور.. والتخيل.. والمسايرة.

في وسعنا الآن أن نتصور ما يفعله التقليد، وما تفعله المحاكاة، وما تفعله ضرورات الطور الجديد، ومطالبه، في استكمال معاني الفضائل وإقامة حدودها، وفي ترسيخها، وتوليد المحاسن منها.

***

قلنا إن الغرائز هي مادة التكوين الباطن في الإنسان والحيوان.

وقلنا إن الضرورات المتصلة بالعيش، وبنداء الحياة الملح، دفعت الإنسان إلى أن يخرج من أفقه الضيق، إلى آفاق أكثر رحابة، خفتت معها أصوات غرائزه، وخفيت، أو تلطفت، على قدر عرافته في الاكتساب الاجتماعي من مراحل التطور التي يقطعها.

وقلنا أخيراً إن المزاولة والتقليد أقدر على ترسيخ السجايا، وتحويلها إلى مشاعر وأخلاق ثابتة، من أحكام الضرورات.

ونود هنا أن نجري التجربة على الحيوان، لتختبر صحة افتراضاتنا التي بنيت عليها هذه النتائج، ونصيبها من القوة.

فالحيوانات مزودة بإلهام غرائزها إلى حد الجمود، ولكنها قد تكتسب بالتجارب المكررة، ما يضعف عمل هذه الغرائز، ويحولها، فيهذبها، أو يزيدها قوة وضراوة.

ومفهوم أن مجال التطور الطبيعي أمام الإنسان، غيره أمام الحيوان، فنشأة العواطف في الإنسان، أو ذوبان غرائزه الأصيلة، وأنانيته الآبدة، لم يكن نتيجة عوامل شعورية، ووليد عوامل ضرورات حيوية، ثم معنوية، ثم أدبية، لا تخرج في شتى صورها وامتزاجاتها عن أنها ضرورات، متحولة عن ضرورات.

والحيوانات التي اتصلت أسباب حياتها بحياة الإنسان الاجتماعي، فقدت بعض غرائزها، أو خفتت أصوات هذه الغرائز فيها بعامل التدريب والتجربة.

فالكلب والقط يحبان الوطن كالإنسان، ويشعران بقانون أدبي محدود، لأنهما أكثر علاقة بالإنسان في محيط حياته الخاصة.

القط يألم للزجر، ويحزن لفقد سيده، ويعلن الحنين إليه، ويتأدب بدافع شعوره بالعطف عليه، ويفسد بانقطاع هذا العطف عنه، ويغار من قط يزاحمه على مكانته عند صاحبه.

والكلب يتعلم الأمانة والصبر والحب واليقظة والشعور بقوانين العشرة الأدبية، ويتأثر بالإحسان، والواجب، ويقلد الإنسان في شعوره بالحماية والفخار والزهو لأن صلته بالإنسان كانت ولا تزال أوسع نطاقاً، وأقدم عهداً.

وقد ينحط الكلب أو يتشرد، فيستحيل تأثير سجاياه القديمة، على ما يشبه الأسى العميق والجفوة الكئيبة.

والحمار ـ وعلاقتي الأدبية به قديمة جداً ـ وعفواً ـ، تضيق دائرة اتصاله بالإنسان، ولا تتخطى حدودها الضيقة، لذلك كان تطوره التخلقي، أقل مرتبة من تطور الكلب.

فهل كان هذا هكذا، لأن الحمار أضيق مدى في إدراكه الحيواني، وأصلب غرائز من الكلب؟ أو لأن هناك استعداداً غريزياً هيَّأ الكلب لأن يكون حارساً ورفيقاً، وللحمار أن يبقى كادحاً؟؟

كلا!!

ولكن خفة جسم الكلب، وقوة صوته المتزنة، ودقة شمه، ومقدرته على تصوير مؤثراته، وتشكيلها بهذا الصوت، وقلة مُؤنته، وسرعة عَدوه، ساعدته على الدُّنو من الإنسان كرفيق وحارس، وطبعته التجارب المكرورة، وشعوره بضرورة إدراكها، بطابعها الخاص.

فيتضح مما تقدم، أن التقدم بغرائز الحيوان وتحويلها إلى طور الإدراك، والتعقل، ممكن، متى تعلقت وسائل هذه المحاولة بضرورات عيشه أيضاً، ولكن هذا التقدم لا يتم إلا بعمل التجارب، وبأن تجيء على يد الإنسان.

فالكلب في الحضارة الراهنة، ينقذ الغرقى، ويتعقب المجرمين ويُدعَى للشهادة في المحاكم، ويعاون الجنود، ويترصّد الأشقياء، ويخدم العدالة.. والمجال أمامه ما يزال واسعاً جداً للتطور.

وبعض الخيول ترقص على نغمات الموسيقى، رقصاً مدرسياً موزوناً، عفواً إخواني المدرسين وبعض القدرة العليا في أمريكا وأوروبا تعزف على آلات موسيقية عزفاً دقيقاً.

ولبرنارد شو ـ الفيلسوف الانكليزي ـ حمارة ما أشك في أن لها نصيباً وافراً من الإدراك تخطت به حدود بنات جنسها وأبنائه كثيراً إن اطرد القياس، وما له لا يطرد.

وكثير من الحيوانات تطرب طرباً هادئاً أو عميقاً، للحداء، والغناء، والموسيقى فهذا يشير إلى علاقتها القديمة بالفن؟ وإلى أن لها حساً غير حسها الحيواني.

حساً وجدانياً مثلاً..

فهذه نتائج التدريب والتهذيب والمزاولة، ووحي ضرورات العيش، وتأثير المشاركة الطويلة في الحيوان.

يقابلها في الإنسان ضعف غرائزه الأولى، وما اقتضاه هذا الضعف من التكتل الجماعي، وما أدى إليه هذا التكتل من نشاط القوة التعقلية فيه، وما مهد له هذا التعقل من ضيق حدود أنانيته، وتحولها إلى غيرية أولية، حتى عرف القانون الأدبي بعامل شعوره العاطفي، وحتى أخذ توسيع مدى هذا القانون، متابعة لمقتضيات تطوره المستمر.

* * *

انتهى بنا الكلام إلى العهد الذي قامت به بعض الفضائل، التي صارت الجماعة إلى الشعور بها، والاستجابة لأحكامها، وكيف تتولى المزاولة والمحاكاة تحويلها، إلى أخلاق ومشاعر، أو ملكات نفسية، وفكرية.

أما كيف تتناسل الفضائل بعد ذلك وتتزايد، فجوابه عند حياة الإنسان الاجتماعية، واطراد جزرها ومدها، وعند تقدمه الفكري، واتساع أفقه.

ونظن أن القوة التي يمثلها الأبطال والزعماء، هي التي كانت ترتجل بعض الصفات التي تغري الجماعات بالحب والتقديس، وتحبب إليها الطاعة والانقياد والالتفاف، حول مرتجليها، فتحب وتدعي محاسن أو فضائل، وتدعي أضدادها ونقائضها، معائب أو رذائل.

فالقوة أقدر على الارتجال والوضع، لأنها أوسع مجالاً، وأوضح

غنى، وأقدر على الاضطلاع بمسؤوليات ما ترتجل، وأعمق ميلاً إلى توسيع دائرة النفوذ، وإطلاقها.

ولا شك أن الطور الذي حارب فيه الإنسان، أخاه الإنسان (طور احتكاك الجماعات) هو الطور الذي كان يلد كثيراً من المعائب والمحاسن، والذي اتسع فيه منطق المقارنة والوزن والمقابلة، والمبالغة والتهويل.

فالجماعة القاهرة، تلجأ بعد إصابة غرضها الذي ساقها إلى الحرب إلى أساليب من المعاملة، تكفل الدوام والرسوخ لانتصارها، كإطلاق الأسرى، والعفو عن الجناة والمبالغة في إكرام النساء والشيوخ، والاضطلاع بحماية الضعفاء لاجتذابهم، واتخاذهم مثالاً مغرياً للمناهضين الأقوياء، وبسط اليد بالعطاء، وفرض قانون العفة.

وما يزال هذا مشاهداً في كثير من أحوال الفتح والاستعمار.

والجماعة المقهورة تعاب بالضعف، وتلفق ضد أفرادها المتسلطين حكايات يصنعها الوهم، أو يبالغ فيها.

في جاهلية العرب كانت الجماعات المنتشرة، تتنافس للاستهتار بالقوة، فما يتهيأ له هذا بالغزو، وقوة الشكيمة فيه، كما يتهيأ بانتشار القالة الحسنة عنها، وبذيوع المحمدة، فكانت شارة القوة والمتعة للجماعة، أن يكون أفرادها البارزون، وزعماؤها المسيطرون، كرماء وهابين، وذوي غيرة على الجار، وعطف على الغريب، وإكرام للطارق والقاصد، وحماية للاجئ المستجير.

وكان هذا التنافس نفسه، أسلوباً من أساليب الغارة والحرب، ودلالة على اتساع نفوذ المقدرة على الكسب والإنتاج.

وكانت لكل جماعة صحيفة أو أكثر، تنافح عن سمعتها، وتبالغ في نسبة الكمال والفضائل إليها، والشاعر هذه الصحيفة.

وكان هذا كله مظهراً لمذهب الفروسية الذي ساد في ذلك الطور الهمجي.

* * *

أردت بهذا التمهيد، الذي تناول أطرافاً من الفروض والأقوال، وأساليب من التمثيل، والاستدلالات، والأقيسة، أن تقوم الفكرة التجريدية عن نشأة الفضائل واضحة كل الوضوح في أذهاننا، ويسرني أن أشعر بأني وفقت في هذا ولو قليلاً.

وأعترف لكم بأنه لا يؤذيني، أن يعد كثيراً من هذه الفروض والأمثلة المزجاة خيطاً، وخلطاً، فإن الذي يحاول الإقناع عادة، لا يستقيم له ما يريد بالحجة والمنطق وحدهما. ففي الإنسان شيء غير العقل المكين، والعلم الراسخ، والعقائد الثابتة. فيه الوجدان، وفيه مشابه الإنسان القديم، واستجاباته الخاطفة، وفيه الضمير الفطري الذي يؤمن بأحكام العقل ومنطقه قليلاً، ويكفر بهما كثيراً.

فيه هذا الحس الداخلي الذي يكونه تاريخ طفولته القائم في دمه، وتاريخ وراثاته الذي يعد عاملاً له قوته. هذا الحس الذي يتسع فيه أفق الشعورات المبهمة حتى ما تحده الحدود، ويضيق حتى ما يرى سبيلاً غير سبيله.

وعساني ـ إن فشلت في اكتساب العقول ـ لا أفشل في اكتساب عطف الضمائر والنفوس، وإقناعها، وأي شيء من الفضائل والرذائل. يمكن أن تكون صلته بالعقل، أوثق من صلاته بالعواطف والنفوس والخيالات والضمائر؟ بل أي شيء منها يمكن أن يكون أقدم علاقة بالعقل، أو أدنى قرابة إليه، من الفطرة الأصيلة..؟

* * *

ينبغي الآن أن نستنتج، أن الفضائل أنانية مهذبة، وأن الرذائل أنانية عارية.

وأن الفضائل أدل على القوة وانطلاقها، والرذائل أدل على فتورها وضيقها، وقد كان الجسد في ما مثلنا، مصدر القوة، أو مظهرها، ومعيار الحكم عليها، في بداءة الحياة.

أما في الأطوار الأكثر حضارة فيكون مظهر القوة مدى الاستطاعة والمقدرة على ضمان الرغائب.

فالثروة أقدر على تحقيق المطالب والرغبات، وبسط النفوذ، من قوة الجسد، وقوة الفكر، ومعيار الفضائل والأخلاق في هذا العصر وفي عصور قبله، القوة بمعناها الجديد (الثروة ـ النفوذ).

فإيمان الناس بالقوة (في معناها الجديد) إيمان معرفة وتقدير. أما إيمانهم بالفضائل مجردة، فإيمان خيالي أو شعري.

وليس أدل على ذلك، من أن أية فضيلة لا تكون مظهر قوة، لا يكون الإيمان بها إلا شبيهاً بالكفر والإنكار.

وأعتقد أنه لا يسع أحداً أن ينكر أن كل فضيلة لا يكون المتصف بها قوياً، لا تكتسب في نظر الناس معنى الفضيلة ونفوذها.

فأنا إذا عطفت على مريض ملقى في الطريق، وواسيته، لا أنال التقدير يناله رجل بارز في المجتمع يفعل فعلي.

بل إنا نرى أن بعض المعائب والرذائل يوسع لها العرف العام صدره، متى كان المتصف بها قوياً ذا نفوذ.

ولو شئنا أن نذهب هذا المذهب في الاستقراء والمقارنة والتجريد، لألفينا أن الصراحة في رجل ممتاز، تعد نبلاً وعظمة وقوة طبع. وأنها في

رجل ضعيف الأثر في تقدير الناس تعد تفاهة وغثاثة وثرثرة، وضعفاً عن ضبط النفس.

والأثرة في عظيم قوي، دلالة على امتياز شعوره بنفسه، واعتداده بها فهي حق معترف به، ولكنها في إنسان وسط، باطل، وخروج على سنن الحياة المعروفة، ومألوفاتها المتبعة.

ورقة الجانب والبشاشة، والدعة، وصدق الشعور، والأريحية، ونبل الاتجاه والإيثار في رجل فقير، لا تساوي كلها في ميزان الفهم والإعجاب، ابتسامة فاترة، أو إيماءة مكرهة، من رجل ذي نفوذ، ولتكن بعد ذلك بارقة كاذبة، لا أمل فيها.

والناس ما يزالون يترنمون بالصدق، ويحضون عليه، ولكنا لا نجد له أثراً بينهم.

وقد أصبح الكذب، وما ولد من رذائل المكر والخداع والمداهنة، والتصنع، والمداورة، والرياء، قانون الحياة الاجتماعية.

ونحن نمتدح بصدق الوعد في الرجل المرجو، ولكنا نكره ألا يعدنا بتحقيق مطالبنا، حتى إن كان تحقيقها غير ممكن.

والرجل إذا قال هذا غير ممكن كنا له أشد كرهاً.. نحب أن يعد ولو لم يفِ لأن الصدق في هذا الموقف تخييب قاطع للأمل، والوعد الكاذب عزاء، ولو باطل.. إذاً فالكذب يلقى تشجيعاً.

تفطن الناجحون لهذا الضعف، فلا تلقى (للا) أثراً في صلاتهم بالناس، فلا جرم أن استحالت حياتهم كذباً مألوفاً ترضاه النفوس، وما يصدق على الكذب، يصدق على رذائل أخرى.

فإذا قال قائل، إن حظ الفضائل أخذ في الإدبار، لم يقل إلا بعض

الحقيقة.. الحقيقة كلها، أن حظ الفضائل قد أدبر أو زال.

فنظرتنا إلى الفضائل بعد قياسها بهذه الأقيسة الصريحة، التي مهدنا لها بعدة أمثلة، خليقة بأن تفقد حماسها وحرارتها، وأوشك أن أقول أملها.

وقد بينّا أن بعض الفضائل كانت تقاليد بهيجة، تحولت بالمزاولة والتشجيع إلى مشاعر وأخلاق ثابتة، يوم كانت الحياة أقل تعقداً، ويوم كانت الجماعة أسرة مكبرة، تتوحد فيها المشاعر والمقاصد، وتقوى بينها الروابط الطبيعية، أو يوم كان الاتصاف بها ضرورة لتوسيع مدى النفوذ، وبسط سلطان القوة، بين الجماعات المناورة.

وهذه كرة الزمان تفقدها سحرها ونفوذها.. شاخت وضعفت، كما يشيخ ويضعف، كل شيء في الوجود.

كانت شيئاً جديداً في حياة الجماعات، وشيئاً لامعاً يزيد روابط التماسك الجماعي، وقانوناً فاتناً يتضمن حماية الضعيف، ومعنى الاعتراف بقرابته من الجماعة القوية، ويتضمن معنى السمو بالقوة والرجولة.

وكان القانون الأدبي معنى لذيذاً تسرب في روح الجموع فساد وظهر كما يسود كل مبدأ شريف القصد، تستمد منه الجموع روح الأمل والعزاء والتفاؤل، وتستروح منه نسمات التساوي مع القوى.

وما زالت الجموع هكذا، تستمد من فهمها الفضائل، ومن الإيمان العميق بها، روح الأمل والعزاء.. ولو كانت وهماً خلاباً.

ومن السهل أن نحدد وقع هذه الألفاظ الساحرة في نفوس الجماعات الأولى: الشفقة، العدالة، الخير، الثبات، التضحية، الإيثار، العفة، الصدق، متى عرفنا أن كلمات: المساواة، الحرية، الاشتراكية، الحق،

المبدأ، حماية الضعيف، الديمقراطية، تفعل فعل السحر، في نفوس الملايين وتقودهم إلى التضحية في القرن العشرين، وتنزل من نفوسهم وأفكارهم منزلة الأحلام البهيجة، وتخدر أعصابهم بصورة ذلك الفردوس الأرضي الذي تزوره القوة أو الفلسفة.

وبالرغم من أن العقل لا يؤمن بإمكان المساواة والحرية، المطلقتين، وبالرغم من أن منطق الحياة يجعل الحق دائماً في جانب القوة، وبالرغم من أن حماية الضعيف، وضمان حقوقه الإنسانية، ليست أكثر من وهم فعال تسخر به الجموع، وبالرغم من أن الاشتراكية حلم لم تحققه سلسلة الجهاد الطويلة في آلاف السنين، فإن النفوس، ما تزال ترتاح إلى هذه الأوهام الباطلة، وتحرص على أن تبقى لها.

فهل الفضائل ألفاظ اخترعها القوي ووشاها بالأحلام والتهاويل لاستغلال الضعفاء؟. أما تيارات الحياة المتدافعة فإنها تندفع في سيرها تكتسح الضعفاء ومبادئهم وآمالهم وأوهامهم وتكتسح الفضائل والأخلاق لا قانون لها إلا القوة؟؟

وارحمتاه للضعفاء، لماذا لا يتعلمون فن القوة إذاً ليكونوا أقوياء أو ليتقوا شر القوة..؟

صحيح أن الإيمان بالفضائل في المعتقدات العامة لا يمكن أن يموت أثره في النفوس.

وصحيح أن المشاعر والمعتقدات الثابتة في الفضائل تكون أقوى نواحي القوة في روح الأمة، والجماعة، والفرد. لكن هذا الإيمان، وهذه المشاعر والمعتقدات أصبحت في نفوس بعض الأفراد والجماعات نقطة ضعف تستغلها القوة.

كم من المجازر البشرية انقادت الجماعات إليها مأخوذة بوهم الحق والعدالة، والدفاع عن الفضائل المستباحة؟ والقوة من ورائها لاهية عابثة، تعد الأغلال والأكفان لهذه الجماعات بعد الانتهاء من جهادها؟

وكم استغلت أطماع القوة، مشاعر الجماعات ومعتقداتها، باسم إقامة موازين الفضيلة والحق، حتى إذا بلغت غايتها بهم، أقامت موازين العسف والجور والرذيلة، عارية، مكشوفة...؟

ما ننكر أن تاريخ كل أمة حية لا يخلو من محاولات إصلاح يقوم بأعبائها فرد، أو أفراد تصح نزعاتهم إلى الخير، وتصدق جهودهم في الدعوة إليه.. ولكن سرعان ما يبتلعها الزمن، وتطويها القوة.

ويستحيل أن تتحول تيارات الحياة الجارفة عن مجراها الطبيعي ليقوم ميزان الفضائل بحقه في قيادة الحياة، وتسيير دفتها.

ويستحيل أن تصاغ الحياة في قوالبها الأولى، وأن تعود إلى قوانين الفطرة القديمة، وأن يتقلص ظل التمدن الاجتماعي إلى حدود هذه الفطرة، ليعاد ترتيب الفضائل والرذائل على ما يضمن للحياة استقرارها وسموها، وفقاً لما يقننه منطق العقل الإنساني البصير!

وها نحن نزن الفضائل ـ كما هي في واقع الحياة ـ ونحللها ونسبر غورها فما نراها إلا ألفاظاً براقة، وخيالاً ساحراً، ومبادئ لامعة، لا يمكن أن يتكون منها روح عام لجماعة من الجماعات أو لأمة من الأمم؛ بعد أن تقدمت الحضارات واندفعت في سبيل القوة والطغيان؟

ولا نرى الفضائل ـ في ما تمارس ـ إلا أنانية راسخة تقوم على النفع يرتجى، أو على اللذة تبتغى، أو على الأمل يطلب، هي وسيلة تحقيقه.

وهنا قد يسأل سائل عن سر إعجابنا بالفضائل؟ والجواب أنه ما من

فضيلة تمارس إلا وفي أطوارها دلالة على قهر النفس، وكبح غرائزها، وجهاد لمطالب هواها، فلا جرم أن يكون إعجابنا بها، إعجاباً يؤدي معنى الاعتراف بقيمة شيء نجد صعوبة في اكتسابه، أو نحس هذه الصعوبة في اكتسابه، وما تغلو قيم الأشياء عادة إلا بمقدار الصعوبة في الحصول عليها، وإلا بمقدار الحاجة إليها.

والفضائل صعبة ولكن لمن يكون إيمانه بها إيمان تضحية لا تنظر إلى جزاء وبيت المتنبي:

لولا المشقة، ساد الناس كلهم الجود يفقر، والإقدام قتال

تعليل دقيق لهذا الإعجاب، وإن كان تعليلاً ظاهراً للعجز الشائع عن السيادة والإقدام.

فالإيمان بالقوة ونفوذها، هو، حقيقة الحياة، وهو قانونها في القرن العشرين، وفي القرون الأولى، وفي أطوار الحياة القديمة البعيدة!

والدعوة إلى الفضائل حلم جميل بالحياة، كما يجب أن تكون، لا كما هي كائنة، حلم ما تحققه إلا القوة.

فمن يسعه أن يتكهن بأن الاتحاد مصير القوة والفضائل، والعالم مندفع في سبيل الطغيان والجحود..؟؟

* * *

نتقدم الآن إلى تحليل بعض الفضائل وتجريدها، والمقابلة بينها وبين نقائضها، لنرى صحة قولنا أن الفضائل أنانية مهذبة، وأن الرذائل أنانية عارية.

فالكرم لا شك، صفة فاضلة، تنطوي فيها صفات تتعدد مسالكها ودلائلها، وهي ككل صفة، لم تنشأ هكذا كاملة السمات، بل تدرجت في سلم التطور حتى بلغت غايتها المعروفة.

وقد قلنا إن الإنسان في حياته الأولى، كان يمتحن بعواد من الجهاد ومفاجآته الطارئة، تتطلب المعونة والنجدة.

في هذا الطور قد يزيد من نشاط الإنسان الكادح، فضل يتخذه يداً على الجماعة، ولا تزيد من طعامه فضلة.

فالطعام يدخر، وفي عدم ادخاره استهداف لمضرة الجوع والفقدان، ولكن النشاط يبذل، وفي بذله منفعة، تعين على تمرين القوى وحفزها، وتعين على اتساع وجوه الحيلة، واستمراء لذة الظفر والاكتشاف، ونشوة انتشار الصيت، وهو بعد قرض واجب الأداء على الجماعة، في الغد الغامض، وضرورة من ضرورات التكتل لدفع المخاطر، والاستئناس والسلوة، وتقليل هيبة المخاطر المترصدة له.

فالنجدة إذاً أولى معاني الكرم.

والكرم لم يكن في أول نشأته تضحية وإيثاراً، وغراماً بالبذل، إنما كان ـ ولا يزال ـ دلالة افتخارية على اتساع نفوذ القوي، ومقدرته على مواصلة الجهد والإنتاج، على أنه لا يتناول إلا الزيادة، وسبيل تعويضها مجهودة هينة، بعد اتساع رقعة التجربة والسعي، وامتداد مذاهب الحيلة، وحنكة المزاولة، واتساع الثراء.

ثم هو بعد صفة لازمة لمن تحلهم قوتهم من الجماعة محل الأبطال والقواد، فالكريم أكثر أعواناً، وأبعد صوتاً، وأعمق أثراً في النفوس، وأرفع منزلة في العيون، ولا يزال في الناس من ينزلهم كرمهم منزلة الزعماء المسيطرين.

والكرم فضيلة متعدية، لذلك كان الثناء والإقبال على تمجيدها، أكثر من الثناء والإقبال على تمجيد العفة، مع أن العفة قهر صارم للنفس، ورمز

للقوة، أكثر مما يكون الكرم الذي هو في معناه، وطبيعة دوافعه، انتفاء للخوف من الفاقة، أو توكيد للمقدرة، أو استغراق في لذة نفسه، أو سعي وراء مطلب أدبي، يكون أغلى من المادة المبذولة في نفس الباذل.

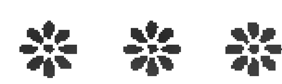
والبخل فطرة وشدة، تأخذ بحساب دقيق، وتعطي بحساب أدق، وهو رمز للخوف، وما يعيب الإنسان أن يخاف بل يعيبه أن يكون آدمياً.

والبخل إن كان رذيلة، فهو رذيلة لازمة إن كانت شراً في ذاتها فليست شراً على غيرها.

وهو إن دل على قصر الذهن، وفتور حيوية الفكر الطامح وضيق مدى النفس والخيال، في مجال المعنويات المنطلقة، دل على فهم عميق لطبيعة الحياة، وحقيقة الناس، ودخائل سرائره المطوية.

فإن كان الكرم شعراً وحماساً، وخيالاً جميلاً، كان البخل حكمة وفلسفة وفهماً عميقاً.

والكرم يعطي ليأخذ، والبخل اكتفاء.. وما عاب الناس البخل، إلا لما فيه من أثر الأنانية الواضحة، والاعتكاف في حدود الذات، ونحن نراه أنانية محدودة قانعة، ونرى الكرم أنانية واسعة جشعة، هما استرقاق النفوس والألسنة، وذيوع الفخار، وتحقيق المطامع، والاستمتاع باللذة الخفية.



والشجاعة ليست خلقاً طبيعياً في الإنسان فما يتصف بها الناس إلا اضطراراً، أو فراراً من عار، أو طمعاً في تحقيق غاية، أو منافسة لندّ، أو دفعاً لسبة، أو خطأ في تقدير نتائج المخاطر.. فبماذا من هذه الأسباب تستحق أن تدعى فضيلة؟

والجبن في منطق العقل السديد، وليد الخوف، والخوف ليس منافاة للعقل، ولا للطبيعة الإنسانية، فهو أقوى غرائز الإنسان، وأداة شعوره بالأخطار، وسبيل تجنبها.

فإذا خاف الجبان مجهولاً، فشأن النفس البصيرة أن تخاف المجهول، وإذا خاف المجازفة، فإنما يرجح السلامة والهدوء.

إنما كان الجبن سبة أو عيباً، يوم كانت الدنيا قائمة على المجازفة، ويوم كانت حرباً شعواء بين الإنسان، ومطالبه الصارخة، وبين الطبيعة بأهوالها المتراكبة، ومخاوفها المطبقة، ويوم كان اقتحام المجهول، ولقاء المخاطر، ضرورة الفرد، وضرورة الجماعة، لضمان العيش والأمن.

ومن يستطيع أن يزعم إن ضنَّ الحي بروحه، وحرصه على صيانتها رذيلة إلا في منطق هذا العرف الآبد؟

إن الإنسان إذا تغلب على وحي غريزته، فاستهان بالمخاطر واستمرأ لذة المجازفة، كان خارجاً من حدود غريزته وفطرته، داخلاً في حدود مطلب من مطالب الضرورة، أو مطالب العواطف واندفاعاتها، ولهذا حدوده الخاصة، فإذا لم تلد هذه الحدود، وإذا لم تلد عواطف الشجاعة واندفاعاتها، حجة يستقيم بها الإقناع في منطق الجبان، كان ذلك حقاً، وحقاً كله.

نعم إنه ليس من الرشد في عرف نفس اتسع مدى فهمها للحياة وشعورها بامتداد آفاقها، أن تفقد في سبيل صيانة النفس، أعز أعلاقها.. ولكن هذا مطلب من مطالب طور خاص، في حياة الإنسان، ونضوج ذهنه، فذاك حيث عد الجبن رذيلة، حتى بعد أن أدبرت الحياة البدائية أدبارها، واتسعت حدود الإنسانية بمعنوياتها الحافلة النازلة من الإنسان منزلة لحمه ودمه وأنفس أعلاقه. والشك في أن الجبن رذيلة، ما يزال قائماً في النفوس، وإلا لماذا جنح الناس إلى توليد فضائل نصفية منه، دعيت وزناً

وتقديراً، وتبصراً واعتدالاً؟ وإلى توليد رذائل نصفية من الشجاعة، دعيت تهوراً وتطرفاً واندفاعاً؟ أليس لأن القرابة بينهما واضحة؟

والحق إنا نرى القرابة بين معظم الفضائل ونقائضها وشيجة، والتداخل واضحاً.

وما نعتقد التفرد بهذه النظرة، أو السبق إليها، فقد قاد الشعور بهذا التداخل ـ في ما نرجح ـ بعض الفلاسفة قديماً وحديثاً إلى اعتبار الفضيلة، وسطاً بين رذيلتين، فالكرم عندهم وسط بين رذيلتين، البخل والسرف، والشجاعة وسط بين رذيلتين، الجبن والتهور.

ولكن ثمة فضائل لا تقبل هذا التقسيم، فبقيت على الشذوذ وسط ذاتها، فالأمانة، والصدق، والعفة، وأمثالها، لا تنزل فضيلة منها منزلة وسطاً بين رذيلتين.

فالأمين يكون أميناً كلما بالغ في أمانته، والخائن يكون خائناً مهما قصر به مدى خيانته، ويكون صادقاً أو كاذباً، ولا وسط، وللمبالغة بعد، حدودها وصيغها الفكرية واللغوية.

فهل نلام على الشعور بأن العدالة المنطقية، لم تعط الرذائل والفضائل حقها من التقدير والفهم الدقيق؟

هذه رذيلة الحقد، لماذا عدَّت رذيلة؟

أينقص بالنفس أو ينحدر بها، أن تحقد على من أساء إليها، أو اغتصب حقاً من حقوقها، حتى ينصرف بغيظها الانتقام والاسترداد؟ أو ينصرف به العفو بعد الظفر؟

وهذه فضيلة العفو القادر! أليست أبلغ الانتقام وأدهاه، والانتقام الذي يتضمن الشماتة البليغة والتقريع اللاذع، للضعف المنكر بعد اعترافه

بالهزيمة؟ أليست عدول الكبرياء عن تشديد التنكير على الجسد، إلى تشديد التنكير على الروح؟ أليست الانتقام الذي يفثأ غليان النفس، ويطفىء أوارها ثم يستلّ في دهاء سخيمة قلب الضد المندحر ويكسر سَورة الشر فيه..؟؟

في ما بين معظم الفضائل والرذائل إذاً من الفروق، ما بين الظلم والعدل، والحسد والغبطة وأمثالها.

هذه أضداد ونقائض، وتلك قرابة ومجاورة، وما على هذا الظن غبار، ما دامت النفس الإنسانية، وطبائعها الأصيلة، المنبع الذي استمدت منه الفضائل والرذائل خصائصها وسماتها وإنباضها.



والقناعة كانت فضيلة ـ ولا تزال فضيلة الصابر المحروم ـ لأنها رمز الاكتفاء القوي عن الناس، والتحكم في مطالب النفس، وحد طماحها، ترفعاً عن التدلي لالتماسها منهم.

ولكنها اليوم فضيلة خاملة، توشك أن تنقلب رذيلة، في عرف الحياة الراهنة، ومصطلحات طورها الحديث، فهي معدودة في الفقير تسليماً بالعجز عن إدراك الرغائب، وفي الغنى دلالة الاستكفاء.

ولو قلنا إنها في الغني والفقير، دليل سمو النفس وترفعها، لم نقل حقاً.

ولا يسعنا أن ننكر أن قناعة الفقير والضعيف والعاجز، عزاء يلتمس لتخفيف وطأة الشعور بالحرمان، عن النفس.

وهذا المتنبي يقول:

كل عفو أتى، بغير اقتدار   حجة لاجىء إليها اللئام

فالعفو عنده لا يكون إلا من قادر، وهذا مطابق للاصطلاح. فلماذا لا تكون القناعة فضيلة ـ إن كانت ـ إلا ممن تتوفر فيه المقدرة على تحقيق الأطماع.

والتواضع توكيد للذات، وإيمان عميق بها، ويخطىء من يظنه إنكاراً للنفس، واعترافاً صادقاً بضعفها، وهو لهذا لا يكون في أروع صوره، وأكثرها فتنة، إلا إذا جاء دلالة على قوة ممتازة.

والكبرياء أنانية واضحة لا تعرف الدهاء والحذق، فهي رذيلة ظاهرة.

ولو قابلنا بين الإيثار والأثرة ألقينا الإيثار أكثر جشعاً، وأوضع طمعاً، فالإيثار نظر حاذق إلى ضمان فائدة الحب والإعجاب في الحاضر، وما يفيد بهما في المستقبل، والأثرة نظر ضيق إلى ضمان فائدة في الحاضر، تقتصر على المادة، فهي عارية لا تتستر، فتتيح بوضوحها الفرصة للمقاومة والفهم والحكم الدقيق.

فالمتكبر، والأناني الأثر، أقصر نظراً إلى مصلحتهما، وتوسيع حدودها.



والاعتراف بالنقائص فضيلة دون شك. ولكنها أيضاً فضيلة ذات مغزى نفعي كالتواضع، فما يعترف إنسان بنقيصة فيه، إلا وهدفه أن يتصف بالكمال في ناحية أخرى، هي أكبر عنده وأغلى.

والعفة لم تكن رياضة عسيرة للنفس وجهاداً مستمراً لغرائزها، وقمع شهواتها الملحة، إنما كانت مطلباً من مطالب الحياة الاكتفائية الحريصة على أن تبقي لها ذخيرتها من النشاط والقوة، حيث كانا سلاح الحياة، وأداة صيانتها وإنما كانت دليل الزهد في مناورة الجماعة، لضرورة الحاجة إلى حمايتها، والاستقرار فيها.

فهي في هذا القياس صفة لا أثر فيها للترفع الأدبي المختار عن انتهاك الحرمات.

على أنها قد تكون عجزاً وفتور حيوية!

ومن يرى أن عفة الشيخ في طور كلامه واسترخائه فضيلة، إنما هي فضيلة السن، وقانون الفتور، وليست فضيلة القوة والصبر والمغالبة، كما هي في الرجل المشبوب القادر على تأمين مطالبه.

* * *

والكذب يقل حيث يقل التزاحم على أسباب العيش، فهو في القرية، أقل منه في المدينة.

ففي القرية يعيش الناس على الزراعة مثلاً، وعلى العمل فيها، أو على أسباب محدودة للعيش، فلا مجال للتنازع، ولا للشعور بالحاجة إلى الرياء والملق. لوضوح استقلال الحياة واكتفائها، فما يكرم الإنسان فيها طمعاً في ماله، ولا يكذب عليه للاحتيال على الزلفى إليه، ولكن يحب لسجايا الخير فيه، أو يخشى جانبه لقوته البدنية مثلاً، وهذا يدعو إلى تحاشي سبيله أكثر مما يدعو إلى تملقه والكذب عليه.

لكن الكذب في المدينة العامرة، ضرورة اجتماعية واقتصادية، تعين على الرواج، وانتعاش حركة التبادل، والإقناع، فلو ساد الصدق فيها، أصيبت مجالات الحركة والنشاط، بركدة، يتضاعف معها الشعور بأعباء الحياة وهمومها.

والكذب دليل فقدان الثقة بنفع الصدق، وهو أكثر الرذائل نسلاً، وأرشقها دخولاً على النفوس، وأوسعها حذقاً.

فالرياء، والتصنع، والغيبة، والخداع، والمكر، والمداهنة، والمداورة،

والمصانعة، والنفاق، والغدر، والدهاء... من مواليد الكذب ومركباته.

وقد ضمن له هذه الكثرة، الشيوع والسيطرة، وضيقت مجال الصدق حتى اعتبر خشونة، وجهامة، وقلة بصر بالحياة والسذاجة.

❊ ❊ ❊

والصبر والثبات ـ على أنهما من الصفات الفاضلة، كانا ضرورة من ضرورات الجهاد للعيش، فما يلجأ الإنسان إليهما إلا وهما ضرورتان، لا رجاء في درك مراده إلا بهما.

وقد يكون معقولاً أن يزهد الإنسان في بث فكرة أو مبدأ أو إقامة حقيقة، متى أضنكه الجهد، وناء به في هذه السبيل.

لكن الإنسان الساعي لقوت يومه، أو إقامة مأواه، أو مطاردة فريسته أو دفع خطر داهم عن نفسه، ما يجد بداً من الصبر والثبات، لأن خيبته هنا لا تقطع عليه لذة فكرية، لا يستحيل العيش بفقدانها، بل تقطع عليه أمل نشاطه، وقوام حياته، ومادة بقائها.

هذا في الأطوار القديمة..

وفي أطوار الارتقاء، يكون الصبر والثبات، ضرورة يمليها قانون التجارب وقانون الرغبة في سداد السعي، والحرص على ألا تفقد النفس مطالبها، وألا تألف الاندحار والخيبة، فتفسد بهما عقيدتها في قوتها ومضانها، أو عقائد الناس فيها.

والأمانة شأنها هذا الشأن أو ما يقاربه.

فقد كانت ـ على الأرجح ـ دليل سيطرة القوي، وندرة مثاله، ودليل الثقة باستغنائه عن الطمع في أعراض يكثر مثلها في ما يحرز أو في ما يستطيع.

ولا شك أنها كانت مقصورة على من هيأت لهم قوتهم من امتداد النفوذ بين الجماعة سبيل السلطان عليها، فهي سمة القوي الذي لا تحد حريته وشهواته، إلا قيود قوته وحدودها.

وهي اليوم ضرورة لصيانة السمعة، واستجلاب الثقة والفرق من اختراق حدود القوانين، والاستهداف للمضرة والانهيار، وجرح العزة والشرف.

ونحسب أنه لو حلت الإباحة والإطلاق محل التحريم، والتقييد في قوانين الحياة الوضعية، لكانت الخيانة، واستباحة الحقوق، واحتجان الودائع، أول زلزلة تصاب بها البشرية عامة، إلا من عصم الله، وعصم الإيمان به.



قسنا الفضائل والرذائل ـ أو بعضها على الأصح ـ بهذا المقياس الذي لا تقاس به الأشياء إلا مجردة عارية، مما أضفت عليها خيالات القرون، والأفكار الذهنية والمدرسية.. ونعتقد أنه لم يعد لنا معدى عن الاعتراف بأن الفضائل في مراميها الخفية، أنانية مهذبة، ميزان الربح والخسارة فيها قائم منصوب.

وجملة القول إن معظم الفضائل لا تنتسب إلى أشرف عواطف الإنسان أو غرائزه؛ بل تنتسب إلى أنانيته، وشعوره الخفي بالمصلحة.

ولم يكن حكمنا على الفضائل وتجريدها إلا تقديراً دقيقاً، لأثرها الحقيقي في الحياة، وعلاقاتها بالنفوس.

وقد رأينا أن بعض الرذائل، ألصق بالحياة، وأقرب إلى طبائع النفوس من الفضائل... ويؤلمنا أن تكون المماراة في هذا ضرباً من العبث.

ونحن لا ننكر أن الفضائل في حقيقة معانيها ومطالبها جهاد صادق للسمو بالنفوس إلى آفاق من الحرية والخير، تخرج بها من حدود المادية الجامدة، وترتفع بها عن قوانينها الترابية ولا ندعي أن الإنسان قدير على أن يأتي بأشرف ما فيه من خارج نفسه وطبائعه، ولكنه مطالب بأن يحول ما فيه من نزعات الشر والأنانية إلى أسمى مطالب إدراكه العقلي والوجداني، كما تحول الرياضة العنيفة، لحمه المترهل إلى عضلات قوية.

* * *

وقد حللنا بعض الرذائل التي نسميها معائب عقلية أو طبْعية (كالبخل، والجبن والكبرياء، والأثرة) تحليلاً نخشى أن يؤخذ دليلاً على عقيدتنا في رجحانها على نقائضها، وليس لنا في الحقيقة غرض من هذا التحليل، والمقابلة إلا الإشارة إلى أن هذه الرذائل أو بعضها من سنن العقل والطبائع أو من فرائضهما.

ولنا رأي نخالف به الاصطلاح الشائع في الفضائل والرذائل خلاصته أنا لا نرى صفة من هذه الصفات التي جرينا في هذا الحديث على تسميتها فضائل ورذائل، ما هو خليق بهذه التسمية.

وإنما ندعوها محاسن ومعائب فردية يهبط بها العرف أو يعلو، على وفاق نصيب المتصف بها من القوة والضعف، أو على نصيبها من الشيوع والخمول، وأساسها الأنانية والمصلحة.

أما الفضائل التي نراها خليقة بهذه التسمية، فهي التي نزل بها القرآن ودعا إليها. تلك فضائل، لا يكون للمتصف بها، والمؤمن بقوانينها، نظر إلى مصلحة أو سمعة. . وإن كان شيء من ذلك فالمثوبة عند الله، والزلفى إليه.

فالكرم فيها إحسان إلى مستحقه، ينزل منزلة الحق المفروض له، وخروج من سلطان المادة وحدودها في سبيل الله.

والأمانة مبدأ يعامل الأمين به الناس، كأنه يعامل الله.

والصدق ميزان دقيق، لا يستقر فيه الغش والتدليس، ولا يستقر فيه الحقد والرياء.

والتواضع إنكار للذات وقوتها، في سبيل إيمانها بقوة الله.

والعفة سمو بالنفس لا تشيل بميزانه خالجة من خوالج الشيطان والهوى. فإذا انحرفت بها نزوة عارضة من نزواتها، لجأت إلى التفكير والتوبة والاعتراف، لتتطهر من إثمها.

وهكذا حتى تكون الفضيلة حياء من الله، تتجنب به مواطن حرماته فلا تأتيها؛ ولو أتاها الناس جميعاً.



وخير لنا أن نحجم عن تحليل بعض الرذائل (التي ندعوها رذائل روحية) واستجاباتها العصبية الظاهرة، فهي خليقة عندنا بأن تدعى أمراضاً نفسية، أو جسدية، أو عقلية، أو هي مزيج من ثلاثتها.

وإنا لنجد بعض المصابين بأدوائها أصح نظراً إلى الفضيلة، وأصدق في تقديرها، والإيمان العميق بها، من المتشددين فيها لأن ممارسة هذه الرذائل تنتهي بمن يمارسونها إلى ألوان من العناء، والمشقة والمضض، ترهقهم بأعبائها، فهم أصدق نزوعاً إلى التخلص منها، وإن كان الاندحار نصيبهم ـ في الأكثر ـ كلما نازعوا نفوسهم على الإفلات من قيودها وأغلالها.

فنزوعهم إلى الفضيلة، وظمؤهم المحرق إليها، أشبه بظمأ السجناء

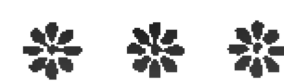
إلى الحرية، والقلق المضطرب إلى الراحة والطمأنينة، والمقاربة بين شعور الإنسان الطليق، وشعور الإنسان المكبوح، بجمال الحرية وفتنتها، تكشف لنا عن شعور المصابين بهذه الرذائل.

وهي عادة عرض أصحابها باليأس من الخلاص، فذاك حيث يتسمون بعدم المبالاة، والاستهتار الظاهر، وهما دلالة اليأس في الشفاء.

فلا غرو أن نرى في بعض المصابين بهذه العاهات النفسية التي نسميها رذائل؛ قبساً خاطفاً من الشعور بهدي الضمير، وصدق التأثر، والإحساس بالوخز والمرارة ولا نراه إلاّ نادراً في نفوس المتمسكين بالفضائل لا تمسك الإيمان الصادق بها، بل تمسك الخوف مما تجر إليه نقائضها وأضدادها، من فقدان أمل، أو مكانة.. وقد يكون تمسك من لا يحس من نفسه النزوع إلى هذه النقائض والأضداد.

ولو أن رجلاً ذابت في عينه ونفسه مغريات الرذيلة، وتزايلت فيه أسباب النزوع إلى متعاتها السانحة، فصدف عنها صدوف الواثق بعجزه أو بعجزها عن إثارة رغبته واشتهائه، لما كان خليقاً بأن تعد فضيلته فضيلة قوة وجهاد في منطق العقل السليم.

فما تكون الفضيلة جديرة بهذه التسمية، إذا كانت إيماناً، حتى تكون غلبة وانتصاراً وقوة وجهاداً لإغراء الرذيلة، وكبحاً لميل النفس المسعورة، وحنينها الملحّ إليها.



إن كثيراً من الفضائل لا يكون مطلباً خلقياً في البلاد التي تتسع فيها أسباب الكسب، وتتنوع وسائله، ويتكاثف فيها الاجتماع. فالناس في مثل هذه البيئة يتسامحون في طلابها، لأن ضرورات التكاثف وما تستلزمه، من الاتصال

والاشتباك واتساع العلائق، تصرفهم عن التماس القوانين الأدبية، فيفهمون الحياة على حقيقتها الواقعة، وينشغلون عن النظرة الشعرية المثالية إليها.

فمتى تكلفت الأنظمة بحماية الحرمات الفردية، وبحماية الحرمات والحقوق، وقام الفرد بواجبه القانوني في صلاته المعينة الحدود بالناس، استوى في القمة، الحليم والأحمق، والعفيف والمستهتر، والكاذب والصادق، والشجاع والجبان، والأناني والإيثاري، ما دامت رذائل إنسان لا تتناول غيره بالأذى والإساءة.

وليس لنا أن نطمع في تحويل تيارات الحياة، فالحياة لا تخرج على قوانينها، ولا تتكيف على ما يطابق ميولنا، وإنما الإنسان يكيف حياته ومطالبه على وفاق ضروراتها.

فهل كان انحراف الناس بإيمانهم بالفضائل، إلى هذه الهمود ضرورة، اقتضاها سير الحياة العامة، وقوانينها؟

إننا نعترف في ألم بهذه الحقيقة.

يقول الأستاذ العقاد: (ليس بحيٍّ الضمير من لا يسمع صوت ضميره مرة، على أنه لو وُجد ذلك الرجل بين الناس، لكان كمن يعاملهم بصك يتقيد به من جانبه، ولكنهم هم من جانبهم لا يتقيدون به).

كم يلقى العقل، وتلقى النفس الشاعرة، في التسليم بهذه الحقيقة من مضض وألم؟. أترانا نريد من الضعفاء والموتورين، والعاجزين والفقراء.. أن يؤلفوا جيشاً أعزل لحماية الفضائل مما جرّت إليه هذه النظرة العامة؟

أم تراه واجب الناشئين الحائرين؟

أم واجب القوانين التي تعرف كيف تعاقب الرذائل، ولا تعرف كيف تناصر الفضائل وتثيبها وتشجعها؟

أم أنه واجب الأقوياء والقادرين، وواجب قادة الأمة وسراتها المتسلطين على مجاري حياتها، والذين حذقوا فن القوة فيها؟

إنما ننهض بالمبادىء والنزعات الطيبة، بالتشجيع والمناصرة والإقبال.

فهل يلقى الخلق الفاضل بيننا التشجيع والمناصرة؟

كم يلقى الصادق، والصريح، والعادل، والأنوف، والصابر، والمستحي، والأمين، والرحيم من المشقات، ومن انزواء الناس عنهم ومن المقاومة الظاهرة والمستورة لخطواتهم؟؟

وكم يلقى الكاذب اللبق، والماكر الختّال، والضارع الشره، والظالم القوي، والجريء الملحف، والطامع المتوقح، والخؤون، ومغلق الحس، من الارتياح إليهم، والاستجابة لفرائضهم، والإعجاب بهم، والرهبة منهم؟؟

أفهذا لأن موازين المحاسن والمقابح قد اختلت قوانينها وتبدلت؟

أم لأن تيارات القوة اختطت لسيرها مجرى أعوج غير مجراه الطبيعي؟

أم لأن الفضائل أدوات زينة، وشارات تجمل، كل شأنها أن تستكمل بها، وبشواهدها المسرودة، معاني الترف والنعمة ومطالب الذوق الناعس، فما تصلها بحياة الإنسان، صلة بسلاحه، وعدته، وأفكاره، وعقائده؟؟

أم لأن النفوس عرفتها حلية زائفة، وزخرفاً براقاً، ووهماً في ألفاظ فهي لا تنزل منها، ومن الألسنة، إلا منزلة الشعر الجميل، والخيال البهيج، تنطلق به مناسباته السانحة في مجالس الطرب والاسترخاء، ثم لا ورود له بعد انقضاء دواعيه، وزوال أسبابه؟

أرأيتم كيف يتقلص نفوذ الفضائل في هذا الزمن العجيب الذي اتضحت فيه سبل الحياة وحقائقها، وقلت مساتير النفس وانكشفت مكنوناتها؟

أرأيتم كيف تقلص في عصور عجيبة قبله، امتطت فيها الرذائل، غوارب الفضائل تقودها وتتخذ منها جُنة تُتقى بها المخاطر، وتُدفع قالة السوء، وتسخر الجموع وتُخمد الفورات..؟

* * *

بين جزر هذا الحديث ومده، رأيتم الفضائل التي سميتها محاسن، سلعاً مزجاة يرتفع بها الميزان تارة ويهبط.

ورأيتموها تجارة يراد بها الغنم، وفخاخاً يصاد بها العاجز والغافل، وسلاحاً يغتال به الضعيف، ولهواً تستمد منه اللذة.

ورأيتم فضائل الدين التي بعث محمد ﷺ ليتمم بها مكارم الأخلاق ـ تضحية لا ينظر من ورائها إلى غرور الدنيا، وأعراضها الزائلة.. تضحية لا تضمن للمقدم عليها متعة ولا فائدة.. إلا الزلفى إلى الله، ونِعْمَتْ تجارة لن تبور.. تلك محاسن، وهذه فضائل.

تلك فخاخ يصاد بها حطام الدنيا، أو تسحر أعين الناس.

وهذه وسائل ينال بها رضاء الله، وتُبتغى المثوبة عنده..

تلك محاسن نزل بنا إيماننا بها إلى الحضيض، فكانت شارة ضعفنا.

وهذه فضائل أقامت مبدأ سامياً فتح القلوب والنفوس قبل أن يفتتح المدن والممالك، فما يعجزها والله أن تنهض بهذه الأمة المعروفة التي قعد بها ضعفها وقعدت بها محاسن ومعائب بنيها..

فلنلتمسها، ولنمهد المجال لظهورها.. فهي أمل النجاة، وسبب النهوض وسبيل القوة والظفر.

إن كل فضيلة من فضائل القرآن تضرب المثل الأعلى الكامل للقوة

وحريتها فآمنوا بها واطلبوها.

وكل فضيلة من فضائلنا تضرب مثلاً للضعف والتهافت والتمويه، فأعرضوا عنها، وانبذوها.

وليكن الكريم الوهاب محسناً أنوفاً يأبى أن يأخذ بما يعطي شيئاً.

وليكن محسناً بصيراً.. يفرق بين الحسنة الواجبة، والمحمدة الزائفة..

وليكن الشجاع مجاهداً حراً، يغضب للحق، كما يغضب لنفسه، وليكن الصادق أميناً، يقول كلمته في القانون، قبل أن يقولها في المجرم.

وليكن المتواضع صادقاً لا طامعاً.

والصابر مختاراً لا مكرهاً..

والإيثاري زاهداً، لا تاجراً..

وبعد فهذه حقيقة الفضائل كما تعرفها القوة، لا كما يعرفها الاصطلاح، وما على كل فاضل إلا أن ينزع من فضائله نصيب نفسه الترابي فيها، فإذا هي فضائل القرآن التي تصنع للأفراد الصحائف الذهبية في التاريخ.. والتي تبني الأمم..

ولعل معترضاً يقول: أفلا يقتضي هذا التحول المطلوب، أن تصاغ الحياة صياغة جديدة تنتزع من النفس الإنسانية، أنانيتها، وطبائعها، وتبدل غرائزها وميولها الراسخة؟

ونجيب بأن أصحاب هذه الفضائل، كانوا من أوسع الناس أنانية، وأبعدهم طمعاً وأعمقهم خيالاً.. فما يضحي الفرد منهم بنفسه في سبيل مبدئه إلا وهو يعتقد أن الموت ختام الحياة الذي لا مفر من لقيانه، وأن خلود هذا المبدأ وانتصاره إنما هو خلود نفسه فيه.

وما يخرج من سلطان المادة، إلا وللدنيا عنده معنى من الجمال والحرية ـ ما تتمتع به النفس إلا إن لقيته بأكبر منه، من داخل نفسها وذات سرائرها.

وما يكبح نفسه عما يشينه في أدل صورها على حب الذات والذهاب بها في أبعد مذاهب الغلبة والسيطرة.

فهذه الفضائل ترمي إلى توسيع مدى القوة والأنانية وطبائع النفس، فتكبر فيها الحياة وتمتد حتى تكون مثلاً أعلى ما تقنع النفس دونه بشيء، ويصغر كل ما في الحياة مما دون هذا المثل، حتى تكون خَطْرَة من خطرات النفس الأناني، الأناني أغلى من ذلك الكل الذي تنزل عنه راضية لمن كانوا دونها أنانية وطمعاً.

وخليق بنا أن نرى الأمل في مثل هذه الفضائل ضرباً من الخيال، لولا أن معارض الحياة اليوم غنية بالشواهد عليها، في أمم لا تعرف أن وراء حدود الحياة الظاهرة، حياة ينتهي إليها الجهاد، وتستقر فيها الموازين، فكيف بمن يرون الحياة الأولى سبيلهم إلى الحياة الكاملة الصحيحة، ومجال سباقهم الذي يعرضون فيه قواهم وأعمالهم للفوز أو للخسران؟

* * *

نحن بسبيل الحديث عن الفضائل، ولسنا بسبيل حصرها، وما نظنها من الخفاء بحيث يكون حصرها ضرورة لازمة..

وللفضائل في رأينا جماع هو الحياء.. والرحمة.. والعدالة.. وقوام هذا الجماع الحياء..

فالحياء قوة النفس، وحرية العقل، وميزان الضمير.

والرحمة عدالة النفس، وجمالها، وحسها.

والعدالة رحمة العقل وبصره وسلطانه.

وسنسهب في تحليل الحياء الذي هو قوام الفضائل، أو قوام جماعها إسهاباً نحرص ألا يقودنا إلى التماس العلاقة بين كل فضيلة من الفضائل وبينه حسبنا أن نجمل الإشارة إلى هذه العلاقة فنقول إن كل صفة فاضلة مردها إحدى ثلاث صفات من جماع الفضائل أولاً، ومردها الحياء أخيراً.

والصلة، هنا ليست صلة الجزء بكله، لكنها صلة الفكر المحس، والوجدان الشاعر، والضمير المبصر، ولقد أقول إن الرحمة جمال، فيأخذ السامع بغرابة هذا القول، لأنه عرف الرحمة معنى، أو شعوراً وعرف الجمال صورة، ولكنه متى عرف أن الصورة للجمال رمز لما وراءه من معانيه وخطراته، وأن الألفاظ إشارات مجملة إلى معان تنزل منزلة اللحم والدم ممن تجول المعاني وراء نفسه، أدرك أن جمال الرحمة هو الجمال في جملته وحقيقة معناه.

المعروف أن الحياء صفة طبعية مظهره الترفع الأدبي المتطرف عن الاستجابة لرغائب النفس، إذا شعرت بأن في هذه الاستجابة ما يشينها، ولو كان مباحاً يأتيه الناس.

والمعروف أيضاً أنها دلالة الحس المرهف، ووضوح الشعور بالنقص، أو ضعف الجهاز العصبي، هذا أو ما يقرب منه في الطب.

* * *

لا توجد بين الفضائل فضيلة، أو بين المزايا مزية، تعرضت لما تعرض له الحياء من الامتحان بسوء النظرة وقصرها، وبالتقدير المختل، والوزن الجزاف.

أقصى ما يبلغه من التقدير، أن يدعي شعوراً بالنقص، أو فرقاً من

الشماتة والتقصير، في الرجل.

وأن يعتبر ضابط العفة، وصمام الأمن في أخلاق المرأة، ودوافعها الطبيعية، حتى بلغ سوء النظرة إليه أن يعتبره بعض الأساتذة المعدودين من المفكرين في مصر كمالاً للأنثى، وعيباً للرجال.

وأول ما ينزل إليه، أن يعد دليلاً على ضعف الجهاز العصبي.

أما آخر ما ينزل إليه، فأن يعتبر أول خطوات البله والعته، وفتور الحيوية حتى يختلط بالجبن والخور، وقصر الفكر، وفقدان الثقة بالنفس.

يتلقى بعضنا عن بعض هذه النظرة الفاشية في مجال الحياء، ونظرة أخرى مبهمة في مجال النشأة الأولى.

* * *

هذا صغير يلتهم الطعام في شره ـ استح

يصرخ من شيء يؤلمه ـ أو يبكي ـ استح

يتكشف عما يجب عندنا ستره ـ استح

يقلب الأثاث أو يكسر شيئاً ـ استح

يربت على ظهر كلب ـ استح

هذا في البيت.

في الزقاق:

يضرب الكلب ـ استح

يضرب رفيقه ـ استح

يغتصب شيئاً منه ـ استح

في الكُتَّاب في المدرسة:

يبتسم - استح

تفلت منه ضحكة أو حركة شاذة - استح

يضاحك زميله الكبير أو الصغير - استح

يقصّر في دروسه أو يغيظ الأستاذ - استح

يكذب أو يسب - استح

الصغير يريد بغريزته أن يشعر بوجوده، وبأهميته، ويحب الحركة لأنه ميال بفطرته إلى الحرية، وإلى الشعور بها.

يتناول كل شيء بعينه، فيحب أن يتناوله بيده، وأن يعرفه، وأن يختبره.. الكرسي، الصورة، الصحن، النار، القط.

يقلب الكرسي، يجذب الصورة، يكسر الصحن، يلمس النار، يجر ذيل القط، يخنقه.

هو معتاد ألا يشعر بنفسه إلا بهذه الحركات. ومعتاد ألا يثير الاهتمام به، فيمن حوله إلا بهذه الوسيلة.

إذا هدأ وسكن، لم يلتفت إليه أحد، فلا يكون أكثر من قطعة أثاث تأخذ حيزها المحدود في الغرفة.

إذا بكى أو صرخ، أو تحرك، اهتم به الناس.

ينشأ معه هذا الميل إذا كبر قليلاً، فيقابل بزواجر القانون المختزل في كلمة واحدة يندر أن تتغير (استح) في البيت، في الزقاق، في الكتّاب.

إذاً اللعب، الحركة، البكاء، الضحك، التقصير في الدروس عيب ينافي الحياء.

هذه عقدة عصبية.

عندما يشب.. يرى سمر الكبار، وحديثهم، ومزاحهم، وحريتهم، فيميل إلى المشاركة فيه بحذر وانكماش. (يجلس في طرف المجلس).. زجر.. نظرات قاسية.. استحِ.

يغني وحده، كما يسمع الكبار يفعلون ـ استحِ.

إذاً التشبه بالكبار حرية محرمة.. تسع الكبار، ولا تسع الصغار.

هذا هو الحياء؟

إنه غير عادل، وغير جميل، لا منطق فيه.

هذه عقدة عصبية.

يظلمه الكبير، أخوه، أخته، أستاذه، زميله.

يشتكي ـ يبكي ـ يعلن غيظه ـ يتحدث صادقاً منفعلاً.

كذاب ـ أكبر منك ـ استحِ.

إذاً الصغير عندما يقول الصدق، يكون كاذباً!

وإذاً الظلم من الكبير (القوي) لا ينافي الحياء.

يشعر بالمرارة، يتعلم الحقد، يتحسر على الحرية، يكره حكم الكبار (العدالة) ويسأل نفسه لماذا لا يستحي الكبار عندما يضحكون، ويغنون ويمرحون، ولماذا لا يصدقونه، ولماذا يظلمونه؟

لا جواب:

هناك إنهم أكبر منه (أقوى).

إذاً لا يجب أن يستحي إلا الصغير (الضعيف).

الحياء قانون، ولكنه مفروض عليه وحده.

الحق للكبير دائماً، لأنه قوي، وليس للصغير.. لأنه ضعيف.

الصغير لا حق له.

الحرية ـ الجمال ـ الغناء ـ الضحك ـ الحق ـ للكبار دائماً لأنهم أقوياء.

عقدة عصبية..

كنا نقول إن الشعور بالمؤثرات، والمفارقات، في حياة الإنسان القديم، لا يقتضي التسمية.. كذلك هو في حياة الصغير.. معنى وشعور وإدراك.

يكبر، وتكبر هذه العقد العصبية في دمه ونفسه.. كما تكبر عقد عصبية أخرى لها خطورتها على أعصابه، وعلى مستقبله الفكري والنفسي. نشأ عن الكبت وسوء التربية.. وانحطاط البيئة، واختزان مؤثراتها.

وقد تضيع هذه العقد من ذاكرته، ولكنها تبقى في واعيته الخفية، قوة لاشعورية مستورة، ولكنها موجودة تعمل في نفسه وأعصابه، عملها المخيف الهادىء.

في المدرسة..

يتعلم أن الصدق والشجاعة، والكرم، والعفو، والعفة، والرحمة، والصبر، والحلم، وطائفة كبرى من أمثال هذه السجايا.. فضائل واجبة..

وتضرب له الأمثلة، في كتب الدين والأخلاق، والتاريخ، والإنشاء والمطالعة، على هذه الفضائل، وعلى الخير والبر والتقوى.

إن كان ذكياً رأى أستاذه يكذب، ورأى أمه تكذب على أبيه، وأباه يكذب على أمه، ورأى أنه لا ينجو من العقاب المدرسي إلا بالكذب..

ورأى الأستاذ يخاف، ورآه بخيلاً، ورآه لا يرحم، ورآه ضيق الصدر، ورآه عفيفاً في الظاهر فقط..

التلاميذ يعرفون أسرار أساتذتهم ويكتشفون هناتهم ونقائصهم أكثر مما يعرفها الرجال.

وإن كان ساذجاً انفعلت نفسه وأفكاره بما يتلقى.. فأخذ نفسه ببعض الفضائل أخذاً، حتى يرى نفسه شيئاً شاذاً لا ينطبق على ما حوله.

يتطلعان إلى الحياة، الأول في ذكاء وخبث، والثاني في خجل، وحيرة، وتردد وانكسار.

وينشط كلاهما بالتدريج، ولكن نشاطاً حيوانياً خطراً.

الكبار يتمتعون بحريتهم، وأفكارهم، وألسنتهم الطليقة، الشاب يقلدهم.

تتكشف له الحياة عما يمارسون.. يراهم يقولون شيئاً.. ويفعلون ضده.. يستحون في الظاهر، ولا يستحون في الباطن، يخافون القانون.. ولا يخافون ضمائرهم، وقوانينهم الأدبية (الفضائل).

هذه عقدة عصبية..

يرى خطيباً يخطب ويتلعثم.

يقول في نفسه، هو لا يحسن الخطابة.

يسمع الناس يقولون.. يستحي!

يدخل إلى مجلس غاص فيرتعد، يعرق.

يبتسم الناس، ويسألون لماذا تستحي؟

يسمعهم يقولون: فلان يستحي كالنساء.

يرى الذين لا يستحون يتصدرون المجالس، والذين يتوقحون، يسيطرون عليها ولو سيطرة ظاهرة، ويضحك الناس لهم تشجيعاً.

إذاً فالحياء ضعف، كلما قل تأثيره في النفس، كان الإنسان قوياً..

هذه عقدة عصبية خطرة.

* * *

في كل ما سقناه من كلام على الحياء اضطراب واضح، فينبغي أن نستخلص حقيقة النظرة العامة إليه.

كان معنى الحياء في تربية البيت الأولى، وفي تربية الزقاق والمدرسة، أنه قوة تحاول أن تجعل الإنسان متسقاً، مؤدباً، فلا يلتهم الطعام، ولا يصرخ من الألم، ولا يسب نِدَّه أو يعابثه، ولا يضرب الكلب لأنه ضعيف. ولا يغتصب شيئاً ليس له، ولا يذهب بحريته مذهباً يزعج غيره، ومعناه أن يكبح نفسه، ويضبط قيادها، ويتعالى بها عن مواطن الرِّيب والظِنّة.

ألا يقصر في الدرس، ألا يكذب، أو يثير الأستاذ، وأن يؤمن بالفضائل.

معنى الحياء إذاً تربية وقانون..

وهو قانون معقول، ولكنه فقد العدالة، ولم يوزعها بين الكبار والصغار، فأصبح مراً..

الإنسان القديم كان يقارن ويستنتج.

فالإنسان الجديد أكثر مقارنة، وأدق استنتاجاً.. لذلك تكون عقدة العصبية أشد خطورة.

* * *

عندما ينتهي البيت من مهمته، والزقاق من مهمته، وانتهت المدرسة

من مهمتها.. صارت القيادة للتربية الاجتماعية.. للقدوة.. للممثلة.. للحوادث.. للواقع المخيف.. للعقد العصبية.

في الواقع المخيف.. كان الحياء صفة، لا تشرف صاحبها، وصفة يجب الاستغناء عنها لمن يريد أن يكون قوياً، يتمتع بمزايا حريته، ويتمتع بإعجاب الناس وتقديرهم، وكان صفة تؤخر.. ولا تقدم.

يتوقح الشاب لأن الناس يتوقحون.. ولأن الوقاحة في ما رأى وسمع واستنتج قوة، يأخذ في هذا السبيل.. ينشأ لا يعرف الرحمة بالناس. لأن الناس لا يعرفون الرحمة به، ولأنه لم يعرف الرحمة بنفسه.

وينشأ لا يعرف الجمال والاتساق والاعتدال والتوازن.. لأنه لم يكن حراً.. وينشأ منكراً للعدالة، لأنه عرف أن الحق للقوة، ولأنه كان في كل أدواره مهضوماً..

ويكون أخيراً بلا ضمير..

الفرد مرآة الأمة.. تنعكس عليها الصور العامة لها.

والأمة مرآة الفرد في أول نشأته.. وهي مثاله الذي ينشأ عليه.

إذا رأى شجاعة نشأ شجاعاً.

إذا رأى قوة نشأ قوياً.

إذا رأى فضيلة نشأ فاضلاً.

إذا رأى رحمة وصدقاً وعدالة واتساقاً، نشأ رحيماً صادقاً عادلاً متسقاً.

لكنه إذا رأى في هذه الأمة.. غير ما قرأ في المدرسة.. لم يكفه أن يكون كأخيه العامي المغلق، إنما ينقلب مجرماً خطراً سيأتيكم الحديث عنه.

يرى الفضائل تجارة وخداعاً، وزواجر ليست لها قوة القوانين المسلحة، فيتاجر، ويخدع، ولا يخاف إلا القانون..

المجرم أيضاً هكذا ـ لا يخاف إلا القانون!

القوانين لا تربي الأمم.. ولا تربي الأخلاق.. ولا تبني الحياة.

المدارس تعلم الأخلاق.. ولكنها لا تصنع رجالاً فضلاء.

العقوبات ترد الناس عن الرذائل والنقائص ظاهراً، ولكنها لا تردُّهم عنها باطناً، فهي لا تربي الأخلاق، ولا تبني الحياة.

إنما تربيها وتبنيها تربية البيت الأول، وتربية الزقاق الأولى، إذا استحالتا إلى مشاعر وعقد عصبية.. وإنما تربيها المدرسة بالقدوة الصحيحة لا الفاسدة وتربيها الحياة الاجتماعية بصداها الفاضل.

وتربية البيت مثله الصحيحة وحريته الفاضلة، لا زواجره.

وتربية الزقاق، أن يكون زقاقاً فاضلاً.

وتربية المدرسة، أن تكون عملاً وإدراكاً وممارسة، لا آلية فكرية، وقواعد وترديداً..

وتربية الحياة الاجتماعية، أن تكون أفعالاً صالحة تطابق الأقوال.

هذه كلمتنا في الحياء.. كما يعرفه الناشىء تدريجاً.

وهذه كلمتنا في الحياء.. كما يفهمه الناس.. والأطباء..

الناشىء معذور في مجافاة الحياء.. لأنه الضعف، ولأنه الشذوذ الذي عرفته عقده.

والناس معذورون في مجافاته لأنهم لا يعرفون عنه إلا ما عرفته عقدهم العصبية، وإلا ما تعرفه حياتهم العامة.. وسبيلها العوجاء.

والطب معذور لأنه يرى الحياء مظهر ضعف، باطن أو ظاهر في الجسم . .

وهكذا تتضافر على هدم هذه الفضيلة التي قادت الإنسان الأول، فطرته إليها، في معنى من معانيها وهو الرحمة.

وهكذا يفقد الميزان الذي هو جماع الفضائل الصحيحة، أولى كفتيه، فيصير الحياء ضعفاً . . وهو القوة . .

وهكذا تفقد الفضائل قوامها.

فهل هذه حقيقة الحياء؟

كلا! فالحياء قوة . . وقوة حرة في أروع المظاهر . . قوة فيها الرحمة التي هي الجمال . . وفيها العدالة التي هي الحق.

أنا إنسان مهذب ذكي، لبق، واسع الإدراك والخيال!

هل يكون نصيبي من الشهوات نصيب الرجل العاري من هذه الصفات؟ كلا!

أنا أحب فأجعل من هذا الحب دنيا تطيف بها ملايين المعاني والألوان والشهوات . . والأهواء . .

وهو يحب حباً جنسياً محدوداً . .

أنا أتمنى ألوف الأماني، وأحمل ألوف الأطماع، وتجول في رأسي غرائب الأحلام.

وهو يتمنى أن يأكل، وأن ينتهج أضيق سبل الحياة (فكراً وجسداً) هذه سعادته لأنه لا يعرف كثيراً ولا يشعر ـ الضروري عنده كل شيء . .

أنا أعرف كيف أؤثر، وأخدع، وأمثل، وأصل إلى أغراضي من السبل الآمنة، ومن السبل الخفية، التي لا تثير الشبهة . . وأعرف كيف أبتسم لمن

أبغضه بسمة الحب العميق، والصديق الخالص، لأضربه الضربة القاضية. .

وهو لا يعرف من هذا شيئاً، وإن عرف ففي أضيق الحدود وأبسطها، وأوضحها للعيان.

جرائم المتعلم الحاذق إذاً، أروع من جرائم الجاهل الساذج.

كان الناس يتحاربون بالسيوف والأجساد، صاروا يتحاربون بالغازات الخانقة تزهق الأرواح بلا عناء ويتحاربون بما يشبه السحر.

كانوا يتحاربون على سطح الأرض، صاروا يتحاربون في أعماق البحار، وفي أجواء الفضاء.

كانوا يفتتحون المدن بالقوة، صاروا يفتتحونها، ويفتتحون النفوس، والأفكار بتسميم عقائدها (بالدعاية).

كانت الحرب حرب أجساد، صارت حرب أعصاب، وعقول، وأفكار.

ليس هذا هو الفارق بين الأمس واليوم.

إنما هو الفارق بين إنسان الأمس، وإنسان اليوم.

والناس في الأمس لم يكونوا سواء. . وهم اليوم ليسوا سواء. .

أنا ذكي. أنت فطري.

أنا ذكي وعاقل. أنت ذكي فقط.

أنا ذكي وعاقل وعالم. أنت ذكي وعاقل فقط.

وهكذا!

تقدم الذكاء، والعقل والعلم. . هزم القوانين المسلحة وهزأ بها، لأنه أقوى منها.

المحاكم غاصة بقضايا الجرائم. السجون غاصة بالسجناء. دوائر

الشرطة تتصبب عرقاً في علاج الحوادث وتتبعها وضبطها.

هذه حرب طاحنة بين القوانين المسلحة، والجمعية البشرية! ولكن ما حصادها؟.. حصادها الضعيف الأقل ذكاء. الأقل علماً..

لا نرى في السجون الأذكياء، ولا العقلاء، ولا الفضلاء.. ولا العلماء ولا الوجهاء. ولا الأغنياء.

بل نرى الفقراء والضعفاء.. والأغبياء.. والجهلاء ـ دائماً. هذه نظرة غريبة ـ أيها السادة ـ (قد تضحككم ـ وهذا يسرني).

ولعلكم جميعاً تودون أن تقولوا في استنكار عنيف، هذا طبيعي معقول، فما تمتلىء السجون بعلية الناس، بل بسفلتهم.

نعم، هذا طبيعي ومعقول! ولكني لست مخطئاً.

النسيان ليس عيباً، فما يعيبكم أن تنسوا.

نسيتم أن المهذب، الذكي، اللبق، واسع الإدراك، والخيال، الذي مثلت له بنفسي.. هو مجرم أيضاً، بل هو المجرم الخطر.. لأنه أذكى، وأوسع إدراكاً وخيالاً، وأبعد مطالب ومطامع، وأحدَّ شهوات.. هو المجرم الخطر.. ولكنه قوي..

أقوى من المجرم الذي يضرب رجلاً بسكين لنزاع بسيط يقوم بينهما.. ومن المجرم الذي يأكل ويعيش.

أقوى من المجرم الذي يسكر ويترنح في الطريق على أعين الناس، وعين القانون ومن المجرم الذي يزني، ولا يحذق فن التستر، فيقع!

المجرم الضعيف الفقير، الأقل ذكاء وحذقاً، يقتنصه القانون بسهولة أو بصعوبة.

والمجرم الذكي القوي الذي يعرف كيف يضلل القانون، ولا يقتنصه القانون ـ هذه هي الحقيقة عارية مجردة!

وأظن أن الفكرة وضحت قليلاً الآن..

إن متاعب الإنسانية بأعباء الرذائل والجريمة، ليست هي المتاعب التي يسببها المجرم الساذج الغبي الذي يقتنصه القانون بسهولة أو بصعوبة، بل هي المتاعب التي يسببها المجرم الذكي المهذب اللبق، واسع الإدراك والخيال، الذي سميته أنا..

والذي لا يقتنصه القانون إلا نادراً جداً، لأنه، لا يترك وراءه أثراً.. هو عقدة العقد، وسبب متاعب الأمة التي يكون بينها، وسبب انهيار الأخلاق فيها:

بل هو الذي لا تقوم للأخلاق قائمة إلا إذا اقتنص! هو الذي يتصدر المجالس، ويقود الأفكار، ويسحر العيون، ويخدر النفوس.. وينفق المال سخياً، ويشترك في الأندية والجمعيات، ويساهم في وضع القوانين، ويكتب في الصحف، وينظم الشعر، ويعظ ويتولى تربية الناشئين، ولا يترك وراءه دائماً إلا آثار الجد والرصانة والسلوك الموزون، والسمعة الطيبة.

معنى هذا أن السجون ستمتلىء، وأن الناس كلهم إلا السذج البلهاء مجرمون هكذا تقولون في نفوسكم!

أما أنا فأقول كلا، وستقولونها بعدي!

معنى هذا أن القوانين لا تربي الأخلاق، ولا تبني الأمة.. ولا تقتنص المجرم الخطر.

إنما يربيها ويبنيها، ويقتنص مجرمها الخطر، الحياء، لأنه أقوى أو لأنه القوة..

الحياء الذي جهلناه، وأضعنا أثره، فحسبناه ضعفاً نتنكر له، وننتزعه انتزاعاً من دماء أبنائنا وناشئتنا، وهو قانون الفطرة الإنسانية، وقانون قوتها المطلقة.

الحياء الذي هو القوة والرحمة والعدالة.

اعرفوه وأصيخوا لندائه، فهو الذي يبني الحياة الفاضلة لأنه قانون ديننا.. وقانون إنسانيتنا.

هو موجود في دمائنا.. هو العقدة العصبية القوية التي ما تهزمها العقد العصبية إلا إذا تحولت إلى مسلك عام.. تؤازره الحياة الظاهرة، والحياة المستورة.

يرى المجرم الخطر الذي سميته (أنا) تاجراً ساذجاً، أو رجلاً غبياً، يمكن أن يفترسه، ويختلس ماله على عين القانون، فيستحي برده ضميره الذي هو الحياء..

يرى السرقة سهلة ميسورة من سبيل الربا الذي لا يعاقب عليه القانون إذا كان في ظاهره اتفاقاً تجارياً، أو قرضاً إحسانياً، يسجله القانون نفسه.. فيستحي.

تنازعه نفسه ألا يصوم، لا يصلي، وفي وسعه أن يفعل، لأنه يعرف كيف يتستر ويخدع الناس بالصلاة أمامهم وبالتحدث عن إيمانه، فيستحي.

يستحي أن يكون إيمانه بالناس، أكثر من إيمانه بمعبوده، وبفرائض دينه.

يرى الضعيف الجائع لا يفرض له القانون على الناس شيئاً، ولكن يفرض عليه ألا يسرق، ألا تمتد يده إلى أردية الناس، فيتألم ويستحي.

يرى أنه يتمتع بمنصب مرموق، يكون فيه وسيلة لاستغلال الضعفاء،

والعبث بحقوقهم، فيستحي ويتنحى.

يرى العامي الذي لا يعرف شيئاً في الحياة إلا سبيل طعامه، يراه إنساناً قديماً آبداً لا يحسن الكلام، ولا يحسن الفهم ولا يحذق الأساليب المهذبة، فيقول هذا ليس ذنبه، ويستحي.

يرى الشاب الناشىء الضعيف. يتعلق بأسباب العيش فتخذله، ولا من يأخذه بيده فيستحي ويرق.

يرى الغلام الهزيل، تكدح عليه أمه الفانية، أو يكدح عليه أبوه المضعوف. يراه يذهب هدراً، فيتذكر ولده المتعلم المتنعم المترف، فيستحي ويعطف.

يرى المرأة العجوز، والرجل الهرم، أقعدهما كلال السن، والحاجة. يراهما يدبان على الأرض يتلمسان العون من أبنائهما.. فيستحي.

يرى الفتاة تدفعها الحاجة القاسية دفعاً إلى حيث تساوم على قوتها بعفافها فيتذكر ابنته، أو أخته، فيستحي..

يرى اليتيم الذي يعيش بين إخوانه الآدميين، وكأنه ليس منهم، فيستحي.

يرى المرأة الغريرة يستطيع أن يضع لها حبائل الشيطان في حبائله. يراها مأخوذة به، وما بينها وبينه، إلا أن يقبل عليها بعينه، فيستحي. يرى هذه القروح الدامية في وجه أمته، فيحسها قروحاً دامية في ضميره، وقروحاً دامية في نفسه، وقروحاً دامية في عقله، فيستحي. ألا يكون رجلاً يقوده ضميره، وتقوده نفسه، ويقوده عقله إلى العمل والبر والإحسان، صامتاً.

يرى أن أمته لا تكون أمة، ما دام جسدها العام يسيل بالقروح الدامية فيستحي ألاّ يعمل شيئاً.

ويراها نكرة بين الأمم يعصف بها الضعف والجهل، وما هو شر من الضعف والجهل، فتثور به نفسه تطلب لها العلم والقوة والعلو والتمكين.. ويستحي.

يرى أن ثروته ليست من صنع يده، بل من صنع الله الذي أعانه وجعله عضواً حياً في جسم أمته، ويراها من صنع هذه الأمة، ومن صميم متاعب أبنائها وكدحهم، ومن صميم حياتهم الجاهدة، ويرى أنه حجر في هذا البنيان الذي لا يكون قائماً إلا بأن يشد بعضه بعضاً فيستحي أن يقول «ثروتي ـ حقي» ويستحي ألا يفعل شيئاً للأمة التي كونته وكونت حقه.

يستحي أن يكون التراب أعدل وأرحم منه.

يستحي أن يكون التراب رحيماً يريح الفقير، والجائع ويضم العاري والمنكوب والضعيف، وعادلاً يساوي بين عيال الله فقيرهم وغنيهم، وضعيفهم وقويهم. ألا يكون هو رحيماً عادلاً.

يستحي أن يرى المرأة، أو يرى الرجل، يغالب كلاهما الحاجة، ويتعفف، ويتحمل الصبر، فلا تبضُّ له بقطرة حتى يقول، أو حتى يسأل، أو حتى يشكو أو حتى يصرخ، أو حتى يسقط إعياء.. يستحي ألا يسمع ضميره إلا الأهوال وألا يرى قلبه إلا الدم.

هذا هو القانون الذي يقتنص المجرم الخطر.. ويجعله رجلاً.. وفاضلاً..

وهو القانون الذي يقفل السجون، ويخفف عن الأمة أعباءها، ويطلق سراح الأغنياء، والجهلاء، والضعفاء، والفقراء (المجرمين المساكين الذين يقتنصهم القانون بسهولة).

هذا هو الحياء.. الذي هو القوة.

افتحوا عليكم بصائركم، تفتحوها على القوة التي هي من قوة الله.. من قوة شريعته.. ومن قوة فطرته.

ومن قوة الأنانية الفاضلة، ومن قوة الضمير الذي هو النفس اللوّامة، التي أقسم الله بها في كتابه..

هذا هو الحياء الذي تنطوي فيه الرحمة، وتنطوي فيه العدالة..

هذه هي القوة التي لم تكن رسالة الدين الإسلامي إلا محاولة، حكيمة جادة لتربيتها في نفوس المسلمين.

أرادتها تربية، ولم تردها فرضاً.

كانت في حياة محمد ﷺ، تضحية صادقة إلى آخر حدود طاقة النفس الإنسانية واحتمالها.

كانت حياء يدفع الناس ألا ينهزموا في مواطن الجهاد.. أمام الكثرة، وأمام الموت المحقق.

كانت حياء لا يترك، الغني يأكل، حتى يشبع الضعيف.

وكانت مثلاً أعلى. تضر به قطعة من لحم، كما تضر به قافلة ضخمة يجلبها عثمان للتجارة، فينفقها للحياء..

قطعة من لحم تطوف على بيوت الأنصار والمهاجرين مطافها الطويل حتى تعود إلى مهدها الأول.. وكانت مثلاً تضر به شربة ماء يدفعها جريح يعالج سكرات الموت، يستحي أن يشرب وهو يسمع أنين أخيه الجريح فيقول حياؤه، ربما كان أحوج إليها مني، فتدور فيدفعها جريح إلى جريح حتى تعود إلى دافعها فإذا هو قد مات.. وإذا هم قد ماتوا..

هذا ما أراده القرآن.. فكان.. وما يريد القرآن مستخيلاً.. إنما يريد الممكن. وهذا هو الحياء الذي تنطوي فيه الرحمة بجمالها المطلق؛

وتنطوي فيه العدالة بحقها المطلق، لأنه القوة المطلقة.

القانون الذي تحول في دمائنا إلى زواجر لاشعورية، وإلى مشاعر مغلفة، وإلى عقد عصبية سامية، مات مفهومها، وبقيت قوة لكنها غامضة مبهمة، وقانوناً لكنه أعمى، ومبدأ لكنه منكور.!

تجري به كلمة «استح» غامضة مبهمة، متحيرة، ضالة، لا تعرف سبيلها القويم تارة تصيبه وتارات تخطئه. في البيت، في الزقاق، في المدرسة، وعلى لسان الأب والأم، والأخ والأخت، والرفيق، والأستاذ، والرجل العابر!

وعلى لسان البنت الخفرة التي ما تحس عرفاً ولا نكراً، تقولها بدمها الطافر إلى وجهها المحتقن، حمرة قانية تفاجىء طبيعتها، بشيء تنكره طبيعتها ـ استحي.

ألا ما أحبها كلمة، ولو كانت غريبة بيننا، ولو كانت مجهولة، ولو كانت مجفوة، ولو كانت بلا مدلول.. أو كان مدلولها حائراً ما يهتدي..

هي بقية تراثنا، وقوتنا، الذي ما فقدناه في دمائنا بعد أن فقدنا كل شيء.

ذخيرتنا فاعرفوها.. اعرفوها.. ولو لم تعملوا بها.. ورددوها..

فالمعرفة أساس الإيمان..

والتكرار وسيلة الإقناع..

اجعلوها في البيت قوة تعرف سبيلها.

وفي المدرسة معرفة لا زجراً.

وفي الحياة مبدأ وعقيدة وسلاحاً.. لا لعبة..

أيها الخطيب الذي يضلل الضمائر، ويقول ما لا يعتقد ـ استح

أيها المتحدث الذي يخدع أخاه، بما يضمر ضده ـ استح

أيها البائع الذي يروج سلعته، بالزيف والتمويه ـ استح

أيها الكاتب الذي يئد الحق والجمال والقوة ليظهر ـ استح

أيها الشاعر الذي يصنع الكذب والباطل والملق في شعره، فيسجل به عاراً على أمته ـ استح

أيها الفاضل الذي يتاجر بفضيلته.. ليقيد بها مالاً وسمعة وجاهاً ـ استح

أيها الكريم الذي يقيم المآدب، ينفق عليها المئات، في مآتم أمته ـ استح

أيها المتعلم الذي يحتقر الأمي والعامي. ليس هذا ذنبهما ـ فاستح

أيها المتكبر الذي يتنكر للضعف والفقر، ويبصبص للقوة والنفوذ ـ استح

أيها الشاب الذي يمتهن الشيوخ.. كان الإنسان القديم يحترمهم ـ فاستح

أيها الطبيب الذي يعرف لغة المال والجاه، ولا يعرف لغة الحياء والضمير ـ استح

أيها الوطني الكاذب الذي يتنكب سبل الجهاد، ويروغ من التضحية الصادقة، فيجعلها فلسفة تتعلق بالممكن، وغير الممكن ـ استحِ.

أيها الوطني الصادق، إن أعجزك الجهاد لأنك ضعيف، أو لأنك فقير، فجهادك أن تأخذ بيد الضعيف تواسيه، وبيد الحائر تهديه، وبيد المصاب تعزيه، وبيد الجاهل تعرفه ما يجهل، وبيد العاثر تنهضه.. وجهادك أن تنفخ في الضمائر حتى تحيا.. فإذا ابتليت بما يبتلى به المجاهد المضعوف، من سخر يلذعك، أو غمزة تجرح كرامة نفسك، فقام في رأسك أن هذا واجب الجميع، لا واجبك وحدك ـ استحِ.

أيها الرجل الذي لا يرى في المرأة إلا الجسد هي الأم التي تلد الحياء.. والرحمة.. والعدالة.. والأم التي تلد الرجال، لو اصطنعت على ما يهيئها لهذا ـ فاستحِ.

أيها الأب الذي يكفيه من حبه لابنه أن يبنيه ليعيش لا ليحيا وأن يبنيه لنفسه ولأسرته، ولا يبنيه للخير ولأمته ـ استحِ.

أيها الشاب الذي يتطرى ويذوب حتى يفقد رجولته، اللغد نعت الإناث استحِ.

أيها الأديب الذي يظن أن ما وهبه الله من إدراك ويقظة، حقه لا حق الأمة عليه، ولا أمانتها عنده. الأدب نصيبك من الجهاد فاصدع به، وتصبب عرقاً، للأمة التي ما بلغت بك الرشد على ضعفها، حتى تصببت عرقاً، كن لنفسك قليلاً.. ولها كثيراً.. واستحِ.

أيها الرجل الذي يسمم عقائد الناشئين وأفكارهم بأفعاله، وأقواله، هذا عماد قوة الأمة في مستقبلها ـ فاستحِ.

أيها الوطني، أنت رجل لا ينسى قضية نفسه وأسرته، فلا تنسَ قضية أمتك ووطنك. اشتغل بها في نفسك، حتى تكون عقدة عصبية، يرثها ابنك وبنتك ـ فإذا كانا صغيرين، ولقيا رجلاً يضحك في مأتم أمته، طفر الدم إلى وجناتهما حمرة قانية، وصرخا به ـ استحِ.

أيها الوطني لا تحقد على الضعيف إذا كنت قوياً، ولا تحقد على الضعيف إذا كنت ضعيفاً. هو في الأولى دونك، وفي الثانية ندك.. أنتما قوة فحذار أن تضيع بالانقسام.. كان ابنك الصغير، يضرب الكلب الصغير، فتقول له استحِ.

وكان يضرب نده، فتقول له استحِ.. فاستح أنت من ضعيف يكون

دونك، ومن ضعيف يكون مثلك.. واحقد ما استطعت على القوي المتكبر، وعلى القوي الظالم.. احقد حتى تكون قوياً فاضلاً، يأخذ حقه فيعدل، أو يأخذ حقه فيرحم.

أيها الوطني.. المسلمون أمناء بعض.. بنتي وابني أمانة في يدك وبنتك وابنك أمانة في يدي، فافعل بأمانتي ما تريد أن أفعل بأمانتك.

وأيها الوطني الذي ليست له أمانة.. لا تكن مجرماً..

إن كنت عقيماً ففي الأمة يتامى.. فيها بنات يفسدن.. وأولاد يفسدون. يفسدهم الفقر والضعف، وتصلحهم التربية والإحسان. التبني سنة نبيك، فاجعله فرض حيائك..

وإن كنتَ أعزب، فما أقول لك تزوج، فإني أعرف أن الزواج امتحان عنيف للضمير وللرجولة وللطاقة. امتحان قد لا تستطيع احتماله قوتك.. لأن الناس جعلوه تجارة فما أقول لك تزوج ولكني أقول لك استحِ.

إن كنت مريضاً مرضاً معدياً.. فلا تتزوج، ولا تكن مجرماً.. واستحِ.

إن كنت بحاجة إلى خادم، ولست بحاجة إلى زوجة فاستحِ.

إن كنت لا تعرف في المرأة إلا لغة جسدها، ولغة شهوتك فاستحِ.

إن كنت لا تستطيع أن تعول زوجتك وتربي ولدك، وتؤدي به أمانة أمتك وأمانة وطنك فاستحِ.

أيها الأب.. أيها الأخ.. أيها الوالي!

إن كنت لا تريد لفتاتك إلا الفتى ولو لم يكن رجلاً.. فاستحِ.

إن كنت تبيعها لمن يدفع الثمن الذي تحدده فوراً، ويحقق الشرائط التي تفرضها.. ولو كان مريضاً.. ولو كان طاعناً في السن.. فاستحِ.

إذا تقدم إليك الرجل.. ووقع في نفسك أنه الرجل، فادفعها إليه دفعاً. لا تضع في سبيله عراقيل المهر الضخم، والمآدب الفخمة، والنفقة المسرفة دع ما في يده، يستعن به على حياته، وحياة فتاتك وأعنهما ما استطعت.

المهر للتحليل، فلا تجعلوه تهويلاً.. إن الله يكره الإسراف.. ويكره الغلو.. والشيطان هذه فخاخه.. يصطاد بها بناتنا وأبناءنا.. الزواج ضرورة الحياة.. وفريضة الدين.. فرائض الله، تؤدى على التراب، وينوب فيها شيء عن شيء، ينوب فيها الصعيد عن الماء.. والإيماء عن الأداء.. وتقوم فيها النية الطيبة مقام العمل الصالح..

هذه فرائض الله لا غلو فيها..

فلماذا نجعل الزواج تجارة.. تتم بها الغلبة علينا للشيطان..

أيها الأب، أيها الأخ، أيها الولي، إذا كنت على شيء مما تتم به الغلبة للشيطان.. فاستغفر الله واستحِ..

أيها الوطني الذي تدمع عيناه للعظة لا يدمع لها ضميره ـ استحِ.

أيها الوطني الذي يدمع للعظة ضميره، ولا يفعل شيئاً.. استحِ.

أيها الوطني الذي لا يفرق بين كلمة الحق يرسلها الضمير ناراً، وكلمة الحق يرسلها اللسان لهواً استحِ.

أيها الوطني الذي يسمع بأذنه، ويرى بعينه، ولا يسمع بضميره، ويرى بحيائه ـ استحِ.

أيها الوطني إذا هممت أن تؤذي ضعيفاً خرق قانونك، أو قصر.. فاذكر من يعول.. واذكر أن الفقر يعلم الناس العثار.. استح!

أيتها المدرسة التي تدفع إلى الحياة شباباً حائراً لا يعرف سبيله في الحياة ـ استحي.

أيتها المدرسة التي تخرج متعلمين، لا مؤمنين، وقوالين، لا فعالين، وتخرج ذكاء، ولا تخرج حياء، وتخرج أجساداً، ولا تخرج رجولة وقوة وطنية ـ استحي.

وأيتها الأمة التي لا تبني مدرسة تصنع الرجال الأقوياء يقيمون مجد الوطن ـ استحي.

وأيها المتعلم المترفع عن غشيان معترك الحياة، كما يغشاه الأمي والعامي، يعمل كلاهما بنفسه، وبيده، وبجسمه، العمل شرف وقوة ورجولة فاستحِ.

ما نظننا الآن وقد طال بنا الحديث، بحاجة إلى تحليل الرحمة والعدالة.. بعد تحليلنا الحياء الذي هو القوة.

الحياء والرحمة والعدالة، تنطوي معانيها في معانيها فتكون المعنى الأسمى، كما تنطوي أجزاء الجمال في أجزائه، فتكون الجمال.

ونجمل لكم القول في معنى الحياء.. الذي هو القوة.. والذي هو قوام الفضائل..

معنى الحياء في الرجل أنه الرجل الذي لا يقتنصه القانون، ولا تقتنصه القوة ولكن يقتنصه ضميره ويغلبه حياؤه..

ومعناه في المرأة أنها المرأة تهزم الشيطان، وتطرد المجرم الخطر، وتجعل من جسدها حرماً لا يتدنس وفيها حياة.. ما دامت لها طاقة!

فإن كانت جاهلة، أو محتاجة، أو ضعيفة، فذلك ذنب الأمة التي لا يكون فيها رجال ـ وإن كانت طائشة، بها مس من طبيعة الشيطان فيها، فذلك ذنب الرجل الذي يراها جسداً.. فتنقلب به حيواناً بقرنين.. وبنفسها حيوان لا يستحي.

فليكن الحياء، شعار الضمائر في هذه الأمة، وشعار حياتنا، وشعار الفضائل فيها..

وليكن أساس تربية المنزل والزقاق، والمدرسة والحياة..

عودوا الآن إلى كلمة الأستاذ العقاد (ليس بحي الضمير من لا يسمع صوت ضميره مرة) واجعلوها: ليس رجلاً ذا ضمير، من لا يسمع صوت حيائه دائماً.

قال محمد ﷺ: الحياء والإيمان مقرونان فإذا سلب أحدهما تبعه الآخر. وقال: لكل دين خلق. وخلق الإسلام الحياء. وقال: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

خاطبنا الضمائر والنفوس هذا الخطاب الشعري الذي نرجو أن يكون مؤثراً وأن يكون تفصيلاً لنظرتنا إلى الحياء، وعلينا الآن أن نسأل كيف نستفيد من هذه القوة المذخورة في دمائنا، وكيف نجعلها أساساً نبني عليه تربيتنا الفاضلة؟

وهذا في الواقع لبُّ الحديث وخلاصته، والنقطة التي يجب أن تبقى مداراً لجهاد أقلام قوية من أدبائنا وشعرائنا، ومثاراً للتوليد، والقول، والتفكير الدائم.

وقد طال القول، وهذا ما يدفعنا إلى اقتضابه حتى تحين فرصة لدراسات خاصة، تعطي حكم الاستقلال والتفرغ.

لا تحيا أمة إلا بالتربية الصالحة، وما نراه من الفروق بين الأمم الناهضة إنما مردّه تفاوت أساليبها في التربية.

وقد تماثل أمة أمة في قوتها الظاهرة، ولكن الغلبة تكون دائماً لأقواهما خلقاً.

وتفوّق السياسة الإنجليزية ليس مردّه القوة الحربية، ولا امتياز الذكاء والإدراك، ولا قوة النفوذ، وامتداد السلطة وارتفاع ميزان الثروة، لأن هذه النتائج ضمنتها قوة الخلق في الفرد الإنكليزي.

ولقد كانت فرنسا، وما تزال أقوى ذهنية، وأحد شعوراً، ولكن اتجاه المزاج الإفرنسي، كنتيجة لأسلوب التربية الغالب في فرنسا جعل الفرنسي، دون الإنجليزي، في متانة الخلق، وصدق الاتجاه، وقوة العزيمة، وضبط النفس.

والإجماع عام على أن أية نهضة لا تقوم على قوة خلقية في أمة، إنما تكون نهضة مقضياً عليها بالانهيار والتحير..

واتجاه الأمم في إطلاق الحرية لتربية الطفل، واتخاذها سياسة لا تنزل المنزلة الثانية من سياسة الشعب العامة، دليل على صحة هذا القول.

فإذا قصد الأهل دور السينما، والمتنزهات لم يحرموه هذا الحق، وإذا كانوا يمارسون ألواناً من اللهو البريء، لم يحجروا عليه ممارستها، وإذا كان يلقنونه الرحمة والعدالة والاتساق والأدب، كانوا في كل تصرفاتهم أمامه رحماء عادلين، متسقين، مؤدبين، وإذا أطلقوا لأنفسهم عنان الحرية في شيء لم يمنعوه أن يأتيه.

فالطفل جزء من المجتمع الصغير في بيته، ومن المجتمع الكبير في مدرسته، فهو لا يشعر أنه صغير، أو ضعيف، أو مقيد الحرية أو مهضوم.

وخطؤه فرصة تنتهز للتفاهم معه، والنصيحة له، وإرشاده، لا لزجره وازدرائه وكبته، والتربية في المدارس في أكثر مراحلها، توجيه وليست قيادة وتحتيماً. والمدارس تفرح بالطفل الشاذ، لأنها تعرف أنه سيكون رجلاً من نمط خاص، فهي تعنى بتهذيب هذا الشذوذ فيه وتوجيهه، ولا تقاومه أو تقسره.

وإذا كان وجود الكبير بين الصغار تقييداً لهم، وحجراً على حريتهم، فإن وجود الطفل بين أهله، حري بأن يكون تقييداً لهم، يحملهم على أن يسلكوا أحسن السلوك وأدقه، مراعاة لما يجب أن تقع عليه عينه من صور الكمال والجمال.

فلو قلنا للطفل عندما يضرب كلباً، استح، وشرحنا له أن الكلب ضعيف لا يستطيع الشكوى، ولا الدفاع عن نفسه، وأنه وديع ولا يؤذي، وتظاهرنا بالحزن والرثاء على هذا الكلب، وأوجبنا على الطفل أن يقدم له ترضية من طعام، واتجهنا هذا الاتجاه في كل ما يشبه هذه الحادثة، لكانت عقدة الطفل العصبية، عقدة نبيلة، تجعله يشعر بالقوة وبقانون حريتها.

نحن نخطىء كثيراً عندما نظن أن الأطفال في سني حياتهم الأولى لا يعرفون، ولا يدركون.

إني أعتقد أن أحسن مبادىء التربية، وأسوأها، لا ترسخ في دم الطفل ووجدانه وعقله الباطن، بقدر ما ترسخ في العشرة الأولى من تاريخ نشأته.

وإذا كنا نعرف خطر تسميم عقل الشاب، بالمعلومات والمبادىء الفاسدة في الخامسة عشرة، أو العشرين من عمره، فيجب أن تكون أكثر تقديراً، لما يسمم دمه، ويكون عقده العصبية في طور مراهقته الفكرية.

والملوك والزعماء، عندما يريدون تنشئة أبنائهم على أخلاق وميول خاصة، يطلقون لهم حرياتهم، ويحيطونهم بما يطبع نفوسهم وأفكارهم على ما يراد إعداده له من حياة وتقاليد.

فالذي يراد له أن يكون كريماً يجعلون له بيتاً، وحاشية تأتمر بأمره وخيولاً مطهمة.. وقصاداً، ومآدب ـ ويكون هو في أثناء هذه الحياة جاهلاً معانيها كل الجهل، في الظاهر، ولكن دمه ينطبع عليها بالإيحاء والممارسة.

والذين يريدون الخيول على أن تحذق أساليب خاصة من السير والحركة والنشاط الظاهر والفراهة، يأخذونها بأنواع التدريب والتمرين، ويبذلون في هذا من الجهد، ودوام الملاحظة والعناية كثيراً، ويرسخون فيها كلمات، ونداءات خاصة، وإشارات، تتأثر بها مع طول التجربة، وهذا يكون عندهم ضرورياً لضمان هذا المطلب.

ومن الغريب حقاً أن يهمل الطفل، ويكبت، ويعامل كما يعامل حيوان مغلق لا يحس ولا يدرك، فإذا كانت بعض الحيوانات، تستفزها كلمات وإرشادات، عودت على الاستجابة لها، فكيف يهمل الطفل الذي يراد له أن يكون رجلاً مؤدباً قوياً حراً، يضطلع بمسؤوليات بيته، ووطنه في المستقبل؟

إننا نرى صلات الأمهات والآباء في الأمم الراقية، بأبنائهم، صلات ودية عميقة، تشبه أن تكون صداقة وارتباطاً في معظم أدوار النشأة، ونراها عندنا صلات تشملها القسوة والجمود والإهمال والفوضى، على اعتبار أنها تربية وحدود تقتضيها فوارق السن والإدراك، والمقام.

فإذا ترك الطفل لنفسه، شعر بغربته في هذا المحيط، وتعلق بالزقاق أو بالخدم، فنشأ نشأة شاذة مضطربة، تكون شر أساس لحياته المدرسية، فإذا كانت هذه مضطربة شاذة خرج إلى معترك الحياة، حيواناً له مظهر الإنسان..

حدثني صديق كان يتلقى الطيران على يد أستاذ إنجليزي، قال كان الإنجليزي يشرح كيفية استعمال البراشوت (مظلة النجاة) قائلاً:

عندما تفشل في ضبط طيارتك وهي هابطة، تلقي بنفسك في الهواء، وتحل في اتزان، أربطة المظلة، فلا تلبث أن تمتلىء بالهواء، وتقلك، فبادرته سائلاً.. وإذا فشلت المظلة، فأخذ الإنجليزي بغرابة هذا السؤال، وقال بلا روية، وبلهجة عنيفة.. يستحيل أن تفشل.. إنها مصنوعة في

إنجلترا، فهذه عقدة عصبية لهذا الإنجليزي، تعطينا فكرة واضحة عن تشبع نفسه، ودمه، بعظمة مصنوعات إنجلترا، ودقتها، واستحالة احتال فشلها، في أداء مهماتها، ولو كانت فكرة واضحة لوسعه أن يتصور أن في الدنيا مظلات غير إنجليزية يحتمل أن تفشل.. إذا كان الفشل لمظلات إنجلترا مستحيلاً!

هي نادرة يصح أن تكون دليلاً على جمود طبع الإنجليزي، وضيق مدى فكره، ولكنها استجابة خاطفة، تشير إلى إحكام العقد العصبية الأولى أيضاً..

لا يستحيل أيها السادة أن يعرف الطفل من حياته المنزلية، قوانين العدالة، والرجولة، والحرية، والوطنية، والجمال، والعواطف، والجندية، والموسيقى، والرياضة، والاتساق، والكرم، والشجاعة، والرحمة.. متى عرفنا كيف تستغل قوة الحياء فيه هذه القوة التي نفسد بها حريته، ونبلبل اتجاهاته، ونكبت بها نزعاته المتطلعة، وتقضي على نشاطه المأمول، بدل أن نجعلها قانون القوة فيه، وقانون الحس والشعور والغيرة، وتربية الضمير.

مع أن الإنجليز اليوم يضربون أعلى المثل في نظام تربيتهم المدرسية، فإنهم قليلو الثقة بهذه المدارس، فهم لا يدفعون إليها الطفل إلا بعد أن يطبعوا نفسه بطابع الرجولة، ووثائق الخلق، ويقيموا عليه من ضميره وتقاليده الراسخة في دمه حارساً يقظاً قوياً.

وقد أصبح كل باحث في التربية تقريباً، يعتقد أنه لا شيء يعادل في الأهمية السنين الأولى من حياة الطفل، فهي التي تكون مركز القيادة الوجدانية والجسدية والفكرية فيه، ويعتقد بعض علماء النفس، أن الطفل في نهاية سنته الثانية، يكون قد أتم شكل قالبه المستقبل، فلو توسعنا قليلاً بهذه

النظرية إلى حد الرابعة، فما هي طائلة العقاب المعنوي الذي تتعرض له أسرة لا تعرف إلا أن الطفل في الرابعة أشبه بحيوان لا يعي ما حوله؟

ولم تلتقط هذه الصور الحساسة مما يدور حولها؟ وكم تفعل سيطرة الآباء والأمهات، في القضاء على القوة الطبيعية في الطفل، بهذه الحيرة العمياء لا تعرف سبيلها.

إذا كان الأطباء يعدون من المسائل الكبيرة الخطر في حياة الطفل الجسدية، مسائل التهوية، والبكاء، والغذاء والنوم، والملابس، والأمراض المعدية، فإننا نرى أنها تقل خطراً عن مسائل صحة العقل، والعقد العصبية، والعادات الوجدانية.

إننا نرى أمماً لم يمنعها فقدان النظام الصحي من تكوين حضارتها، ولكننا لا نرى أمة تفقد التربية النفسية والفكرية، بقديرة على أن تقيم حضارة تسلكها في عداد الأحياء الحقيقيين. ومن سوء الحظ أن مدارسنا ـ على ندرتها ـ لا تزال تتبع الطرق القائمة على الكبت والقمع، وسوء استغلال قوى الطلبة وتبديدها، إما بسوء أساليب الدراسة، أو بدراسة مطولات تثقل الذاكرة، وتشوش الفكر، أو بتدريس مناهج أجنبية، لم تُبن على طاقة الطالب عندنا، ولم ينظر فيها إلى المقومات الذهنية والنفسية التي يجب أن تكون شخصيتنا الخاصة كأمة مستقلة.

إن العيوب التي تتخبط فيها مدارسنا يرجع معظمها إلى جهل أساتذتها علم التربية، وإلى عدم وجود قيادة خبيرة تبني مطالب التربية وفروضها على دراسة دقيقة عامة لطاقة الفكر والذكاء، ومقوماتها الذهنية، والنفسية، وإن كانت الحركة التعليمية الأخيرة تعد ثورة بالنسبة إلى الماضي.

ولو استقصينا هذه العيوب لما رأينا إزاءها حسنة واحدة.

وحسبنا دليلاً على هذا، أن الدراسة عندنا لا تزال قائمة على حشو الذهن بالمعلومات والقواعد، وعلى إرهاق طاقة الطالب، وكبت نزعاته النفسية والوجدانية..

وها نحن نرى آثار هذه العيوب، في انمحاء آثار الشخصية من جميع مَنْ تخرجهم المدارس وفي كلال أذهانهم وأعصابهم، وفتور حيويتهم الفكرية، فلا نكاد نجد أثراً لنشاط الفتوة في نفوس أبنائنا.

فالغلام عندنا مطبوع بطابع الكهل، والشاب مطبوع بطابع الشيخ الهرم.

إننا نرى آثار القمع ظاهرة في ما يلوح على أبنائنا من أعراض الحكمة والفلسفة الخامدة، فالشاب قصير النظر، فاتر الطموح، لا يتطلع إلى غير أن ينال عيشه، ويتجنب ميادين النشاط والحرية والاستقلال.

إن مسألة اختيار الأستاذ والمربي، لم تعد من المسائل الثانوية بالنسبة للتربية العامة، وإذا كانت طبيعة حياتنا قد أفقدتنا الأب والأم الرشيدين، فلا أقل من أن تعوضنا التربية المدرسية أساتذة يقودوننا بحكمة وخبرة، ليعدلوا ما فينا من اعوجاج.

يقول الأستاذ الألماني ليبنتز «سلمني قياد التربية، وأنا ضمين لك أن أغير وجه أوروبا قبل قرن واحد من الزمن».

فمن الخطأ أن تعطى مقادة التربية العامة، لأناس لا همّ لهم إلاّ تلاوة المقررات المطولة والمقررات الجامدة ليعيدها الطالب حفظاً وتسميعاً.

إن سياسة التربية يجب أن تنزل المنزلة الأولى، من حياة الأمة التي يراد لها التقدم، وتبتغي لها الحياة.

عندما أرادت انجلترا تكوين فكرة صحيحة عن المبادئ المثلى للتعليم

والتربية، أسندت هذا العمل إلى أكفأ رجالها، من ساسة، وأدباء، ونقاد، وفلاسفة، وعلماء، ورياضيين، وفنانين، وصناع وكانت النتيجة أن يقدم لها القرار في عشرين مجلداً ضخماً..

ففي أي عدد من الأوراق يوضع القرار الذي تستند عليه التربية المدرسية عندنا؟ لهذه الأمة؟ وفي يد أية جماعة توضع دفة التربية العامة لهذه الأمة..؟

أليس من العار أن تكون مدارسنا، معامل تفريخ، كل غايتها أن تدفع عدداً من حملة الشهادات، لا يعرفون فناً تجريبياً، ولا علماً عملياً، ولا صناعات يدوية، تفتح في الحياة ميادين نشاط جديدة، غير ميدان «الوظيفة، والمكتب والديوان».

أليس من العار أن ينال الكتاب المدرسي من عناية القائمين بقيادة التربية، ما لا ينال عشره الطالب، وذكاؤه، وأعصابه وطاقته، وسلوكه، ونفسياته واتجاهاته الطبيعية، وحريته.. ومستقبله؟..

أليس من الخطأ القاتل.. ألا يعبأ قادة التربية بتغيير القوالب والأوضاع بعد أن تغير، وتغيرت مطالبه، وبعد أن كشفت الفنون، والعلوم، والبحوث، والتجاريب الدقيقة عن نفس الناشئ، وعينت الاتجاهات التعليمية التي تجعله رجلاً وإنساناً عظيماً، وفعالاً، وقوة..؟

مما يدعو إلى الأسف حقاً أن الباحث في الفضائل والرذائل لا يتاح له الوصول إلى حقيقة قيمتها في الواقع إلا متى طالع الناس بهذه الصور الشاحبة المرعبة، كأنما همه أن يعرض شر ما في الحياة.

على أن غاية المفكر والأديب، يجب أن تكون دعوة إلى اكتشاف مسرات الحياة ومحاسنها، لأن النظرة السلبية إلى الحياة، دليل الفتور وضيق مدى الخيال.

فإذا آنس الناس منا هذا التجهم للفضائل، فليعلموا أنه ليس تجهم الكفران والإباحة والإطلاق، إنما هو تجهم الشعور بالخيبة والإخفاق، وتجهم من لا يرى بدأ من الاعتراف باختلال المعتقدات التي تقود حياة الأمة والناشئين في طريق غير طريق الحياة المثلى.

إن كثيراً من مفكري الغرب وقادة الفكر فيه، يفرقون من اختلال التوازن بين قوانين الأخلاق والفضائل التي كانت خلاصة جهاد العقول، في تاريخ الإنسانية الطويل، وبين سير الحياة العام، ويهولهم هذا التنافر الظاهر بينهما. ويدركون أن التربية المدرسية السامية تذهب ضحيته، ويعرفون أن النظرة العامة إلى الفضائل لم يبق لها من القوة والتماسك، ما يدع مجالاً للأمل في مستقبلها.

ولكنهم لا يعرفون طريقة لعلاج هذه الحالة إلا طريقة الوعظ، والإنحاء باللوم والتقريع، على من يكشفون الستار عن حقائق هذه الفضائل التي تتعبد بها الأفكار هذا التعبد الشعري الفاتر.

ونعتقد أن علماء التربية البدنية وقادتها، أفادوا الفضائل أضعاف ما أفادها هؤلاء الخطباء الذين ينتهزون الفرص لإلقاء الكلمات الغامضة المطلقة الشعرية عن أحلامهم بالفضيلة، والتشريح والتشخيص، كانا دعوة موفقة إلى بث روح العفة، والاعتدال في الناس، ولما يكتب النجاح للمواعظ والتعليم والزواجر.

هناك طريقة لتربية القوة، وتربية الفضائل ظهر نجاحها للعيون، هي طريقة الصراحة والتجريد، والتربية القائمة على العمل والممارسة، لا على العظة وإثقال الذاكرة وطحنها، وإذا صعب علينا أن نخضع الناس لسلطان ألفاظ لم يبق لمدلولاتها صدى في حياتهم العامة، فإن الصراحة والاعتراف

هما سبيل إعداد النفوس للإصغاء إلى أصوات الضمير والمصلحة.

لم يعد من مصلحة الحياة أن تكون النظرة إليها نظرة ارتياب وقلق ومن الحماقة أن ينزل النواح منزلة الإصلاح والجد والقوة.

فمن لا يرى أن التسليم بواقع الحياة، والتقدم لمجابهة قوانينها الصارمة، وحقائقها العارية، أمر لا بد منه لناشئة بلاد يراد لها الحياة..؟

فالتكتم والتستر على خلل بعض القواعد السائدة، والحقائق والتقاليد الموروثة وضعفها، جريمة لا يغتفرها العقل الطامع، لأنها تجر إلى الفشل والحيرة والفناء.

وليس لنا أن نفرق من مواجهة الحقائق، فمن المتوقع أن يكون مستقبل كثير من الحقائق الراسخة، والتقاليد المتحجرة والأوضاع المتصلبة، قاضياً عليها بالزوال.

ولا خسران في هذا للحياة، ولا بوار لخير ما فيها، فهذه نواميسها، أن على من يريد البقاء والنجاح أن يتذرع بالقوة، وأن ينظر إلى الحياة بعينين يقظتين، لا تراودهما الأحلام الفاتنة.

وقد كشف الطب عن أمراض مغلغلة مستعصية، في بعض الأمم، والأسر، والجماعات، والأفراد، كان التستر سبب استفحالها.

فإذا وقفت التربية المدرسية ووقفت قيادة الفكر عندنا، موقف التستر والمداورة والجبن، في مواجهة الحقائق وواقع الحياة، انتهت بنا أمراضنا النفسية والفكرية إلى اضمحلال محقق.

هذه لمحة سريعة نقيم بها المثال والمقياس فقط، ومجال الحديث فيها بعد، ما يزال واسعاً جداً.

عرفنا مما تقدم، الفضائل وجماعها، وقوامها فما عماده الذي ينهض بأعباء رسالتها، والذي يكون سلاحها وحامل لوائها؟

إنه الرجولة، ولذلك اخترنا أن يكون عنوان هذا الحديث «الرجولة عماد الخلق الفاضل» ولذلك سيكون خاتمة حديثنا، تحليلنا للرجولة.

إن الرجولة كالجمال قانونها فيها، ولذلك كانت أساس نشأة الفضائل في الأطوار الأولى التي تحدثنا إليكم عنها طويلاً.

ونحن لم نر في ما أسلفناه من دراسة وتحليل وفرض (بعد الغرائز الأصلية، وقوانين ضروراتها) أساساً لنشأة الفضائل، أو نشأة القوانين الأدبية التي نسميها فضائل إلا الرجولة التي كانت رمز القوة، والشعور بمحاسنها والميل إلى اتباعها وتقليدها.

فالقوة الجسدية بعد أن أدت رسالتها دفاعاً ومقاومة واكتساباً، وتمهيداً وبناءً وتقريراً للذات، نزعت أو انقادت انقياداً طبيعياً إلى إقامة حدود ساذجة لقوانين أدبية، كانت أشبه بفرائض اختيارية تشد من أزر الجماعة، وتجعل مدى القوة، أوسع، وأرحب غير شاعرة بأنها فضائل تتصل بدخائل النفس لوضوح اتصالها بأسباب حياتها الظاهرة.

لا نريد بهذا التمهيد أن نعتبر الرجولة فضيلة، أو قواماً لها، لأننا قد انتهينا إلى أن الحياة قوام الفضيلة، وإلى أن الرجولة عمادها، الناهض برسالتها، لكنا نريد امتحان هذا الرأي لنعرف نصيبه من القوة والصحة.

قد يكون الإنسان فاضلاً ونصيبه من حرية الفكر نصيب منقوص، ويكون فاضلاً، ونصيبه من الغيرة على الحق والجهاد له، نصيب عادي، ويكون فاضلاً بالقناعة، والعفة، والأمانة، والصدق، والجود.

لكن الرجل لا يكون تام الرجولة إلا متى أخذته نفسه أخذاً صارماً

بفضائل طبعه، وأخلاقه، وإيمانه الصارم، وهذا قانونه..

فإذا لم يكن عفيفاً كان مستحياً، وإذا لم يكن شفوقاً كان حليماً وإذا لم يكن إيثارياً كان محسناً، وإذا لم يكن قنوعاً، كان شهماً، أنوفاً، وإذا لم يكن رحيماً كان عادلاً..

وقد حللنا إعجابنا بالفضائل وقلنا إنه إعجاب بقيمة شيء نرى مشقة في اكتسابه، وانتهينا إلى أن الفضائل ترمز إلى القوة، أو تقرب أن تكون محاولة قوة.

أما إعجابنا بالرجولة الناضجة، فليس إعجاباً بالقوة فحسب، بل هو إعجاب بحرية هذه القوة في أروع مظاهرها.

فالفضائل قوة بأثرها، وإشاراتها، وغلابها للنفس، لأنها اكتساب وممارسة.

ولكن الرجولة طبع وفطرة.

والفاضل يقود نفسه، أو يقسرها.

والرجل تقوده نفسه، وتقسره، ويقوده طبعه القوي وفطرته العارمة، وإيمانه الصارم.

فقوة الرجولة إذاً قوة حرة، تؤمن بحريتها، إيماناً صارماً.

ومعظم الفضائل، انحراف نفعي مستور، بمطالب النفس، وأنانيتها الخفية، وقد سبقت الإشارة الواضحة إلى هذا.

ونحن نعرف الرجل بطبعه القوي، وقانونه الصارم في نفسه، وضراوة فطرته المجردة، وباتزان خطوات هذه الفطرة، والاستجابة الاضطرارية لها.. نعرف الرجل بهذا، وقد يكون مجرداً من الفضائل الهنية المستحبة والمزايا الكسيحة.

فالرجولة قوة في ذاتها، ولكن الفضائل قوة بما فيها من سمات الشعر وشياته، فهي قوة في مجال الفتنة، لذلك كانت بواعثها تهذيبية محضة.

ومن الأمثلة التي تضرب في هذا الموقف الدقيق للتقريب، مثال رجل يملك ألفين فيجود بنصفها ورجل يملك واحداً فيجود بنصفه.

فالمقارنة المادية الجامدة تضع واهب الألف في القمة، لكن المقارنة الفكرية الدقيقة، تقدم عليه ضده، لأنه يهب مادة حياته، ومادة أمله، فما يبقى له بعدما يهب ما تصيب به الحياة أقل مطالبها، وواهب الألف يهب ما لا تفقد بعده النفس أحفل هذه المطالب.

ذاك يهب من نفسه، وهذا يهب من ذخيرته الطائلة.

ذاك تكلفه نفسه أن يهب، لأنه يستحي ألا يفعل فهو قوي وهذا يستجيب مختاراً أو مضطراً لما يجب أن يستجيب له الغني المجدود، فهو أقل قوة.

ذاك يعطي من نفسه لا ليأخذ، وهل يحلم أن يأخذ بنصفه شيئاً؟

وهذا يعطي من ماله ليأخذ.. يأخذ إكبار الناس، وبعد الصيت، والمكان المرموق، والمثل المضروب.

إذا دخل واهب الألف من باب الكرم، والتضحية الضخمة، والفتنة، دخل واهب النصف من باب الرجولة الشامخة.

ففي الحياة إذاً مسافات وأمداء ما تقاس بالذراع، لكن بمقاييس الفكر والضمير.

وأنا إذا ذهبت أقيس الرجل بصداه في جيله، فإنما قمت أقيسه بأفضل المقاييس، وأكثرها خداعاً، لأني ناظر إلى السعة الظاهرة، لا إلى العمق المتخيل.

فالرجولة هكذا تكون مقلة، ومنزورة، وتكون ضعيفة، وهزيلة، في منطق الموازين الجامدة، ولكنها القوة، والحياء.. والرحمة والعدالة.. في منطق الضمير ووزنه.

يتزحزح الفاضل بفضائله قليلاً أو كثيراً، فلا تشيل كفته الراجحة في العرف وموازينه بهذا الانحراف، لكن الرجل لا يستطيع الانحراف بهذا القانون القائم في دمه ناراً، قبل أن يقوم في نفسه مبدأ وإيماناً، فما يرضيه الحق حتى يكون حقاً كله، ولا الرحمة حتى تكون حسماً لبواعثها فيمن يستحقها، أو فيمن يلتمسها، ولا الحياء حتى تكون قوة تصدّ النفس عن مواطن الشبهات والضمائر والرذائل، وحتى يكون قوة تذهب بالهمة في أسمى معارج السمو.

ولو كان كل هذا، أو بعضه مستحيلاً في نظام الحياة المطرد.. ولو كان هذا كمال معنى الرجولة، وتمامها ونضوجها.

وهذا قانونها!

أعود بكم إلى تعريفي التمهيدي للرجولة.. فقد كان تعريفاً رمزياً، أو كان تعريفاً مدرسياً تبنى فيه النظرة على نتائجها، التي هي الأسباب مجتمعة، ولكنها ليست النظرة مفصلة.

قلت إن الرجولة مجموعة من الصفات الرائعة، في الرجل الرائع.

أما الرجل الرائع فهذا الذي جردت لكم الحديث عنه، وأقمت صورته عارية. وأما الصفات الرائعة فهي: القوة، الجمال، والحق، القوة تقابل الحياء.

والجمال يقابل الرحمة والحق يقابل العدالة

فالرجولة إذاً قوة وجمال وحق

هذا قانونها

وهو قانون الحرية أيضاً

وهو قانون الإنسانية السامية

أما الفضائل فجمال فقط.

أحسبكم لا تجدون صعوبة في موافقتي على تجريد الفضيلة من القوة دون الحق، ولكني أجردها من الحق أيضاً.

وأنا لا أمتهن الفضيلة بهذا التجريد القاسي، ولا أغض من قيمتها إنما أريد التحديد، فإذا كانت الفضيلة تهب لتأخذ، لم تكن قوة، ولو كان هذا الأخذ من وراء ستوره الكثيفة، لذة فكرية، أو متاعاً نفسياً، أو مطلباً فكرياً . .

وإذا لم تكن الفضيلة إيماناً صارماً بالتضحية، والجهاد الصادق للحق والعدالة، لم تكن حقاً، ولو بقيت بعد جمالاً ظاهر الفتنة للعيون، وصوفية تغذي المشاعر، ولا تكون الضمير.

وهنا موضع التحرز من خطأ، فلقد قلت في مطلع حديثي إن الرجولة في الطور الأول للحياة كانت صفة القادرين على الاحتيال لتوفير الطعام وإقامة المأوى الواقي، وهي بهذا التحديد تكون مزية سابقة في نشأتها لنشأة الفضائل، أو السجايا، التي لا يجيء دورها في النشأة منطقياً إلا بعد اتساع أفق الحياة، وتشعب مسالكها.

وقلت إن الغرائز في الإنسان مصدر أنانيته، وإن الإنسان، الغريزي لا يتعدى حدود ذاته، فلسائل أن يسأل، كيف كانت الرجولة طبعاً وفطرة، وقانوناً في الدم، وقد كانت أنانية.

والجواب على هذا السؤال، أن الرجل أناني لا شك في ذلك، ولكنه

في هذه الأنانية عادل فهو ما يرضى أن ينال حقه، حتى ينال كل حقه، وحتى يكون الحق مبدأ عاماً لحياة الجماعة، تساهم النفس في الجهاد له بأقصى قواها، وبكل دوافعها، وليست لها من وراء هذا الجهاد لذة ولا متاع، يتجلى هذا في دعاة الإنسانية، وفي الفلاسفة، وفي قادة الفكر، والفنانين الموهوبين، والعباقرة، ورجال الثورات، والعلم والطب والإصلاح، في أولئك الفقراء الضعفاء المشردين، الذين تتنكر لهم الحياة حتى ما تبض بقطرة، ويتنكر لهم الناس حتى ما يعرفون الرحمة، فإذا أصابوا من دنياهم شيئاً، فإنما يكون القليل.

أولئك الذين يعد الفرد منهم حدثاً بشرياً هائلاً، وعاملاً من أقوى عوامل الطبيعة. . . لأنه جزء من تاريخ الحياة الجاهدة، أو جزء من تاريخ الإنسانية. . أو جزء من تاريخ أمته.

إن الحياة لا تحابيهم بالنجاح الترابي إلا نادراً، لأنهم يحتقرون التراب، إنما تحابيهم بصفحاتها الذهبية اللامعة، لا لأنهم الشذوذ والندرة، بل لأنهم الرجال الذين يقيمون مأتم الحياة، وأعيادها، ويقودون مواكبها، وجحافلها. . والذين يعملون للحياة، بالحياة، أو بالموت، ومثلهم الأعلى الحياء، الرحمة، العدالة، أي القوة، الجمال، الحق، أي الرجولة.

ولا أدري مَن مِن المفكرين قال إن الرجل العظيم طفل، لأنه لا يتصرف بقوته تصرفاً ينطبق على مقاييس العقول الراجحة، ففي هذا القول إشارة إلى أن الرجل إذا أخذته نفسه بقانون الحق والاستجابة للأعمال العظيمة الخالدة. لم تكن التضحية عنده شيئاً اختيارياً يسير فيه على قواعد المنطق المرتب، والرغبات الموزونة، إنما يكون مغلوباً على أمره، إزاء قوة خفية فيه.

فسعد زغلول لم يكن أفضل المصريين خلقاً، ولا أعظمهم مواهب،

ولا أكبرهم فكراً، ولكنه كان أكثرهم عناداً وتطرفاً وإصراراً على تحقيق ما يعمل له كاملاً، فهو أكثرهم رجولة.. كان يطمع في الاستقلال التام، ولا يرضى بالحلول الجزئية على أنها النهاية التي لا يبقى بعدها مجال للسعي والمطالبة.

ولو شاء أن يرضى بربع الاستقلال أو بنصفه، لطابق بهذا منطق العقل والسياسة، ولكنه لم يكن يرض أن تكون أمته ربع أمة.. فهذا مظهر أنانية الرجولة..

وسقراط في منطق العقل، طفل لأنه شرب السم مختاراً لئلا يتقهقر عن مبدئه.. فهو رجل يقهره دمه، وقانون قوته، على ألا يصانع في ما يراه حقاً لازماً..

ومن ينكر أن فلسفة العقل متى تسلطت على وزن الحقائق وتحقيقها، أفقدتها كثيراً من طبيعة إيجابها وتأثيرها؟

فلو لم تكن الرجولة قانوناً في الدم وفطرة، لما عدت طفولة لا تعبأ بنفسها في سبيل استجابتها لمطالب قوتها القاهرة.

ها نحن نرى أمة. أمة نكرة بين الأمم يعجزها النهضان، ويصرفها لهوها بالفضائل، عن انتهاج سبيل القوة والارتقاء، وسبيل الحياة والسمو، فأين القوة والجمال والحق تأخذ بيدها؟

أين الرجولة تأخذ بيدها، وتقيل عثراتها؟

الرجولة التي كانت رمز القوة الفعالة في الإنسان القديم!

ورمز سجاياه ومحاسنه في أولى وثباته إلى التطور!

ورمز الحياء والرحمة والعدالة في فجر مدينته المنبثق!

ورمز المبدأ للعربي يوم نهض بأعباء رسالته التاريخية؛

أين الرجولة تأخذ بيدها وتقيل عثراتها؟

الرجولة التي ورثها الصحابي الرجل، عن أبيه العربي الرجل، عن جده القديم الرجل، فكانت عماد مبدئه الإنساني الذهبي.

الرجولة التي كانت النار المندلعة، والثورة الجانحة في دماء صحابة محمد ﷺ، وفي دماء أعوانه، وأنصاره، على الجهاد للحق والقوة والمبدأ.

الرجولة التي طبعت كل شيء حولها بطابعها الجبار.

الرجولة التي دوت بها صرخة قائد البشرية الكامل محمد ﷺ، فاقترع بها قمة المثل العليا، يوم قال:

«والله يا عم. لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما فعلت، حتى يظهره الله، أو أموت دونه».

هكذا يقول قائدنا الكامل البطل، بل قائدنا الكامل الرجل.

فهذه رجولة رجل، قبل أن تكون فضيلة نبي، وقانون دم قبل أن يكون سمة خلق فاضل، وعقيدة مؤمن يستهين الموت في سبيل التراجع المفروض عليه دونها، غير ناظر إلى الجزاء.

هذه قوة، وجمال، وحق، حياء، ورحمة، وعدالة.

حياء من الهزيمة في الحق.

ورحمة للجاهلين بالحق.

وعدالة تأخذ للحق بالحق.

ألا فلتكن دستورنا، كلمة قائدنا الكامل الرجل، لتكن فينا فضيلة الفاضل، وغيرة الغيور، ومبدأ المصلح، وفكرة الأديب وعقيدة الوطني

الحر، جهاداً يظهره الله، أو نموت دونه..

ولا تكن فضائلنا وأخلاقنا، ألاعيب يتنكب بها ميادين الجهاد والنهوض بأعبائه، ولا فخاخاً تقتنص بها اللذة والصيت، والفتنة، ولا أملاً مطمئناً نخلد به إلى الراحة والهدوء.

ألا فلا تكن الفضيلة إيماناً، بل مسمى صادقاً لإظهارها، ونشر لوائها، فما تكون الفضيلة استقامة، حتى تكون مبدأ يظهره الله أو نموت دونه..

ألا وإن في عنق كل منا رسالة، لا تتم الأمانة إلا بأدائها، وبإقامة منارها، وبالكفاح لنصرتها، ودحض نقائضها.

ألا وإن تاريخ كل أمة حية يقيم اليوم عيده البهيج.. فهل ترضى رجولة الرجال في هذه الأمة أن يقيم تاريخها مأتمه الباكي..؟

سادتي ـ إخواني

رددوا معي: أين التربية.. أين المدرسة.. أين الرجولة.. لتعرفوا لماذا يقيم تاريخنا مأتمه الباكي؟

❊ ❊ ❊

(*) الصفحة الأخيرة من مخطوط كتاب الرجولة بخط يد المؤلف

مقالات صحفية بأسماء مستعارة

الأزمـــة[1]

(الأزمة): كلمة لا محل لها إلاّ في الجيب، وقد اختلف علماء اللغة في وضعية هذه الكلمة وأخيراً اتفقوا بعد جهد وعناء وقرروا أنها حال (وسبحان مغير الأحوال) ومن محاسن هذه الكلمة ولباقتها أن الناس يرددونها بين الفينة والأخرى، ويتبادلونها كما يتبادلون التهنئة في العيد. والظاهر أن الجميع وخصوصاً الفقير يشكو الأزمة. حتى الغني في أحاديثه يبدي لك ما يتألمه من المشقة في الحصول على (مصرفه اليومي). والحقيقة أنه (يفر) منك ومني بسياسة حكيمة حتى (لا نستدينه) ولكن من الواجب أن نخطو خطوتين إلى الأمام وإلى الوراء إن أمكن، وننضم لصفوف الأغنياء (معذرة أيها السادة) لننظر إلى الواقع بمنظارهم القوي، ولنفرض أنا رأينا أحد هؤلاء الأفاضل (يقر) بغناه؛ ألا نعترف بأن (المطالبة) ترهقه وأنه بعد أن (كان وكان) أصبح من جماعة (كان ياما كان) وهذا من مصلحته أن يخشاه ويتحاشاه.

إذن كيف يمكننا أن نحكم بين الطرفين: الغني (ولا مؤاخذة) والفقير الضعيف وتحل هذه المعضلة المالية الاجتماعية بعدل وإنصاف؟! هنا ابتدأ

---

(١) **المصدر**: صوت الحجاز العدد (٨) بتاريخ ١٣٥١/١/١٧هـ.

التصريح برأيي الخاص وعسى أن لا يهزأ به من ملأ صندوقه وأقفله وجلس يترنم بلحن:

(يـــا صـــفـــا الأزمـــان كـــنـــت لـــي وحـــدي)

ومن رأيي أن يقرر المثري جزءاً من إيراده السنوي ينفقه لمساعدة من يعرفهم من الفقراء الذين أناخ الدهر عليهم بأموالهم ومصائبه، ويعتبرها كحسنة، وجزءاً آخر لإدانة من تنقصهم المساعدة للقيام بعملهم حتى يمكنهم أن يقتاتوا بأنفسهم.

اذكروا أيها الناس قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: ٧ ـ ٨).

مكة: أبو عرب(١)

(١) اسم مستعار كان يوقع به الأديب حمزة شحاتة بعض مقالاته.

الإيجـــارات[1]!

أجر ـ فعل ماضٍ مبني على الفتح أي النصب ولكنه مجرد عن العطف والتسامح خصوصاً في الحال. وكم من أجر وربح (وسبحان مقسّم الأرزاق)!

استأجر ـ فعل كسابقه إلاّ أنه مزيد عليه بكونه أصبح فاعله مرتاح الضمير والفكر لوجود مأوى يأوي إليه قبل انتهاء المدة المعلومة، لأن الأغلبية تفكر وكم يفكر المستأجر ما دام أمامه الطلب الحاد وكذلك أصبح الرجاء والتفاهم مع مؤجره صعباً.

مؤجر ـ اسم فاعل لا يقبل الصبر (وهنيئاً لك يا فاعل الخير عند الله) والمؤجر كان رباعي القول في الماضي بتقسيطه الإيجار على أربعة أقسام ولكن في المضارع أصبح ذا قول مجرد. وجاء في لغة المؤجّرين: (تحب تدفع الإيجار ذهب مقدم وإلا تخلي) بهذه الكيفية يخاطب أكثر المؤجِّرين مستأجريهم (نرجو الله أن يحنن قلوب الطرفين).

مستأجر ـ اسم فاعل مزيد بالحيرة ومن حسن حظه كثرة مقابلته لمؤجِّره الكريم وإذا حياه ابتسم ابتسامة منبئة بقرب حلول أجل الدفع والمستأجر

---

(١) **المصدر**: صوت الحجاز العدد (٩) بتاريخ ١٣٥١/١/٢٤هـ.

المسكين مرتبك في أمره. لا شيء في اليد. ولا شيء يساوي قيمة فيباع. ولا أحد يدين.

إيجار ـ مصدر للتفكير والهموم في يومنا هذا ومجرد عن قبول الوسائط ودخول الصحبة في الوسط. والله يعلم كم من الوقت ضاع سدى بين تعكير وتفكير وتدبير.

استئجار ـ مصدر اشتقاقه البيوت والدكاكين وقديماً تنازع سيبويه والأخفش على بيت فأعرباه.

أما أنا فلم أتشرَّف بعد بنيل لقب مؤجِّر ولكني سأحوز لقب مستأجر عن قريب. وفي نظري أن البيت والخيمة والخلوة والصندقة كلها مساكن. وقال ابن جنى المسكن هو اسم مكان والمكان يجمع تحت سقفه الغني والفقير (وكذلك عند الله يتساوى الأغنياء والمساكين).

ـ يعني ضروري الجنيه فوقه أخوه؟!

مكة: أبو عرب

التنسيقات[1]!

عملية إصلاحية الغرض منها مكافحة الأزمة والمعادلة بين الوارد والمنصرف.

نسق ـ فعل ماضٍ مبني على الفتح مضاعف. ومضاعف هنا بمعنى مزوّد بالدراسة والخبرة وخصوصاً معرفة الناس (الغلابه) وأصل هذا الفعل متعدي. وأخشى أن أكون تعديت في تعبيري لأني في الحقيقة ـ محسب ألف حساب ـ وزيادة على ذلك.

خايف أقول اللي في قلبي   تلعن وتزعل ويايا

تنسيق ـ مصدر منشؤه الاقتصاد (والاقتصاد نصف المعيشة) وهو معطوف لما قبله (والعطف) ضروري في التنسيق لأن في اللغة ما يبرر ذلك فقد سمي العطف قديماً بعطف التنسيق أو عطف النسق. ولا يفوتنا ذكر النزك وما يقال عنه (يا عمري عليه خفيف ومسجر).

منسَّق ـ اسم مفعول واقع عليه الفعل والمنسق اليوم لا عمل له محتار (ومستصيب) في نتيجة الاختيار الذي وقع عليه ويزداد أسفه أن يكون باب

(١) صوت الحجاز العدد (١٠) بتاريخ ١٣٥١/١/١هـ.

التوظّف مغلقاً ويتمنى أن تسعفه الحكومة بقليل من المال لأن (فلوسه) لا تكفيه للاشتغال بالتجارة أو السفر للبحث عن الرزق عملاً بقوله تعالى ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥) ولي الشرف بأن أقدم نفسي لحضرات المنسّقين لأني عاطل من غير تنسيق (والحمد لله) وعلى كل (فكلنا في الهوى سوى).

سينسّق ـ مضارع مستقبل (وحسبنا الله ونعم الوكيل) وهو مصوغ من المجهول والبعض (بطنه عمال تكركب) ويا ترى على من سيقع الاستغناء هل على المحتاج أم المستغني أو على القوي أم الضعيف؟ ولكن ما دام روعيت فيها الكفاءة والأقدمية فيمكننا إزاء هذا الاستغناء عن استعمال طريقة (حادي بادي. . . الخ).

تنسيقات ـ جمع مصدر وهو من جموع السلامة.

وباجتماع نخبة من الخبراء والمفكرين (الماليين) تكوّنت لجنة التنسيقات فتناقشوا وتجادلوا وقرروا بعد أن أنصفوا وصدق من قال:

كـل الـلـي بـث اتـنـصـف   وأنـا لـوحـدي شـكـيـت

فقد أجريت تنسيقات عامة في بعض شؤوني الداخلية كالمسكن والمأكل والملبس وأخشى أن تضطرني الحالة لتنسيق بعض من أجزاء جسمي والخلاصة (قلبي تعبان بالمرة).

مكة: أبو عرب

المتفلسفون[1]!

دعك أيها القارئ الكريم من التفكير في (ضيق الحال) وتعال لأشجيك بمداعبتي البريئة مع بعض (المتفلسفين) المتذمرين. أنا لا أنكر بأن هؤلاء الناس في رأسهم شعر. ومن مميزاتهم أنهم (يمسكوا على الدقه) وأنهم يعطسون قبل الكلام، ويتثاءبون بعده. كل هذه مفهومة ومحسوسة ولكن على (مين)!، ومما لا هروب منه إفصاحهم ومصارحتهم لبعض جلسائهم (الله يكون في عونهم) عن الحقير الفقير لربه تعالى (أبو عرب) أتدري بماذا أتهموني؟! وبماذا وصفوني؟! حتى أنهم أزعجوني (وأخذت على خاطري كمان) قالوا هذا (خُليق) (أسنانه من عظام ووجهه من قدام) سامحكم الله يا (فصاحه) فيما قلتموه ونسبتموه!

مهلاً سيدي القارىء! الآن المهم لم أشرحه لك بعد.

قال الراوي: سمعت كراماً يسألون عن قيمة (أبو عرب) اللغوية، ومقدار تعمُّقه فيها (أنا غرقت) ولماذا يطرق هذا الباب؟ (مين)! وهل هناك صلة بينه وبين ابن جنّي؟! (والله لا أعرف جنّى ولا ابنه) ولكنني أعرفكم حق المعرفة. ونزولاً على إرادتكم (احم) سأترك لكم البيت من بابه.

---

(١) **المصدر**: صوت الحجاز العدد (١١) بتاريخ ١٣٥١/٢/١٥هـ.

وسأجعل لكل مقال باباً يناسبه، ولكن فاتني أن أوضح لكم كلمة (متفلسفين).

أصلها:

أفلس بمعنى لم يبق له مال، فهو مفلس (أنا)، مفلسون (أنتم) مفليس، و(فلوس) أي فلوس السمك وهي ما عليه من قشر. كما أن هناك بعض رؤوس عليها قشور (الرجعية). ويقال فلان فلس من كل خير أي خالٍ عن كل خير (وحاشا أن أقول أنتم).

(وفلاس) هو بائع الفلوس أي النقود النحاسية (سلمت يا بو خيَّال)، وهلاس وهجاص (عامية) تنسب لكثير الكلام (الفارغ) و (تفلسف) أي تعاطي الفلسفة. والبعض من (اللامتقعٌرين) يغلط ويقول (بسرعة) مفلفس. وداعيكم من هؤلاء!

ورجائي أن تتركوني من انتقاداتكم (الحارة) ولو أن الوقت متسع لكتبت ما يسركم. ودعوا (أبو عرب) في (يا ناس ضربتين في الرأس توجع) صاحب البيت، وأنتم!!!...

مكة: أبو عرب

البعثــة(١)

طربنا كثيراً بتقرير إرسال بعثة لدراسة الطيران والفن العسكري. وكيف لا نطرب وقد رأينا بوادر خطواتنا الأولى قد بدت نحو العلم وتقديره. وبذا يمكننا أن نشيد حضارتنا على الأساس الصحيح.

وأنه ليسرنا جداً أن توفد بعثات بالتتالي للتخصص في العلوم والفنون والصناعات لأن بلادنا لمحتاجة لأمثال هؤلاء الرجال.

وقد اهتمت الحكومة كثيراً بأمر البعثة وقد قدمت طلبات الالتحاق وعما قريب سيجري الامتحان (وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان) ومما (يغيظني) أن كثيرين من الآباء ممتعضون وممتنعون عن إرسال أبنائهم والبعض منهم قد عارض ابنه فعلاً ووقف حائلاً بينه وبين العلم بدعوى (الفراق).. أتدري بماذا يفكر هذا الرجل يقول: إذا مرض ولدي من يداويه. وإذا جاع من يؤكله وإن توسخت ملابسه من يغسلها. وعلى هذا النمط السخيف والحجج الواهية يحرم الأبناء من العلم وناهيك عن قولهم (خليه يطلع زي أبوه يا سيدي) اللهم إنا نعوذ بك من هذه العقول.

---

(١) **المصدر**: صوت الحجاز العدد (٣١) بتاريخ ١٣٥١/٧/٨هـ.

وأنتم يا رجال المستقبل سيروا إلى الأمام وفقكم الله لخدمة وطنكم والجالس على العرش وغاية أملنا أن نرى أسطولنا الجوي ورجال الدفاع يحيوننا تحية الظافر فنهتف لهم:

يحيى الوطن فليعش الأبطال

أبو عرب

الـــزواج[1]

لا زلنا متمسكين بالعادات غير المفيدة بالرغم من حوادث الأيام كالأزمة وظهور الحقائق جلياً. فلم نزدد إلاّ ثباتاً على المبدأ القديم ـ بلا فخر.

في مثل هذه الأشهر من كل عام تقام الأفراح والليالي الملاح (يا سيدي) في أرجاء البلدة فتشيد دعائم الأسرة الجديدة على الحياة الزوجية الهنيئة ـ عقبال عندكم ـ.

أما التكاليف والنفقات فتتساوى تقريباً بين الغني والفقير (الله يكون في عونه) وأوسطهما. والمفهوم طبعاً أن تكون معدات الزواج من استقبال وأطعمة على الوجه الصحيح وإنما هناك اختلاف في القلة والكثرة. والويل للمقصّر والساهي من الألسنة اللاسعة فهي كالبرق تنقل الأخبار بحذافيرها ـ أعوذ بالله.

وأما النقد فلن يسلم منه أحد كما هو المعتاد. فلا بد من غلطة في الصنيع (العشاء يوم النصة) أو الصبحة (ثاني يوم الدخلة). ومما يدهش حقاً الانتقاد في الكماليات كالسلطة إن لم تكن موافقة للأطعمة المقدمة

(١) **المصدر**: صوت الحجاز العدد (٣٢) بتاريخ ١٣٥١/٧/١٥هـ.

والمصابيح إذا لم تضيء ملحقات الدار ومن هذا الشيء الكثير.

وأخيراً بعد (الطفش) يتم الارتباط الزوجي بعد صرف ما في اليد (والغرق) في الدين؟

كنت مسروراً حينما ناولني العمدة ورقة إحصاء النفوس وقرأت ما فيها بخجل أعزب أم متزوج ـ تناولت القلم (البوص) وملئت الفراغ بالخط العريض. أعزب. وبعده أصابتني رعشة كهربائية كأن السالب والموجب التقيا (يا حفيظ).

وتعمقت كثيراً في دراسة الموضوع من جميع نواحيه مدة غير يسيرة، وبينما أنا غارق في أحلام الزوجية القادمة إذا ـ بزبون يناديني باسمي (حاف) فنزلت مسرعاً نحو الباب فإذا أنا أمام صبي صاحب البيت فبادرني قائلاً (عمي يسلم عليك يقولك الميعاد فات) فقلت له بلا تردد لأن الجملة حاضرة ومحفوظة (قول لعمك.. يسلم عليك وهو مريض وإن شاء الله إذا تيسرت يجيك بنفسه) فلم انته من المحاورة المفرحة حتى فوجئت بصوت جهوري يخترق طبلة الأذن السلام عليكم كيف حالكم أنت فين فإذا بصديقي الذي استدنت منه مبلغاً منذ أسبوع ووعدته بالسداد في أقرب فرصة فرددت عليه السلام بكل أدب واحترام وسار في طريقه وكان قد سبقه الصبي إلى حيث... الخ.

في دقائق معدودة تيقنت بأن التفكير في الزواج لم يحن ما دام حضرات الزبائن أحياء.

ويا حبذا لو أن لجنة إحصاء النفوس أخرجت قائمة بالعزاب ونظرت في أسباب امتناعهم عن التأهُل وسألتهم فرداً فرداً فالمتيسِّر يرغم على

الزواج (بلطف) والفقير ينظر في أمره فإما أن يساعدوا ما أن تسهل له الأسباب بجعل نظام خاص بالعزاب مملوء بمواد أساسية ذات تأثير فعّال مع مراقبة تنفيذه والسير بمقتضاه.

فلربما الجيل القادم يكون أوفر منا نشاطاً وأكفأ علماً وعملاً. ولا يفوتكم بأني عازب (فاحسبوا حسابي).

أبو عرب

حديث الأسبوع[1]

١ ـ التشكيلات

هناك حركة غير عادية في الأوساط الحكومية وخصوصاً المحيط الراقي منها بسبب التشكيلات الأخيرة. وغير خاف أن جميع الموظفين ينتظرون النتيجة وهم متشوقون لمعرفة النهاية. والحقيقة أن أمر التشكيلات مهم وضروري وأن جميع الحكومات متمشّية بنظامه، وفي رأيي الخاص (المحترم) أن التشكيلات لها تأثير عظيم في سياسة الدولة وإدارتها الداخلية وهي لا تلحق إلاّ كبار الموظفين.

فهناك التعيينات التي تقابل بارتياح من الطرفين والتنقّلات من منصب إلى آخر وهذا فيه قولان (إما طالع أو نازل) وكذلك الترقيات من كرسي إلى أعلى (أرجو أن أكون من هؤلاء) ولا يفوتنا غض النظر عن البعض. والأخير كما وصفه علماء النفس له تأثيره بأعصاب الحس الذي يعقبه الأرق والقلق.

فالتشكيلات ليست إلاّ مفاجأة لبقية الموظفين (أمثالي) فتراهم يرددون

---

(١) **المصدر**: صوت الحجاز، العدد (٣٣) بتاريخ ١٣٥١/٧/٢٢هـ.

الشخصيات بمناصبها ولا سيما في المناصب الرئيسية ذات الشأن والأبهة ـ وكل آت قريب.

٢ ـ الحجاج

قرب موسم الحجاج واستعد المكلفون بأموره لمقابلة حجاج بيت الله الحرام. وبذلت الحكومة كل مستطاع في سبيل راحتهم ورفاهيتهم كما هو مشاهد.

ولكن هناك شيء لا بد من سرده: نسمع بين الفينة والأخرى أحاديث كثيرة عن الوافدين، فالبعض يقول إن موسمنا المقبل حسن (الله يبشركم بالخير) والآخرون يخفضون من عدد الوافدين (الله يسامحكم) مع العلم بأن الكل يعترف بأن الأخبار الوثيقة التي بهذا الشأن لم تصل بعد فكيف نحكم بالقلة والكثرة.

إذا اطلعنا على أخبار الخارج نجد بأن الحركة التجارية هناك انتعشت نسبياً وكذلك الموسم الزراعي تحسن عن قبل. إذاً فكثرة الزائرين أو قلتهم تعود لصاحبة الفخامة (الأزمة) وبما أن سلطتها العالمية (يضرها) قد اضمحلت نوعاً فهناك طلائع البشر تبدو ظاهرة.

وكل ما يمكننا أن نقوله بهذا الصدد أن حجاج هذا العام سيزداد عددهم عن السنة السابقة ـ تفرج ـ

مكة: أبو عرب

الانتقـــاد[1]

وكيف يجب أن يكون

بمناسبة الانتقاد على قصة (مرهم التناسي)

الأدباء في عصرنا الحديث على ضروب عدة، ولكلٍّ غاية يسعى لنيلها. ولطالما سيقت الانتقادات متوالية بين أدبائنا الحجازيين على صفحات جريدتنا الغرّاء «صوت الحجاز»، فحبذا لو كان الغرض في أكثرها نزيهاً، ولكن مع الأسف الشديد تطورت أساليب الانتقادات فأصبحت أغراضاً شخصية ليس إلاّ، كما هو مشاهد في الانتقاد الوارد في (صوت الحجاز) بالعدد: (٨١) حيث ورد فيه انتقاد أجوف على الأستاذ الفاضل الأديب الشيخ عبد القدوس الأنصاري في قصة «مرهم التناسي» من أحد الكتّاب الأفاضل بإمضاء (صاحب التأملات) فقد حجب اسمه خلف ستار الخجل، فهل يحق لنا أن نشكر هذا المنتقد أيها القارئ على انتقاده العنيف؟ كلا.. حاشا لله أن نكون له من الشاكرين. فقد أبان في انتقاده عنفاً وقسوة، وأغراضاً شخصية محضة؛ ولا ينجم لنا من رده أية فائدة على تلك

(١) المصدر: صوت الحجاز، العدد (٨٤) الثلاثاء ٣ شعبان، ١٣٥٢هـ.

الأقصوصة اللطيفة الوجيزة التي لا تحتاج إلى إخراج عشرة مواد انتقادية، فقد غره يراعه السيال وعلمه الناقص الذي حذر منه أمير البيان (شكيب أرسلان) في كتابه: «لماذا تأخّر المسلمون، وتقدم غيرهم»، وأن كيفية انتقاده لا تخوله أن يوصف بحسن الأخلاق فحسب؛ أفلم يعلم هذا الكاتب أن النقد إذا كان بهذه الصورة يزرى بصاحبه في نظر الأمة؟ وناهيك أيها القارئ بأن أول جملة سمعتها في تاريخي ما أورده (صاحب التأملات) في قوله «أو بردعة بعير ينوء بها حملاً»، فهل ينوء البعير بحمل البردعة؟ وإن هاته الجملة لمن ركاكة استعاراته، فتريث أيها المنتقد قبل أن تشرع في تسطير انتقادك الممل؛ ولا ريب فإن الرابطة الأدبية تقضي بالتشجيع، فكان الواجب على (صاحب التأملات) الثناء على الأستاذ (عبد القدوس الأنصاري) وتشجيعه على ابتكاره وإصدار أول رواية في الحجاز؛ وهي «التوأمان» فقد نفقت ولله الحمد بالطلب والرغبة أربعمائة وخمسون نسخة منها ما وزعت في الحجاز، ومصر؛ وسوريا؛ والهند والغرب، والسودان كما يرام. فآه. آه علينا أيها الحجازيين نسعى ليلاً ونهاراً لأن نرقى ونصل أسمى درجات العلا؛ ونشرع في بناء شيء من صرحنا؛ وإذ ذاك نهدمه بأيدينا؛ فأملي وطيد؛ من الأستاذ المشار إليه إصدار كتاب ثانٍ وثالث ورابع في هذا البحث الجليل ونرجو له وأمثاله من أدباء الحجاز الساعين في سبيل رفع مستوى الأدب الحجازي التوفيق والنجاح من الله سبحانه وتعالى؛ وهو الهادي إلى سواء السبيل..

المدينة المنورة: كويتب[١]

---

(١) أحد الأسماء المستعارة التي كان يوقّع بها الأديب حمزة شحاتة بعض مقالاته.

نظرة إعجاب(١)

إلى الأدب في الحجاز

كل إنسان نيِّر البصيرة تعتلج في نفسه روح الوطنية وحماستها يعود ولا شك جذلاً مسروراً تبدو على أساريره لوائح الغبطة حينما يدير البصر في هذه البلاد التي شاء الله أن تقضي ذلك الأمد الطويل في معزل عن الأدب الحي، فيراها اليوم وقد ازدهرت وأنبتت نباتاً حسناً ينم عن خطوات حميدة. ولا بدع إذا ساور الإعجاب النفوس تيمناً بالنهضة المباركة التي أصبح لها أعظم الأثر في إيجاد بناء قوي دعامته العلم وحجر الزاوية فيه الأدب. فأرواحنا المتعطِّشة وأفئدتنا المتَّقدة أَوَما تأخذ من ذلك ولا ريب مأخذاً عظيماً يحفزها للتطلع إلى معاني الأمور. فمن ذا لا يعجب ولا ذا لا يُكبر عملاً أنتج رجالات يرفعون في كل آونة وأخرى صوتهم باسم الأدب ويهيمون بأنفسهم وأمتهم معاً إلى النزوع للكمالات وأداء الواجبات الملقاة على عواتقهم وطنياً وأدبياً، ومن ذا تحتجب عنه شموس هذا المجهود الكبير الذي أحلّ القطر الحجازي مكانة لا بأس بها في عالم الأدب وأنه لا

---

(١) **المصدر**: صوت الحجاز، مكة المكرمة عدد (١١١) يوم الاثنين ٢٨ صفر سنة ١٣٥٣ الموافق ١١ يونيو سنة ١٩٣٤ .

تزال الآمال معقودة عليهم ما داموا ينتهجون أمثل الطرق وأقربها وصولاً للغاية المنشودة. وبهذه الفرصة انتهز التعبير عن شعوري نحوهم وإعجابي بسيرهم، كما أني لا أدع ما يخجلني من نظريات أطرحها هنا على بساط البحث مؤملاً التكرُّم بإعارتها التفاتة وإفهامي الصفة التي يقتضيها المركز الأدبي نواحي خطتي منها فأقول:

يشق عليَّ أن أرى الكثير ممن ينتمون إلى الأدب وأكاد أقول ممن أوشك أن ينحصر فيهم اسم الأديب يتهافتون كل التهافت ويتهالكون كل التهالك على ارتياد الأقاصيص والروايات السقيمة فيشبعونها بحثاً ومطالعة ولطالما يحول ذلك بينهم وبين استبار أي كتاب من صميم الآداب الفنية وفي الوقت نفسه يشعرون لذة كبيرة تأخذ بنفوسهم وتحملهم على الاسترسال في صفحاتها الطوال التي أراها حجر عثرة في سبيل إنهاض الأدب وتقدمه على الأدب العربي حتى والغربي من العقل أن لا تتطلع إليه الأنظار في الروايات السفسطائية والمجلات الهزلية الجوفاء. فعليه أكرر رجائي للأفاضل من أدبائنا الذين لهم من نفسي الموضع اللائق بهم آملاً منهم الإفاضة في هذا البحث ومنحه ما يستحقه من الإيضاح والتبيين موعظة وذكرى.

كويتب

نظرات في المجتمع(١)

الأدب في رأي الشباب

شبابنا اليوم لا ترجو الأمة سواه ولا تعقد آمالها على غيره في كل ما من شأنه إيصالها قمة مجدها وسامق عظمتها وإعادة ثروتها العلمية والأدبية وإعزاز معالمها، وذلك هو ما نراه متجسّماً في نظراتها نحوه المملوءة غبطة وإعجاباً بخطاه التي يخطوها إلى الأمام الفينة بعد الأخرى وذلك كل ما تفتر به عن أعذب ابتساماتها فلا غرو إذا ما ساروا قدماً في هذه الغاية النبيلة وضحوا بالنفس والنفيس في هذا السبيل الكفيل بالصلاح الوافر والخير الكامل. فبديهي أن شباب الأمة نموذجها ومقياس قوتها الذي توزن به قيمتها في الحياة وبه تعرف مكانتها وتميز صالحها من الطالح. وكذلك شاء الله أن يوجد في كل قطر ـ تنبض فيه شرايين الحياة ـ شباب متيقظون تعوّل الأمة على خدماتهم وتلقي بمهام أمورها على كاهلهم وتتخذهم العدة والعتاد اللّذين تكافح بهما ما يلم من كوارث وملمات، وفي هذا من معاني العبقرية وآيات الوفاء للشعب والواجب المقدس ما هو غني عن الذكر. وأن جولة

(١) **المصدر**: «صوت الحجاز» مكة المكرمة يوم الاثنين ٢٩ جمادي الثانية سنة ١٣٥٣ الموافق ٨ أكتوبر ـ ١٩٣٤هـ، عدد (١٢٨).

بسيطة نحو الأمم المجاورة بإمعان وروية ترينا بوضوح مقدار اعتمادها على نشئها، إذ إنهم بلا مراء يدها العاملة ونواتها الصالحة المرموز إلى ثمرتها بعين الإجلال لأننا نرى هناك من النهوض المجسّم والعمل المبرور والسعي الحثيث ما يحملنا على التقدير والإكبار من ناحية والأسف والألم من ناحية أخرى. ففي مصر اليوم وسوريا الشقيقتين والعراق رجالات من الشباب الحي يبرهنون على جهود كبيرة تصرف وتضحيات عظيمة تبذل في سبيل الواجب المقدس تتمثل في نفثات أقلامهم مؤذنة برقي باهر إن شاء الله. هذا وإني إذا ما أخذت أعزف على قيثارتهم وأشدو بنغماتهم الموسيقية التي تدع في القلب الأثر الطيب فليس ذلك من ما أراه من القوة والمتانة والإحكام والإبداع والترصيف والتنميق والبلاغة التي أخذوا بقيادها وقبضوا على زمامها. لا وعمر الحق. كل ذلك لا يستهوي الشعور ويأخذ بمجامع الأفئدة تمثيل ما يتركه في النفس الإخلاص المقرون بالعمل الصادق لأن الأمر كل الأمر العمل الحق لا القول المجرد.

وهنا يجدر بنا بعد إن ألممنا بنبذة من واجب الشباب ألاّ نلقي نظرة بسيطة على شبابنا الحجازي الذي هو محط رحال آمالنا محفوفة بالشكر الجزيل على نشاطهم وانتباههم وارتكاز القومية فيهم البادية الأثر في كل ما يكتبون ويبرزون من آراء وأفكار فنقول: خدمة للحقيقة وأداء للواجب الإنساني أن الأدب الذي ترنّ أصداؤه في جنبات قطرنا المجيد لا يعوّل ولا ترتكز دعامته إلاّ على محصن القول المزدان بالشقشقات العذبة والطلاوة الخلابة والأثر الذي لا يلبث أن يتلاشى مع ذرات الهواء يعود أدراجه معيداً للنفس خمولها وغثاءها فكم جادت قرائح أدبائنا بغرر القصائد وشيق المقالات المكتظة بنفيس المعاني وفائق الحكم ودقيق الإدراك والروعة

والفخامة ولكن، والأسف يملأ فؤادي لم تجن الأمة بعد أية ثمرة تبرر هذه المساعي التي يتكبدها أصحاب النزعة الأدبية لما فيها من الالتواء المزري وفقدان الصفاء النفساني واستخذاء القلوب واتساع المسافة بينهم وبين تطبيق الأدب الحسيّ على الأدب المعنوي ومفارقة كل ما يقتضيه المقام الأدبي من العفة والنزاهة والصدق والشرف وطهارة الذيل والإخلاص إلى ذلك من الصفات التي خلقت توأماً للأدب.

فَأَنّى لنا بعدئذ أن نهيب بالأمة إلى التكاتف ونحن في أمر مضطرب الحيل وأنى يتسنى لأدبائنا أن يتصدّوا لمعالجة أمراض الأمة وهم ـ ولا أقول كلهم ـ مرضى النفوس لا يسعون في الغالب ولا يعملون ولا يملأون الصحف والمجلات إلاّ لغرض يختلج بقراراتهم ويتغلغل في نفوسهم. وأخيراً دع عنك أيها القارئ هذا كله وتطلّع إلى فرص الاجتماع بحضراتهم وأخطب أوقات سمرهم فهل يسعدك أدبهم ويسحرك كمالهم وتسرك عزتهم وتعود رطب اللسان بالثناء عليهم والاغتباط بهم أم ترجع وقد أفعمت فؤادك أسى يتجدد بذكرى حالتهم، وإني لا أدري أبالسلب تكون الإجابة أم بغيره هذا ما لا أستطيعه الآن وليكن من قادة أقلامنا وكبراء مفكرينا في الأدب والاجتماع ففي الأديب[١] وفي يراعه الفياضة ما يطفئ الغلّة ويشبع التهمة وعليه وعلى أمثاله مني التحية. . . وبالله التوفيق.

المدينة المنورة ـ كويتب

(١) هكذا وجدت في المصدر.

نظرة في الحب(١)

بقلم: أديب بارز لم يشأ ظهور اسمه(٢)

ليس بين عواطف الإنسان عاطفة أبعد أثراً في حياته الفكرية والنفسية من عاطفة الحب، وهي أكثر عواطفه تعقداً وغموضاً. والناس من الحب في ائتلاف واختلاف، شأنهم فيه، كشأنهم في مذاهب الحياة وألوانها، ونظراتهم إليه متعارضة تارة، ومتفقة أخرى.

ويستحيل على الباحث في الحب أن لا يكون موضوعه الجمال وتأثيره، لأن صلته بالحب من أوثق الصلات وأؤكدها. ولكن بعض المفكرين يعتبرون الجمال صفة من صفات الحب العارضة، يجوز أن يتجرد منها، وأن يبقى بعدها حباً حقيقياً لا ينحرف في شيء عن مسلكه الطبيعي في صميم الحياة، وأعماق النفوس. وقد يستشهدون بولع الإنسان بأشياء في الطبيعة، وأشياء من الفنون، أو بحبه صوراً لا يجدون للجمال أثراً فيها. وهذا الرأي خليق بأن يكون صواباً، لو كانت الحياة في أفكار الناس

(١) **المصدر**: صوت الحجاز، مكة المكرمة العدد (١٩٥) يوم الثلاثاء ٢٥ ذو القعدة.

(٢) أحد الأسماء المستعارة التي كان يوقع بها الأديب حمزة شحاتة بعض مقالاته.

وميولهم تسير على قاعدة مطردة، وقياس معين، أما والجمال نفسه اعتباري؛ ومياسمه والإحساس به، وتذوقه، مما لا يتهيأ اتفاق الناس فيه، وإجماعهم على أمثلة ومعايير خاصة له، لا يند فيها مثال عن مثال ـ فإن من السهل اكتشاف الضعف والاضطراب في هذا الاعتبار.

والجمال منذ كان، موضوع الحب، بل شركه المنصوب، وشباكه المبثوثة، والتأثر بالجمال قد يكون إعجاباً هادئاً، وتقديساً صامتاً، أو حباً ثائراً عنيفاً. ومن لا يرى آثار ذلك الإعجاب الهادئ في الرسوم والتماثيل والشعر والموسيقى، مولولة؛ نائحة، وباسمة طروبة، كما يراها في دموع العشاق، وابتساماتهم، وفي سعادتهم وشقائهم؟؟..

والناس يجهلون من أسرار الحب وبواطنه، ما يجعلهم يفيضون عليه من صور القداسة والجلال والخيال ألواناً خلّابة. فلندعهم يقدمون إليه القرابين، ويهيمون في آفاقه وظلاله الساحرة، ولننظر إليه نظرة مجردة، لا ندعي فيها فضل الابتكار والسبق، ولا نزعمها تقليداً أو نقلاً، بل تقول إنها نظرة نشأ الإحساس بها في العقل والنفس، وألقت عليها نظرات الناس وتجاريبهم ضوءاً سابغاً، وقامت من تجاريبنا الكثيرة، وتفكيرنا المستقل، على أساس قوي.

والآن نسأل؟ ما هي مطالب الحب في أضيق حدوده وأوسعها؟ أليست الاستمتاع بالجمال وإرواء العواطف بتذوقه، والاستغراق فيه، والشعور بامتلاكه؟ فهذا الميل إلى الاستمتاع بالجمال، والهيام به، رمز صريح إلى الحس الجنسي في الإنسان.

ونعتقد أن الإحساس الجنسي سائق الحب الخفي، وحافزه الملح..

ويخطئ من يظن أنه لا يتخذ في سيره إلاّ اتجاهاً واحداً لا يتحول عنه أو يخطئه، وفي نظريات علم النفس ما يرد كثيراً من عواطف الإنسان وميوله، واتجاهات ذهنه إلى الغريزة الجنسية وحدها.

قد يكون من الصعب أن نعتقد، أن حب الموسيقى رغبة جنسية متحولة عن طريقها المعروفة وقد يجد الكثيرون في أشباه هذا القول فلسفة غامضة، أو خيالاً عميقاً، وهي في الحقيقة نظريات ثابتة تستمد قوتها وصحتها من الواقع المتكرر، والدراسة الدقيقة.

ولسنا نغض من قداسة الحب بهذه النظرة، ولكن نريد أن نصحح بها وهماً شائعاً، حتى بين الطبقة المستنيرة، ونعلم أن طهارة الحب ونزاهته لا تحتاجان إلى أدلة تثبت وجودهما في حياة الإنسان منذ وجدت الدنيا إلى أن تزول.

وفي رأينا أن الذي يدفع الأفكار إلى رفض هذا الاعتقاد، أن مطالب الإحساس الجنسي محصورة عندها. في صورة واحدة لا يمكن أن تعدوها إلى سواها. وهذا خطأ غريب. ويضاعف شعور النفوس بشذوذ هذا الرأي خفاء مطلب الإحساس الجنسي في نفوس المحبين ورغباتهم. ومن المحقق أن خفاء الشيء ليس دليلاً على عدمه. وعاطفة الحب عند ما تطغى على المحب تلهيه عن كل ما عداها فيستغرق فيها استغراق من لا يحس بأن في الحياة شيئاً يعنيه بعد هذه الصورة التي تجذبه إليها دواعٍ قوية منها ودواعٍ قوية من نفسه.

ونظن أن الحس الجنسي ـ في أصدق صور الحب الطاهر ـ لا يفتر عن تحقيق رغباته الطبيعية بوسائل صريحة أو خفية، ورب فترة يستهوي العاشق

فيها خيال لذيذ، أو ذكرى مطيفة أو منظر مستعاد، أو موقف ماثل، تكون في مجموعها وتفاصيلها مطلباً جنسياً يحققه الخيال في أبسط صوره وإرواها لظمأ النفس ونزوعها.

ولا ينكر أن الجسد أول مطالب الحب والهيام، وقد يهيم الإنسان بفكرة أو بمبدأ، ولكن هيامه لا يكون حباً ومصدره القلب، والأرجح أن يكون غراماً فكرياً، ما تخشى أن يحتج علينا به معترض، فالجسد مصدر الإغراء، ومرآة تجلو لعين عاشقها أسباب الفتنة، وما نحسب أن عاشقاً، يكتفي من تذوق الجمال وطلابه وامتلاكه، بوقفة المتأمل المعجب، تكفيه النظرات يخيلها فيه، ويطلقها حوله، كما يفعل أي إنسان أمام تمثال بديع لا تبلغه يداه.

وإذا كانت نظرة العاشق واستغراقته تحقيقاً خفياً لمطلب الغريزة الجنسية، فأولى أن يكون العناق والتقبيل تحقيقاً أوفى له. وما نجد دليلاً على صحة هذا القول أبلغ من خفوت عاطفة الحب، أو هدوئها، كلما كانت أسباب الاتصال فيه أشفى للعاطفة، وأنفى لنزوات الوجد والقلق.

وقد يظن العاشق المدله أن مجرد الإيمان بأن مرد عواطف حبه، إلى الغريزة الجنسية، خروج بالحب عن أقدس معانيه وأطهرها، فتراه يزور لنفسه دائماً مطالب غريزته متخذاً لسترها أدخل الصفات في الروح، وأبعدها عن مطالب الجسد. ولكنه في هذا إنما يعبر عن مقاومة عنيفة لإلحاح غريزته الخفي، وإنما يقاوم بعقله وإرادته دوافع نفسه وطبيعته.

ولسائل أن يسأل؛ أفلا يعد الكبح والمقاومة لإلحاح الغريزة ودوافع النفس فضيلة تقي الحب شر الحيوانية الشرهة؟ ونقول كلا! لأنه إنما يعبر

بهذا الكبح عن حرصه الشديد على دوام لذة الحب ووحيه وخياله، فشأن الاستجابة لمطالب الجسد أن تنتهي بالحب إلى درجة من الفتور والكلال، يحرم معها أقوى دواعيه، وحوافزه، وأضمنها لبقائه، وأعونها على تجديد اللذة، وتلوين الخيال. وقد كان يكون فضيلة لو اقتصر على رياضته للنفس وكبح الشهوة في مطلب لا تتطلع من ورائه النفس إلى مستقبل ممتد، ولذة مقبلة، ترجو دوامها واستمرارها.

والحب على أن مرجعه الغريزة الجنسية، لا تسلكه نسبته هذه في عداد الرذائل؛ فهو أدق مظهر لأعمق معاني الأنانية في الإنسان. وأول صفاته الميل إلى الاستئثار بالمحبوب والغيرة العمياء عليه، ولكنه إلى ذلك مجلى التضحية والإيثار في أكثر المعاني منافاة للأنانية ومجافاة للمنطق.

وبعد، فهل ترانا وفقنا بهذه النظرة المحدودة إلى جلاء غامض، أو فك مغلق، من أسرار الحب؟ وهل ترانا أرضينا النفوس التي اعتادت أن تقيس خوالجها بمقاييس عواطفها ونزواتها؟ أم ترانا أرضينا الواقع والعقل فقط؟...

وإنّا لنخشى أن تكون نظرتنا مثار جدل. فما لنا على احتماله قدرة. وإنا لنرجو أن تمر مر النسمة الضعيفة لا يشعر بها إلاّ مكدود مرهق يترقب مثيلاتها، ولا يواتيه نشاطه على الصيال.

مكة

على المكشوف[1]

نشط الأدباء وساروا بأقلامهم الجبارة للتحرير في العدد الممتاز وكلهم وطنية وحماس. وانتظر قرّاء صوت الحجاز وكلهم شغف للاطلاع على المفاجأة الصحفية التاريخية وانتظرت أنا مع الجميع.

أصبح الصباح وتصفحت صوتنا الحجازي بسرعة (اكسبرسيه) فراعني ما كتب فيه من مواضيع تكاد تكون مختلفة وأدركت مدى ما وصلت إليه أقلامنا القوية في صباح ذاك اليوم المشهود.

وأنـــــا

بحثت عن مقال باسمي فلم أجد فسألت نفسي لماذا لم تكتب وأنت (اللي فيهم) وكيف أكتب وحضرات الأدباء مدعوون بدعوة خاصة للكتابة ولم تصلني دعوة كهذه. هنا أدركت السر بأني لست من الأدباء المعدودين ولا الممتازين فلهذا لم تدعني إدارة «صوت الحجاز» المحترمة. ولم لا يكون هذا العدد ملحقاً للممتاز أو ممتازاً لمقالي فيه. وهل لدكتاتورية إدارة صوت الحجاز أن تحكم بما تشاء في حل هذه المعضلة بشكل يرضي أم لا؟

(١) المصدر: صوت الحجاز العدد (١٩٨) ١٣٥٤هـ.

وللمداعبة البريئة في شبه حقيقة أو دان اشرح لسيدي القارئ بعض المشاهدات والتصورات لذاك اليوم السعيد.

تكـروني

رأيت السمباتيك الصغار من الصنف اللاممتاز حافياً عاري الرأس بشعره المخرفش وهو يوزع الصوت ذات اليمين وذات الشمال بحركات تشبه المليشيا في طريقها إلى ماكال.

العم حسنين

نادى العم حسنين (هات يا ولدي جريدة) فأعطاه دون أن يقبض الثمن وهرول. (خذ القرش يا واد: طيب يا عمي ارجعلك) فوقف العم صامتاً بعد أن شعر بازدياد صفحات الجريدة. (مسكين الولد أعطاني جريدتين).

موظف صغير

رجا الموظف الصغير زميله أن يطلعه على جريدة اليوم فناوله إياها بصمت وكذا قام بقراءتها بصمت وبعد أن انتهى مما قرأه التفت إلى زميله قائلاً. هل ترى أن في التحرير مظهراً من مظاهر التفاخر للشباب ولربما يصادف الحظ وينتخب الكاتب رئيساً لأحد الدواوين أو في وظيفة كبيرة. فأجابه صديقه دعك يا عزيزي من هذا فإن الحظ سيد المقدرة ولا حاجة لأن أشرح لك والكل منا يعرف ما نحن عليه.

باحضرم

مد أحدهم يده وأخذ الجريدة ببطء وعلى الحافة الصغيرة من دكان

باحضرم بدأ يتصفحها وحاجباه العريضان تارة يرتفعان وأخرى ينخفضان كالعملة في الآونة الأخيرة وحذاقة الصيارف. وبعد أن قرأ ما راق له عنوانه طوى الجريدة وأدخلها بين طيات قفطانه الواسع وأخرج منديله (الشيك) وإذا به ممتاز في نوعه ولونه واتساعه ونظر إلى صاحب الدكان مبتسماً (الجريدة ما فيها أخبار) فسأله باحضرم (ما كتبوا شيء علشان البلدية والدكاكين والمباسط) فأجابه لا فقال (يتركوا الشيء المهم كيف هذا) فأجابه (لازم نسيو).

مع زنوبه

خرج الحاج عوضين وترافقه البنت زنوبه لشراء سبح مكية فيها صور الأماكن المقدسة هدايا (لعيال حتتهم).

زنوبه ـ إيه ده يا عوضين جرنال.

عوضين ـ ايوه يا بت.

زنوبه ـ والأهرام بيجي الحجاز.

عوضين ـ لا ده جرنالهم.

زنوبه ـ مكتوب فيه إيه.

عوضين ـ لازم فيه مسائل الحج والفلوس اللي بتروح علينا زي الولعه.

في حضرة الموظف الكبير

وصل العدد الممتاز برفق الموزع وقدم لصاحب المنصب الكبير وهو يقلب معاملات إدارته موقعاً البعض ومخاطباً صديقه بالتلفون الفاخر عن موعد اجتماعهما لحضور الجلسة المقررة تلك الليلة. قلب الصفحات

بإصبعيه العاملين وقرأ ما رغب في قراءته وترك الجريدة مفتوحة على مصراعيها فوق مكتبه الأنيق وخرج. دخل الخادم وطوى الجريدة وأضافها إلى الأعداد السابقة في دولاب المحفوظات الخاصة.

المزين تختا

تناول التلميذ الصحيفة وفي صالة المزين تختا البخاري مر بنظره كصناديق العيد على أعمدة المقالات وموقّعيها ولم تمض ساعة إلاّ والعدد صار عديداً في جيبه: سأله المزين (إيش في) فرفع التلميذ النجيب بصره وأجاب (الخلاصة أنه الإنسان لازم يخدم وطنه بإخلاص ولا يعتمد إلاّ على الله ونفسه).

المزين: تمام

شخصية نزيهة

في خلوة عن الناس قرأت الجريدة شخصية نزيهة حرة وبعد تصفحها طواها بتؤدة وتنهد عميقاً وبصوت خافت قال (يعيش الشباب).

أديب على الرف

قرأ الممتاز بأنفة وغضب أديب لم ينشر له شيء وبجانبه صديق مادح له وكلاهما مشترك في المطالعة، إلى أن التفت حضرة الأديب لصديقه قائلاً: المواضيع وإن كانت إنشائية ونحويتها لا بأس بها فهي جيدة إلاّ أنها ليست بمفيدة والكتابة يا عزيزي شيء والعمل شيء آخر وما هو مسطور أمر يعرفه الجميع. فأجابه صديقه. هذه هي عين الحقيقة يا أستاذ!!

مسكيـــــن

قابلني من أعرفه تمام المعرفة وهو يحاول أن يكون أديباً فلم يفلح وقد ترك الأدب دون أن يكتب فيه واهتم بالنقد كما يزعم ولكنه نقد شفاهي مع الأسف. وقال اليوم ما شاء الله الجريدة طيبة والشباب بدأ يعرف مواطن الضعف في أمتنا وما ينقصهم من أمور الحياة.

ويسوءني أنهم ليسوا متفقين كما ينبغي والبعض منهم طائش مغرور فكيف يمكنهم أن يصلحوا ما لم يكونوا متفقين متئدين. فقلت له الصراحة تشكر عليها فأجابني كمن (مسك السبع من ذيله) سأعلنها قريباً!!

كــاتــب

قرأ العدد أحد الأدباء ممن كتبوا في الممتاز وسرعان ما قلبه وقرأه وبحث عن موضع مقاله من الجريدة وبعد أن هدأ بدأ يطالع الهوينا للمقارنة بين ما كُتب ومقاله وأبى بصره أن يتحول عن مقاله وتمرد عقله عن حكمه الصارم بأن أحسن ما كُتب هو ما كتبته وبعد ثورة داخلية دامت عشرات الدقائق قرر القرار وصودق ودخل في دوره التنفيذي.

فإذا بك ترى صاحبنا يمشي وهو يتخيل بأن الكل ناظر إليه وأن البنايات مشيرة إليه ويحدث نفسه:

(عدد ممتاز. . بأقلام قوية)

وأخيراً فمعذرة سيدي القارئ فقد أطلت عليك الحديث فيما لا يهمك وأنت يا زميلي الأديب عفواً فكلها مداعبة وإلى الملتقى.

أبو عرب

حاجتنا إلى التعارف(١)

. . . ونظرت بطرف خفي إلى أدبنا الحالي الحديث وما وصل إليه بعد تطورات كما هي سنّة الوجود دوماً ستكون النتيجة في المستقبل المهول المحجوب بستار كثيف وإلى أين يتجه وما هي أهم الأسباب والوسائل في تحسينه فأخذت أفكر هنيهة من الزمن كيف يا ترى يكون عندنا أدب صحيح راقٍ ذو أهمية في حياتنا الاجتماعية ونصبح نكتب ونعرف كيف نكتب وكيف نجاري الأمم في الأدب ونقاسمهم إياه ماذا كان الجواب؟ سيتحقق ذلك إن شاء الله تعالى ولكن على ركنين أساسيين إذا توفرا في الأدب واشتدت عراه وتماسكت أوصاله واكتسح كل ما يعتوره من فتور واضمحلال. **أولاً**: يجب أن تكون الكتابة منقحة من العبارات الركيكة والجمل المتكلفة. والتراكيب المتفككة والأساليب البالية. **ثانياً**: التعارف الشخصي بين أفراد هذه الكتلة المحترمة وهو ما أدعو كل محب للأدب وهو بيت القصيد ذلك هو الركن الأكبر في تأسيس النهضة الأدبية، فنحن الآن قمنا نستطلع الحياة الحلوة في هذا العهد المزدهر عهد الرقي والحضارة، عهد (صاحب الجلالة عبدالعزيز عبدالرحمن السعود) فيجب

---

(١) **المصدر**: صوت الحجاز العدد (٩٤).

والحالة هذه أيتها الرابطة أن نتعارف ببعضنا وننتهز أي فرصة سنح بها الزمن البخيل وتكون أواصر المودة معقودة العرى لا تعمل فيها يد الأغراض النفسية ولا تصوّب سهام الأفكار الشاذة. فمن التعارف نجني ثمرات عظيمة، منها أن نضع المسألة على مشرحة التحليل ونسلط عليها أشعة الأفكار الناضجة القوية لتلفظ الغث وتبقي السمين النافع فإذا تضافرت الآراء وازدحمت عند مدخل التفاهم وتمشت مع التفكير العميق والذوق السليم تخرج حينئذ للأمة أدباً سائغاً للشارب المتطلع للحياة وينجم عن ذلك متانة في الأدب وقراءة لصفحة الغد المسجّى برداء الغيب. أما نحن الآن (اللّهم إلاّ اليسير) لم تكن بيننا رابطة أدبية جسمانية نكون منها جسماً واحداً نقف به أمام سطوة الجهل والجمود المركّب وتوفي للإنسانية المعذبة والأدب حقهما فنتساءل ببرودة (هذه مقالات مين) (مين هذا الشاعر) ولا نعرف روح الشاعر فينا والكاتب والذي حدا بي للكتابة اليوم ما أراه من التنابذ المتفشي فينا نحن هذه الأسرة الجليلة والتباعد المتولد بين الكاتب وزميله لأسباب تكاد تكون تافهة في عين الحقيقة. على أني أقول إن كل كاتب يجب أن ينافح ويكافح عن رأيه إن كان حقاً حتى لا يرتطم بالمغالطة المحضة. وذلك الكفاح لا يتولد منه توتير العلاقات الودية بين الكاتب ونظيره. وحسبي أن أنعم النظر إلى مصر. والعراق. وسوريا. فأجد أن الآراء مهما تباينت بين الكاتب وزميله أو الشاعر والكاتب كالكفاح الذي صار بين الشاعر الخوري والأستاذ الريحاني وإن ذلك الخلاف لن يكون عاملاً في تحطيم الود العزيزي بينهما ما داما يسعيان بجد خدمة للأدب العربي ورفعه إلى المستوى اللائق به بين الأمم. أما إن كان هم الكاتب أو لشاعر الظهور والرياء والسمعة. أو أن

يقال: ذاك الكاتب، فهذا هو المعول الحاد الذي يضرب الأدب على أم رأسه فيسقط هامداً لا حراك به وكأني بسائل يقول: قال علماء النفس إن النفس تود بطبيعتها الظهور والتفاخر. نعم.؟ـ ولكن ليس من مصلحة المجتمع أن يلقى حبل النفس على غاربها وتترك وشأنها لتشبع نهمها لا، بل لا بد من كبت العواطف التي لا تتناسب ومصلحتها وأن نفساً لا تتمشى شهواتها مع نفع الأمة لهي النفس التي قال الله تعالى فيها ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: ٥٣) على أني إذا قلت بكبح جماحها ومنعها من إشباع شهواتها فليس معناه عدم الكتابة والعمل وإنما هو معناه العمل لكن غير الظهور والتفاخر حتى يكون قد ساهم في هذا الواجب الملقى على عاتقه والذي يكاد هو الأمر الحيوي المهم للأمة المتحفِّزة، مهدت بما تقدم لما أريد أن أقوله الآن إذ إنه ليس من الحيف أن نرى ونسمع ما كان بين أديبينا (العواد ـ الأنصاري) وهما في الحقيقة قادة الأدب في الحجاز إن لم أكن مغالٍ في القول ونقف أمامهما مكتوفي الأيدي لا نسعى لإهداء العواطف وإسكان النفوس الجبارة، على أني أقول إن النقد الصحيح كما يفهمه الجميع لا يستلزم البغضاء والشحناء والتحامل الغير اللائق (على وجه العموم) ويجب كما أعرف أن ينتقد الناقد كتابه المنقود على قدر مشربه من الأدب وأن يعطي كل ذي حق حقه نائياً عن الحقد وانتقاد الشخصيات الصحيح نتيجة النقد الصحيح فنحن الآن في حاجة شديدة إلى التآزر والوئام. هذا وقد قرأت مرة لأديبنا المحترم المتألم مقالة قيمة في صوت الحجاز الأغر يطلب منتديات أدبية وغرف للمطالعة فتمثل لأديبنا الجواب:

ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن ضاع نفخك في الرماد

على أنه إن لم يتحصل ذلك فالتعارف الشخصي بيننا نفسه هو يولد تلك المنتديات والغرف ويحقق رغبة أديبنا الفاضل ولكن ليت شعري هل تترك كلمتي في النفوس الحية الوثابة وتنعش روح الأمل في صدور الغيارى أو تذهب (كصرخة في واد) ولكني لم أزل ولا أزال في مقدمة الدعاة إلى التعارف وتحقيق هذه الأمنية التي ستصبح بعد اليوم (أو غد) هدف الناهض وأمل الجميع.

كويتب

حللو الأفكار.. ولا تهلهلوا أصحابها[1]!..

لندع إلى القومية الإسلامية سالكين طرق الصبر والحكمة وليدع أنصار القومية العربية بنفس الأسلوب والطريقة

حللوا الأفكار ولا تهلهلوا أصحابها..

عنف.. قسوة.. شتائم.. مهاترة.. أوصاف يتبادلها كثير من الكتّاب أحياناً في ثنايا الرد على منتقدي أفكارهم. ولقد فات هؤلاء وأولئك أن من أولى دواعي تثبيت الفكرة البعد عن كل ما ينتقص من الكاتب وفكرته، وفي رأيي أن أية فكرة يعتنقها أي فرد لا بد أن يصاحبها تبصّر وتحكّم في سبيل الدعوة والدفاع عنها.. ليست هناك فكرة أو دعوة يمكن أن يقدر لها الانتشار لو صاحبها عنف وقسوة.

هناك القومية الإسلامية، والداعون إليها كثرة من بينها الحكيم العاقل ومن بينها المتطرف الذي لا يكاد يسمع رأياً يدعو إلى سواها أو إلى تجزئة مراحلها حتى يغلي ويثور بل ويرد على هذا بكل عنف، وهناك القومية العربية

(١) **المصدر**: جريدة قريش العدد (١٠)، ٥ جمادى الثانية ١٣٧٩هـ.

ومعتنقوها والداعون إليها مجموعة لا يستهان بها.. منهم الحكيم ومنهم المتطرف وذاك يدعو بتعقل وهذا يريد فرضها ليس على العقول الخاوية وحسب، وإنما على الذين امتلأت عقولهم بالفكرة الإسلامية واستماتوا في الدفاع عنها، والتطرف في كلا السبيلين خليق بصاحبه أن يجنح بعيداً عن الغرض.. ليست القضية قضية تعصّب أو تزمّت أو اندفاع، وإنما هي فكرة انتشرت يراد لها الثبات والتدعيم، أو فكرة انبعثت يراد لها الذيوع والانتشار ولن تتدعم تلك أو تنتشر هذه بواسطة أقلام متطرفة وعواطف ملتهبة تريد أن تأتي على الأخضر واليابس لتقيم صرح جنتها على الأنقاض، وإنما هي روية وحكمة يلزمنا التمسك بها ونحن نحرك شفاهنا وندبّج مقالاتنا لنذافع عن هذه أو تلك، والإسلام الذي هو أصل الوحدة الإسلامية ودعامة كبرى للقومية العربية.. هذا الإسلام أمر حامله بالدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وليس هذا فحسب بل إنه أمر الداعي إلى هذا السبيل بأن يدفع معرقليه بالتي هي أحسن؛ وكان الله حكيماً حينما بيّن لنا ولكل داعٍ إلى سبيله أنه سيجني ثمار الدفع بالتي هي أحسن بذوراً تنزع العداوة من مناهضي دعوته وتحولهم من أعداء ألداء إلى أصدقاء حميمين وقال بعد ذلك وهو أعز القائلين (ولا يلقاها إلاّ الذين صبروا ولا يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم).

ولا أشك أبداً في أن كل داعٍ إلى فكرة سامية لا يريد إلاّ أن يقلل من أعدائه الألداء وأعداء فكرته المتزمتين ليضمن ذيوع فكرته، ولا أظن كل داع إلاّ أنه يريد أن يسمو بنفسه لتواكب سمو فكرته ولا أظن أن كائناً من كان يريد أن يوصم بنفاذ الصبر أو يلازمه سوء الحظ وتعاسته، فكيف بالدعاة المفكرين وقد آثروا العنف والشدة كسبيلين يدعون في حدودهما إلى أفكارهم ومبادئهم وكأني بهم قد فضلوا جني العداء وخسران الأصدقاء

وبالتالي كسب حظ تعس وصبر نافذ حتمهما الخالق خاتمة لمطاف دعاة الشدة الذين آثروا السير في طرق غير التي رسمها لهم.

إن معتنق الوحدة الإسلامية تماماً كمعتنق فكرة القومية العربية لم يعتنقها إلاّ بعد معرفة، ولم يعرفها إلاّ بعد تجارب، ولم يجربها غلاّ بعد أن أحس بها تتغلغل في مشاعره، ومن ثم اعتنقها. ومعتنق ذاك شأنه لا شك قادر على إيضاح سبل فكرته وعارف لمبادئها وكل الدعائم التي ترتكز عليها، فلماذا لا يقتصر في جهاده على شرح فكرته وتلك قدرته؟!

إن اعتناق المرء لفكرة معينة قد يعني جهله الحسّي التام بما عداها من أفكار مناهضة أو عدم إلمامه بها على الأقل.. وهذا حتماً لأنه يستحيل على مشاعرنا السماح للفكرتين معاً بالتغلغل في أحاسيسنا، وبهذا أصبح كل معتنق لإحداها جاهلاً بالأخرى حسياً ولا أقول عقلياً.

فلندع إلى القومية الإسلامية سالكين طرق الصبر والحكمة والموعظة الحسنة مبينين فواصلها ودعائمها. أسسها ونتائجها والثمار التي قدمتها شارحين الأسباب التي نرى أنها تفضل مثيلاتها والمحاصيل الأجنى من ورائها داعين معتنقي الفكرة الأخرى إلى التبصر والتروي مقدمين كل المبررات التي نراها كفيلة بخلخلة ما يعتقدونه وما نراه خاطئاً بعيداً عن الصواب دون أن نمس أصحاب الأفكار ونخلط أو نمزج بين الفكرة وصاحبها، وليدع أنصار القومية العربية بالأسلوب نفسه والطريقة ذاتها دون محاولة فرض أفكارهم على الآخرين، ولندع الأفكار وحدها تتغلغل في النفوس الخاوية ـ إن وجدت ـ لتعتنق الصالح منها ولندع المؤمنين بفكرة ما يدرسون الفكرة الأخرى دون أن نستفز شعورهم ونحرك أحاسيسهم.

دعونا نهلهل الفكرة التي قد نراها غير صالحة لتحليلها وإظهار مساوئها دون أن نمس عقائد أصحابها، وأية فكرة لن تعيش إذا لم تجد تربة صالحة لها وكل فكرة صالحة كالبذرة الطيبة يدعو لها ويخدمها الفلاح الجيّد بفأسه الواعي ويهيئ لها الأرض الصالحة بتقاويه المنتقاة، ولن تعيش بذرة قدر لفلاح جاهل أن يحملها إلى أرض قاحلة ويستخدم فأساً يخبط به خبط عشواء!

دعونا نمسك الأفكار لا أصحابها فالمزج بينها ضار غير نافع. دعونا نمسك الفكرة فهي وحدها التي تعيش. أما صاحب الفكرة فزائل لا محالة. فإذا ما أردنا لفكرة ما أن تموت فلنجاهدها وحدها بالتي هي أحسن لأنها أخطر من حاملها واحتمال نموها وتغلغلها أكبر كثيراً من عمر الأفراد، وإن الخالطين بين الفكرة والمفكّر لا بجنون سوى المتاعب، والخالطين الداعين بشدة لأفكارهم لن يكونوا صابرين مدعمين بحظ عظيم.

ربما يغضبنا من يمس معتقداتنا فلماذا نثور ونغلي ونغضب ونحن نزعم أننا أشداء أقوياء. وقد قال سيد البشر عليه الصلاة والسلام ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب، وربما يستفزنا أحدهم فلماذا نكيل له التهم والسباب ونزعم بعد هذا أننا نحمل فكرة أسمى أو رأياً أفضل.. لا يمكن لحامل السمو أن يغوص في الوحل ولو حدث وغاص فيه فإنه لا شك وعاء ينضح بالحقد والكراهية.. وعاء لم تعرف الأفكار السامية سبيلها إليه.

فلندع إلى هذه أو تلك ولكن بكياسة لا غضب فيها مهما قوبلت دعوتنا بالصعاب، فالغضب لم ولن يولّد إيماناً وعقائد وإنما يولّد الحقد والبغضاء وربما الانفجار، وبالصبر والتروي المصحوبين بالحكمة والدهاء نزعزع

الاعتقادات الفاسدة وندمرها وبالتالي نكسب معتنقيها القدامى إلى جانب دعوتنا. . إن اجتثاث جذور أشجار غابة جرداء ذات أصول عانية لنحولها إلى جنة خضراء مورقة لن يتأتى لنا بالتدمير السطحي ولن نخلق جنة نريدها دون عناء وكفاح وإنما لا بد من التعب والشقاء لكي نصل إلى الهدف.

قلبكم هو السبيل وعواقبه مأمونة حتماً إذا أحسنًا اختيار المؤن الطيبة الكافية. . (حللوا الأفكار ولا تهلهلوا أصحابها) ادعموا آراءكم واحترموا في الوقت نفسه آراء الآخرين. . تلك هي سبيل الموعظة الحسنة وذاك هو طريق الدفع بالتي هي أحسن. .

أقولها و. . . !

كاتب هذه السطور موظف في المرتبة الرابعة لا هو بالكبير ولا بالصغير. وقد سئل ذات يوم من مرجعه عن مؤهلاته الدراسية فقال (بدون) ثم ذيلها بالشرح التالي. . تلك إجابة أفخر بها وترضيني إلاّ أنها قد لا تكفي وقد لا ترضي الباحثين عن الشهادات، ولكي أرضي هؤلاء أجدني مرغماً على الخوض في بواعث فخري. . لم أتخط الخامس ابتدائي وإن نمت عامين في السادسة طلقت بعدها حياة المدرسة ولا أقول الدراسة، ولقد كنت بليداً في مدرستي بكل ما في هذه الكلمة من معنى. وما لها من فروع. . هذا عن المؤهلات المدرسية التي لا أذكر من مقوماتها شيئاً اللّهم إلاّ الحروف الهجائية. . . ولا يعدل فخري بالماضي إلاّ فخري بالحاضر. . حاضر لا أستطيع تحديد مداه وإنما يبلغه من شاء وقتما يريد. . هذه إجابة وتلك صراحة أحسب أنها تعون الكثيرين؟

ميمان كويتب

حنـفشعـيات(١)

شعر وشاعر!!

أما الشعر فقصيدة طالعت بها صوت الحجاز قراءها في عددها الماضي، على أنها من الشعر العصري الرشيق. وأما الشاعر فهو عباس أفندي الحلواني المعدود بين أدبائنا الممتازين في جدة..

وقد مارس الشعر منذ يفع؛ وهو اليوم والد ثلاثة غير من ودعوا الحياة زاهدين فيها.

وقد صهرته الأحداث، فتقلّب في أعطاف النعيم المتاح حيناً، واكتوى بوغرة الشقاء، وشظف العيش حيناً آخر حتى انتهت به سبيله الوعرة إلى وظيفة هادئة في إحدى الشركات الغنية، تدر عليه أجراً شهرياً ضمن له الكفاف.. والشعر...

وشاعرية الحلواني؛ دعوى لا يستقيم عليها دليل، بعد اعتراف الدهماء، وبعد اعتراف جماعة من أصدقائه الأدباء!! وفي الدنيا متسع للناس أجمع ولآرائهم، وإن فات الحلواني أن ينتفع بهذا الاعتراف، فإنه لن يفوت

---

(١) **المصدر**: صوت الحجاز العدد (٢٣١).

أصحابه أن ينتفعوا بثواب حسن النية فيه إن شاء الله. ولن يفوتنا أيضاً! أن نتازعهم نصيبنا في هذا الثواب حباً في الزلفى إلى الله.. وإنها لفرصة!!

وأما ما يهم القارئ بعد ذلك، فهو أن الحلواني مجدد ثائر، وآية ذلك ماثلة في قصيدته، لن يخطئ المتلمس البصير آثارها ودلائلها.

وهو وطني أفناه طِلاب المجد لبلاده حتى أفلست أعصابه وتهلهلت، فأحب فتاة (وطنية!) بعد أن عاد من باريس وتدلّه فيها. وكانت محبوبته عامية جاهلية فأثر فيه جهلها وعاميتها، حتى فسدت ملكته وانقلبت لغته الشعرية خليطاً من العربية والفصحى، وبقيت له من الشاعرية صبابة أراقها في هذه القصيدة التي ما نشك أن شاعريته تودع بها آخر أنفاسها إلى عالم الفناء والتلاشي..

قال مهّد الله له سبيل الشفاء من هذا الغرام العنيف:

أنت أبهى من أهل باريس أنت   أنت يامي، متعة الناظرينا

وأهل باريس ـ كما يعلم القرّاء ـ ليسوا ملاحاً كلهم، وفي باريس، كما في غيرها، الكسيح؛ والأعرج، والشوهاء والدردبيس ولعلّ كل ما في باريس من الجمال لا يبلغ معشار ما فيها من المقابح والعيوب.

ولو قال الشاعر إن محبوبته، أكثر ظرفاً من أهل باريس، لتسلّح بدليل ضعيف من غلبة الظرف والأناقة عليهم.

ويقول:

أنت ياميّ أطيب القوم أنت   كم بغنج العيون وجدي أهجت

كم بسحر اللحاظ قلبي أذبت   كم بفرط الجمال لبّي سلبت

أنت أبهى من أهل باريس أنت   أنت غوث الكئيب لو تعدلينا
لا تغضي عينيك عني فتاتي   فدوائي قد قال عنه أساتي
نظرات من طرفك الوسنان

والقوم شيء لم تسبق إليه إشارة، ولم يقل الشاعر أن حبيبته أطيب الغيد مثلاً لأنه يحب المبالغة، ولماذا لا يعطي دعواه معنى الشمول، فيزعم أن حبيبته أطيب القوم (أي قوم؟؟) رجالاً ونساءً ما دام للرجال جمال لا ينكره الناقدون؟ وليت كلمة الناس لم تضق بالشاعر في موضع القوم إذاً لأعفانا، وأهل باريس، من هذا الهذر.

وطيبة حبيبة الشاعر، ما يشك فيها إلاّ متعنِّت؛ ولو لم تكن طيبتها أبرز صفاتها الحسنة. لما احتملت هذا العاشق الفاني يقرع سمعها بمثل هذا الغزل الضعيف الذي يشبه رقي السحرة، ودمدمة المشعوذين وعبث الحواة...

ويطالب الشاعر حبيبته بالغوث، ولا ندري من ماذا!؟ ويتهمها بالجنوح عن العدل، ويزعم أن الأطباء قالوا له إن نظراتها دواؤه. وهذا كذب صريح على الطب والأطباء.. لأن هذا سبيل الدجاجلة الذين لا يتحرج الشاعر من تسميتهم أطباء وهو خلط كان ينبغي أن يعاقب عليه وما كان أجدر حبيبته بأن تكون منومة مغناطيسية تداويه مما ألم بأعصابه.. وليتجاوز معنا القارئ أبياتاً هزيلة يصف فيها الشاعر ريق حبيبته، ويشبهه بالطلاء ويثب إلى قدها اللدن ليقول أنه غايته وصفاؤه.. ثم ليستعذ القارئ بالله ويقرأ..

أنت أبهى من أهل باريس أنت   (أنتَ توحي) القريض للشاعرينا

فالشاعر هنا يخاطب حبيبته بصفة التذكير، يقول (أنت توحي) في موضع (أنت توحين!!) ثم يعاوده صوابه فيقول غير نادم ولا معتذر:

فألهميني أو أرجعي لي مهاني بعض ما قد سلبت (أعني ثباتي)

وهنا خطأ كان يتحرز منه الشاعر لو قال (كلما قد سلبت، أعني ثباتي) لأن ثباته على نظم هذا الشعر الفج في سن النضوج الفكري خليق بأن يعد بطولة نادرة. وماذا يبقى للحلواني بعد استثناء ثباته هذا، إذا كان مريضاً غير موفق في حبه، ولا في جهاده الوطني، ولا في القدرة على الكلام بلغة أجداده الذين يتيه بهم ويفخر؟ ليس إلاّ الثبات. وإذاً فهو كل ما سلبته الحبيبة من الشاعر لا بعضه كما زعم حين خامره شعور الفخار؛ طاوياً في أردانه الواسعة همزة التعدية في: ألهميني كأن هذا دليل بره بأجداده؟؟!

ويعترف الشاعر في بساطة لحبيبته أن بيانه لا يمكن أن يكون ساحراً، إلاّ إذا ردت إليه ثباته المسلوب، ونحن نتوسل إليها، وننصح لها، ألا تنيله بغيته، رحمة برؤوس القرّاء، فقد قرأنا له شعراً قبل أن يحبها، وقبل أن يرى (أهل الأسماء المستعارة التي كان يوقع بها الأديب حمزة شحاتة بعض مقالاته باريس) فلم نستسغه. ولها عهد الله علينا أننا لم نقل إلاّ صدقاً!!

ويتأوه الشاعر ويقول:

.. لو كنت تشعرين شعوري حين كنا في الروض قرب الغدير
نتهادى حديث سر خطير إذ بدا البدر فالتقى بالنظير
أنت أبهى من أهل باريس... زوديني ما شئت من قبلات
وخذيني (كالطفل بالأحضان)

ما نظن هذا السر الخطير الذي كانا يتهاديانه إلاّ سحر بيان الشاعر وحبه وجهاده.. وإلاّ حكايات عن باريس وأهلها..وهو حديث لا نعرف موضع الخطر فيه والله يشهد أنا لا نتعنت على الشاعر...

ويزيد بلبال الشاعر فينقلب طفلاً وتنقلب الحبيبة أمًّا (تاخذه بالأحضان).. ويتوسل إليها أن تمطره القبلات، كأن الله لم يخلق له فماً يقبلها به.. وكأن فلسفة الحب عنده أن يتوسل ويطلب، لا أن ينشط ويأخذ، ويدلل على رجولته. ولهذا الغرام أشبه بغرام المرضى والمقعدين لا بحب الأقوياء الأصحاء..

ويقول:

أنا مضناك ما حييت فهاتي   من رحيق في الثغر باهي الصفات

رشفة تبعث الهنا في الجنان

يؤكد الشاعر لحبيبته أنه سيبقى مضناها ما عاش فلو مد الله في عمره قليلاً حتى شارف الأربعين، وهو نضوج هزيل لكان حبه إياها كارثة تسحق صباها سحقاً، وتنزلها من الحياة في مطمورة مظلمة..

ويضيق صدره بالتدليل والإسراف في تصوير حبه، فيختصر الطريق ويقول لها في أسلوب عاميّ مبتذل (هاتي من رحيق في الثغر باهي الصفات).. و..

حدثيني معبودتي «وتعالي»   نحو هذي الربى وتلك الطلال

نذكر الأهل والدهور الخوالي   وجدوداً هم صفوة الأبطال

أنت أبهى من أهل باريس...

ينادي الشاعر هنا حبيبته نداء المذكر، وهذا تجديد وثورة على أوضاع اللغة القديمة ولا نقول أنه جهل، لأن المفروض في شاعر كالحلواني أن يكون محصوله اللغوي جيداً ممتازاً..

ومن آثار هذا التجديد أن الشاعر يجمع طللاً على (طِلال) وهو جمع لا تشفع فيه إلاّ ضرورة القافية، والميل إلى الانطلاق والتحرر..

ويسبح الشاعر في ملكوت خياله، ويصيبه ما يصيب المتواجدين في حلقات الإذكار..

وتدنو منه حبيبته ملبية نداءه فلا ترى إلاّ (حانوتياً) ينبش الأكفان، وينشر الرمم

.. ونفرض أنه استهواها هذا الدرس فأخذت تنوح على الماضي، وتترحّم على التاريخ القديم، فإنها لا تلبث أن تفيق على القَفْلة البارعة التي تشبه قفلات الطقاطيق الغنائية الدارجة...

أنت أبهى من أهل باريس...

ولكنا نرجح أنها ستكون أكثر شفقة عليه في هذه (النوبة) عندما يلهمها هذا الخلط والتنافر أنه أصبح لا يعي ما يقول، فهو في غيبوبة عميقة أُنْسِيَ معها الترابط اللفظي قبل المعنوي، كما قد أُنسيَ. شناعة المفارقة بين مواقف الحب الأصلية ومواقف التطوع بإلقاء دروس في التاريخ القديم على حبيبته العامية.

ونراهن من شاء على أن أية حبيبة لن تفهم من عاشقها معنى محدداً لهذا القول:

أنت قد ما قد كنت شيئاً ثميناً غيـر أن الـزمـان أبـلـى حـمـاتـي

وكان من حق الزمن وقد أبلى حماة الشاعر، أن يستبقي حماة هاته الفريسة ليدفعوا عنها هذا الخطر المحدق!!..

ويفطن الشاعر أخيراً لتوجّع حبيبته وانكسارها وسهومها، فيقبل عليها تدليلاً ويمهد أمامها سبيل العزاء فيقول:

يا ابنة العرب، يا سليلة قوم   قدّسوا العلم (إذ جفوا كل ضيم)

فتخرج المسكينة من هذا الشطر الحكيم بقاعدة جديدة تتلخص في لزوم جفاء الضيم لكل من أراد تقديس العلم...!

و...! وتنعدم الفوارق الجنسية بين الشاعر وحبيبته، ويختلط عليه الأمر فلا يدري، أذكر هي أم أنثى، ويصرف إليها الخطاب هكذا:

كيف أصبحت «تقبلي» كل لوم..

و«تقبلي» هذه إن كان الخطاب فيها موجهاً إلى الحبيبة ـ وهو ما عناه الحلواني الشاعر طبعاً ـ لا يصح أن تأتي هكذا زعراء مبتورة فإن لها ذيلاً أفلت من يد الشاعر.. وهو نون المضارعة في التأنيث «تقبلين»..

وبعد أن يندب الشاعر حظه ويدعو على عداته بحرقة الضعيف العاجز عن الانتقام تحض عزيمته على الموت صبراً في قبر لا ينسى أن يحرم (الحفار) من حقه القانوني فيه، فيدعو حبيبته إلى مشاطرته عناء حفره وسكناه، وإنها لنهاية طبيعية لمثل هذا المجد والحب والشعر!! وما أخلق القبور بأن ترحب بكل ما تلفظه الحياة من نفايات ومقابح...

هول الليل[1]

(١) أحد الأسماء المستعارة للأديب حمزة شحاتة التي كان يوقع بها بعض مقالاته.

حمار حمزة شحاتة

تقديم

بقلم الأستاذ عبد الله عبد الجبار

نحن تجاه قطعة أدبية إن لم تبلغ الطول الذي اصطلح عليه عادة نقاد الغرب فهي كذلك ليست قصيرة إلى الحد الذي تدخل به في الكلمات القصار التي تكتبها الصحف السائرة اليوم كفكرة الأستاذ علي أمين بجريدة الأخبار مثلاً... إنها قطعة بين بين...

ثم هي بعد ذلك فكرة جديدة ـ أو على الأقل ـ في إحساس كاتبها الأديب السعودي فهي حين كتبها قبل أكثر من ربع قرن لم يكن توفيق الحكيم الأديب الجهير قد أصدر كتابه «حمار الحكيم» و«حماري قال لي» ولم يترجم كذلك رائعة «خيمنيز» «أنا وحماري» وإذا رجحنا أنه قرأ كتاب «خواطر حمار» للكونتيس «دوسيجور» فإننا نلاحظ أنه لم يسرق من ذلك الكتاب ولم يتأثر بتلك الخواطر أو المذكرات التي يرجح أن توفيق الحكيم قد تأثر بها واقتبس منها.

ولما شرع حمزة شحاتة في كتابة سلسلة مقالاته الأدبية تحت عنوان «حنفشعيات» بجريدة «صوت الحجاز» حرص على أن ينوه في تمهيده لها بما يتوخاه من الجدة والابتكار فقال:

«فليسخر الأدباء من هذه الحنفشعيات. وليقولوا عن أسلوبها إن المتانة تنقصه وإن ألفاظها لا تترابط فنياً أو موسيقياً، وليصبوا عليها كل ما تعلموه من العقاد والمازني وطه حسين ومن كل أديب في مصر وسوريا والمهجر.

ليسخروا ما شاؤوا فإنا لا نختار أن نكذب على الواقع، ولا نختار المشي على أيدينا ورؤوسنا فإنما خلق الله الأقدام وحدها للمشي.

وبعد، فإنا لن نقلد أحداً، ولن نسرق، وحسب القارئ منا هذه الأمانة في الوقت الذي عمت فيه فوضى التقليد، وأصبحت كثرة الأدباء لصوصاً، وغدا الأدب «لصوصية» لا يطلب للبراعة فيها أكثر من جلادة الوجه، وخفة اليد، والصبر على المكابرة».

وسرعان ما ندرك من مفاتح كلامه، أن الكاتب يريد أن يتحدى المتعارف المألوف الذي استقر في نفوس الناس جميعاً من أقدم العصور عن الحمار، وإذا كان الحمار لكثرة ما ركبه من الامتهان أصبح مرادفاً للاحتقار فإن كاتبنا يرى فيه شيئاً جديراً بالاحترام إذ يقول: «في الحمير شيء جدير بالاحترام والدراسة» ثم يمضي في تبيان منافع الحمار، وشباته الظاهرة وأخلاقه السامية.

والواقع أن هذه المقالة يمكن أن تقسم إلى قسمين، لأننا نتبين فيها شيئين:

١ـ مرافعة عامة عن الحمير ضد بني آدم المستبدين المعتدين.

٢ـ وصف الكاتب لحماره الصغير ورحلته عليه مع صحبه في نزهة قصيرة.

كانت مرافعة قوية ممتعة عن الحمير عامة... تلك التي مهد بها للحديث عن رحلته على حماره الصغير...

تناول بالوصف الصفات الجسمية للحمار، فأشاد بفراهته ولطف حجمه وتناسق حجمه وحلاوة حركاته ونظراته، ونوه بأناقته ووجهاته وابتسامته الخفية وفي ذلك يقول:

«. . . وفي الحمار خفة، وفي حركاته حلاوة، ونظراته لا تخلو من معان تفيض منها العذوبة. . وفيه أناقة ووجاهة يفوقان كثيراً من الآدميين، وله ابتسامة محجوبة يدركها ويدرك موضع السحر والفتنة فيها كل من يعنيه من أمر الحمير ما عنانا».

حتى صوت الحمار، مع اعترافه بأنه أنكر الأصوات، لم يعدم وسيلة للدفاع عنه وسيلة نفذ منها إلى التنادر على بني آدم والسخرية بأذواقهم، والتماسهم الحرية لأنفسهم دون غيرهم، والتنديد ببعض المطربين والمتشاعرين. يقول:

«وصوت الحمار من أنكر الأصوات، ما ننفي هذا، أو هو أنكرها، إن كنا نعتبر النعومة والاعتدال، كل مقومات الصوت الحسن، أما إن جربنا في نقد الأصوات على النهج المصري الجديد الذي لا يدين إلا للمقدرة الفنية في التأليف والتوزيع، وأحكام النسب وتحريرها. . . وإنكار النعومة واعتبارها أنوثة لا تليق بفن إنساني يقود الأفكار والعواطف والمشاعر كالغناء، كان الحمار معدوداً في طليعة الموسيقيين الموهوبين.

وقد يخطر لحمار أن يرفع عقيرته مغنياً ليطرب أمثاله. . . فيضحك الناس ويمطرونه وابلاً من الشتائم والازدراء. وفي هذا حجر لا شك فيه على الحرية الشخصية كان من الواجب أن يتنزه عنه الإنسان تسامياً بذاته. وماذا بقي للحمار من الحقوق إن حرم الحرية من استعمال هذا الحق؟؟

والناس؟؟ أليس فيهم من إذا قيس صوت الحمار بصوته، كان آخر القرينين، وأخلاهما يداً من أدلة الفوز؟؟ . .

والحمار أرق ذوقاً في هذا، فما يفاجئ الناس [أعني الحمير!] بالغناء إلا عندما يكون المجال مهيئاً لمثل هذه المفاجأة، أو تكون المناسبة من دواعيه. . .

. . . ولكن الإنسان يدندن حيثما اتفق له أن يفعل، ويكفي أن تتهيأ له دواع من نفسه، أو من خياله المريض، حتى يندفع في ذلك الهواء المغثي غير عابئ بما يصبه على رؤوس الناس من هول وألم. . .

والحمار إذا غنى [أي إذا نهق] لا يقول شعراً ولا يردد كلاماً فهو في مأمن من اللحن والتكسير، وتقبيح الألفاظ والمعاني ومسخها وتشويهها. . والإنسان على عكس ذلك يجمع على السامع مصابين، ويغنيه بحماقتين. . ومالنا نقارن بين الإنسان والحمار وهي مقارنة لا يرضاها كلاهما، على ما نعتقد».

وكما أشاد بالصفات الحسية للحمار، أشاد كذلك بصفاته المعنوية والخلقية كالنشاط والجاذبية والقدرة على الاحتمال واللطف والتواضع والوفاء وإنكار الذات فهو في رأيه من أنشط الدواب، وأقدرها على احتمال المكاره، وما من شك في أنه كان من أكثر الحيوانات طيبة وفيه جاذبية لا ترد إلا إلى شيء خفي وراء لحمه وجلده وشياته الظاهرة. . . وهو جم اللطف والتواضع وفيه إنكار عميق للذات ووفاء يجب أن يكون مضرب الأمثال. . .

وأشار إلى ديمقراطيته وهدوئه وأدبه فقال:

«وفيه ديمقراطية تصرفه عن الخيلاء، فهو أبداً مقضى على أخلاقه وعاداته وميوله التي يندر أن لا تكون هادئة جداً، في سبيل إرضاء صاحبه أو راكبه. . فيكون مؤدباً على أن يسير سيراً ليناً موزوناً، فيأبى ممتطيه إلا أن ينهب به الأرض ركضاً كالخيول في الطراد، فلا يجد في ذلك غضاضة

على ما فيه من إجهاد له، ومصادرة لإرادته وطبعه وإفساد لآدابه وتقاليده».

ويرى في الحمار فكاهة جميلة تدل على ظرف أصيل، فقد شاهد ذات مرة حماراً يحمل رجلاً له سمت وأبهة، وكان الحمار مقدراً هذا وشاعراً به، ففي مشيته وقار، واتزان حركاته، دليل على ذلك. واتفق أن أفلت من الرجل صوت مسموع... فحبق الحمار بدوره ملوحاً بذيله في مرح وخبث... وكان الموقف تجاوباً فنياً بين الرصيفين.. اتسعت معه حدود الحرية بعض الشيء...».

وكما دافع عن صوت الحمار، دافع كذلك عن حرانه وعناده مؤكداً أن العناد صفة من صفاتنا نحن البشر أسبغناها على الحمير، وفي ذلك يقول:

«والعناد ـ على أنه رذيلة أو شذوذ مكروه ـ إنما هو صفة من صفاتنا وليس في نظرة الحمار، وفي مطالب عيشه ما يقتضيهن فلم يكن مقدراً للحمير في ما نرجح أن تحمل على ما تأباه فطرتها، وتنكره طبيعتها، ولا أن تحمل، من حماقة غير أبناء جنسها، وشذوذ تصرفاتهم ما يثير فيها روح العناد ويقويها حتى تنقلب طبيعة ثابتة أو صفة لاصقة!!!».

ومجمل رأيه في الحمار أنه أكثر الحيوانات شبهاً بالإنسان الكامل من النواحي النفسية والمعنوية يقول:

«ونحسب أن الله خلقه ـ أي الحمار ـ على أن يكون خير المخلوقات وأكثرها شبهاً بالإنسان الكامل من الناحية الخلقية، والنفسية وأن يباعد بينهما في الخلقة والإدراك والمقدرة على استخدام الفكر والتصرف بالإرادة ونستبعد أن تقترن بهذه الفضائل الممتازة، رذائل تتنافى في جوهرها، وسماتها الأساسية، مع تلك الفضائل الثابتة».

٢ـ ثم انتقل إلى وصف حماره ورحلته القصيرة على ظهره، مستهلاً كلامه بقوله:

«أما حماري الذي أمهد للحديث عنه بهذه المقدمة... فهو بدع بين الحمير.. وأقسم بالله أنه لو كان إنساناً لكان مكانه بين من تشتغل الدنيا بذكرهم من العظماء والفنانين ظاهراً ومرموقاً».

وبعد أن وصف حبه للحيوانات الأليفة وما بينه وبينها من تجاوب روحي يمضي في الحديث عن حماره ورحلته ويقول: «وقد أنس حماري ـ على ما يظهر ـ مني هذا الشعور الطيب أو تمثله في وجهي أول ما تلاقى نظرانا فانفجرت شفتاه عن ابتسامة فاتنة فمسحت له عنقه، ولعبت أناملي بأذنيه الناعمتين رداً لتحيته الرقيقة، فأخذ صدره يعلو ويهبط تأثراً بهذه العاطفة التي بادلني إياها وبشبقات حارة.

«وأقبل رفاقي على اختيار حميرهم، وكان لكل منهم طريقة تختلف عن طريقة الآخرين وأسفرت عملية الانتخاب عن سقوط حماري فيه لفتور نشاطه وضآلته، وبقي كلانا بلا رفيق فبسطت يدي إليه.. وكنا رفيقين.. ولم تكن لي علاقة بالحمير قبل هذا الرفيق الوديع، ولكن مظهره ونظرته أوحت إلي الثقة به، والاطمئنان إليه.

وركبنا وكنا خليطاً لا تؤلف بينه الإنسانية الصحية، وكانت حميرنا مثلنا في هذا فكان بينها الحمار الحضري، والبدوي، والأنيق والبوهيمي...

ولم يكن لحسن الحظ حماري عصبياً فتم التفاهم بسهولة بيننا ولم يكن مقصراً في ما يجب عليه ـ كحمار كامل ـ فكان يسرع في الأرض السهلة ويتئد في المضايق والوعور، ووجدت بعد لحظات أن في وسعي الاقتناع بوجاهة تصرفاته علاوة على أنها في مصلحتي.. فاعتمدت عليه وأوليته ثقتي ولففت مقوده على عنقه.

وبالرغم من أن صحبي كانوا يؤكدون أن الطريق إلى اليمين معولين على خبرة حميرهم أو خبرتهم فقد وضح أخيراً أنه أكمل خبرة ـ على حداثة سنه من الجميع ـ فقد وفر علينا ربع المسافة تقريباً».

وحينما صاح أحد الرفاق: [قد وصلنا] أبى حماري الوقوف ولم يجد الصحب ـ أي الحمير ـ بداً من إتباعه على أن أشرف الركب على صخور يتفجر منها الماء وتغطيها الأعشاب. فترجلنا وانطلقت الحمير ترعى وتشرب.

ويختتم مقاله عن الحمار بقوله: «واستطاع حماري أن يملأني إعجاباً به، حتى اللحظات الأخيرة وفارقته بعد أن اعتنقنا طويلاً على أمل اللقاء، وما أزال أحس في نفسي حنيناً وشوقاً ينزعان بي إليه نزوعاً ملحاً».

وبعد فهذه ذكرى صحبتنا الهادئة، أبعثها كتحية إلى ذلك الرفيق الطيب».

أوجه الشبه بين حمزة شحاتة وحماره:

والفنان ـ في كثير من الأحيان ـ لا يملك إلا أن يعكس نفسه ومزاجه وإحساسه على فنه. سواء كان ذلك عن وعي أو عن غير وعي. والذين أتيح لهم أن يخالطوا حمزة شحاتة ـ عن كثب ـ خليق بهم أن يلاحظوا تلك المشابهة بين شخصيته وشخصية حماره.

كان حماره ـ أو جحشه الصغير ـ الذي لا يزيد أكثر من سبعين كيلو ـ في خرجته مع الركب يتجه نحو اليسار على حين تتجه الحمير جميعها ناحية اليمين، فهو في هذا الحال يميل إلى التفرد والانطواء ومخالفة التيار العام تماماً مثل صاحبه حينما يتقوقع في حدود ذاته وينطوي على نفسه وكتبه ويتأمل في الكون والحياة ويشرح المجتمع الذي يعيش فيه ويعري

الإنسانية من أرديتها الزائفة حتى تغدو، بشرية سافلة خير منها ألف مرة تلك الحيوانية التي لا يحكمها إلا قانون الغاب.

وما أعجب منظره ـ وهو في لبسه المتفضل لا يرتدي إلا قميصاً رقيقاً وإزاراً يكشف عن ركبتيه، وعيناه اللتان أعياهما الجهد تطلان على هذا العالم من خلال منظار سميك كأنه المهاتما غاندي يتفكر في وسائله السلبية وأسلحته السلمية التي يطرد بها الانجليز من بلاده، مع فرق بسيط هو أن غاندي كان رقيق الجسم وصاحبنا عملاق ضخم.. أو كأنه ـ وهو يداعب مبسم شيشته ويطرب لكركرتها ـ فقير هندي يداعب ثعبانه ليرقص على نغمات مزماره.

إنه في مثل هذه الخلوات الانطوائية يفكر، ولكن فيم يفكر؟؟ إنه يفكر في مشكلة جديدة يحل بها مشاكله العديدة في هذه الحياة. إنه رجل يسعى وراء المشاكل والمشاكل بدورها تسعى خلفه وتطارده.

حماره، الذي ينعزل عن الجميع ويميل إلى الاستقلال ويكون وحده حزباً للأقلية وهو مثل حماره يعتزل الناس ويطيب له الاستقلال، ويكون وحده أو هو وحماره حزباً يصارع التيار.

وحمزة شحاتة ساخر مغرم بجمال الطبيعة ومرائيها الجميلة، وكم تمنى لو قضى حياته في كوخ صغير على شاطئ نهر يستمتع بالماء والهواء والشمس والقمر والنجوم والأزهار والأشجار وموسيقى البلابل ونوح الحمائم ولوحات الطبيعة البارعة التي رسمتها يد الله.. وحماره كذلك شاعر مفتون يحب الطبيعة. يقول عنه: «وكان حماري ـ دون الجميع ـ متنبهاً لدقائق واديه الفاتن... وكانت تدور في رأسه بالتأكيد خواطر، وتتجلى في نظراته النشوى معان ليحلها من خير الشعر وأروعه، لو كان إلى تصويرهما من سبيل، وصاح أحد الرفاق: قد وصلنا. وترجل عن حماره،

ولكن حماري أبى الوقوف وأخذ يوغل بين الجبال، فأدركت أنه يعد لي مفاجأة سارة، ولم يجد الصحب ـ أي الحمير ـ بداً من إتباعهن وكان أن اجتزنا مضايق صخرية انفرجت بعد دقائق عن صخور يتفجر منها الماء وتغطيها الأعشاب ويعطر جوها شذى الشيح والحبق. وتضفي عليها السكينة أردية من السحر والفتنة والجمال.. وثملنا وانطلقت الحمير ترعى وتشرب، وتتوثب وتضطجع وتنهق نهيقاً موسيقياً لا اعتراض عليه.

إنسانيته:

وتبدو مشاعره الإنسانية العالية في مشاركته الوجدانية للحيوانات الأنيسة جميعاً وتجاوبه الروحي مع الحمار بصفة خاصة.. حتى لقد فكر حينما أحس بإعياء حماره الصغير أن يحمله على ظهره. يقول: ولاح لي في النهاية أني على استعداد لحمله لو أعياه الجهد، ولا أحسب أن ذلك يضيرني، فهو خفيف الوزن والروح. ويستحيل أن يتعدى وزنه سبعين كيلو.

ولا أكتم القارئ أني نشأت مفرط الحنان على الحيوانات أو على ما يشاطر الإنسان معيشته منها. وقد كنت أرى أن عشرتها الطويلة لنا يجب أن تنشئ بيننا من القرابة [المعقولة]. ولا أنسى طبعاً أن منها ما لا يستحق هذا العطف، كالبغل مثلاً فإن ماضيه من الغلظة الواضحة والميول المتشبعة بالشر والخشونة، ودلائل الجمود الشائعة في قسماته النافرة ـ خليق بأن يبقى هكذا، محدود العلاقة بالإنسان...

والحيوانات عندي جزء من الطبيعة التي نرتاح إليها ونحبها، ونربي كثيراً من ملكاتنا الفكرية ومشاعرنا النفسية على حسابها وهي [الحيوانات] تعد أكثر جوداً علينا من الطبيعة، وآمن مغبة، ونحن بها أكثر امتزاجاً.. ومن ينكر أن الحيوان جندي مجهول في تاريخ حضارتنا؟!.. ولو ذهبنا نزن

الحقائق وزناً فلسفياً مجرداً لرأينا أن كل حمار وكل فرس، وكل جمل، وكل كلب، قد أسدي إلى الإنسانية يداً بيضاء يجب أن لا يقل تقديرها وتقديسها عن تقدير الأدميين في هذا السبيل، ألم تكن رفيقة الإنسان وعونه في سلمه وحربه، وهدمه وبنائه، وحله وترحاله؟ ألم يكن منها حارسه اليقظ ومركبه الأمين، وأنيسه المخلص؟؟؟...».

أسلوبه التعبيري:

أما أسلوبه التعبيري في هذه المقالة فيمضي على نسق عربي محكم لا ركاكة فيه ولا عجمة وربما لمحنا فيه أثراً من آثار ابن المقفع أو الجاحظ أو غيرهما من كتّاب العربية، إلا أن شخصيته الفنية واضحة.. والذين قرأوا كثيراً لحمزة شحاتة يشعرون أن هذه هي طريقته في التعبير يتحلزن في بعض الأحيان ويكثر من الجمل المعترضة ويختار اللفظة لدقتها في تأدية المعنى أكثر مما يختارها لجرسها وموسيقاها، ورصيده من المفردات اللغوية رصيد ضخم ـ وهذه السمة ـ كما يرى النفسانيون ـ دليل على الألمحية والذكاء.. ولعل قلة من الكتاب اليوم هم الذين يحرصون على مثل هذا التعبير «ويجهد لتأصيله».

ومن الواضح أن هذه المقالة ليست مقالة صحفية تتوخى سهولة التعبير وتتجنب التعمق في التحليل وإنما هي مقالة أدبية نلحظ فيها العبارة المحبوكة وعمق الفكرة والاستناد إلى الخيال.

ففي تحليله الثاقب لأخلاق الحمار والإنسان، يبدو طول التأمل ودقة الملاحظة كما رأينا في الفقرات السابقة التي نقلناها، وفي تصوره نفسه حماراً يرعى ويمرح في مفاتن الطبيعة الجميلة لا يد لمخلوق عليه إلا يد الله، يبدو التجاؤه إلى الخيال وفي ذلك يقول: «سبحت في هذه الخواطر المتدفقة وأمثالها حتى تصورتني حماراً أرعى وأعيش في هذا الجانب من

الأرض، عيشاً خفيضاً، تطرد فيه أسباب الأمن والدعة والهدوء وتتلاشى عنده متاعب الفكر وآلام الحياة ودواعي السأم والكلام، وتضيق فيه مطالب العيش وغاياته حتى تنحصر في مرعى خصب تتعهده السماء والشمس، ثم لا تكون فيه لأحد بعد الله منة أو يد، وعشت في هذا الكون لحظة لا يعدلها عمر مديد مليء بالسعادة والهناء».

وهو في خواطره عن الحمار ونقده للإنسان لم يسلك سبيل الوعظ والإرشاد، وإنما سلك سبيل التصوير الهادئ حيناً والثائر حيناً آخر، واللمحات الذكية التي كان الكاتب لا يحفل بها ومع ذلك نحس فيها بالعمق النفاذ، كما كان يغلف نقداته البارعة بجو من الفكاهة والسخرية وخفة الظل.

خصائص وسمات

وأجدر بنا ونحن بصدد دراسة الأديب حمزة شحاتة أن نلقي بصيصاً من الضوء على حياته وأدبه لنستبين طرفاً من خصائصه وسماته العامة.

مفكر.. سابقاً

حينما التقى الشاعر التونسي «الطيب الشريف» بأديبنا الجهير «حمزة شحاتة» ولم يكن يعرفه من قبل تطوع أحد الأصدقاء بالتعريف فقال:

«الأستاذ حمزة شحاتة... من كبار المفكرين..

وقاطعه حمزة على الفور بقوله: سابقاً...

وضحكنا.. وضحك السيد الطيب ولكنه قال مستنكراً..

سابقاً؟! لقد تعودنا أن نقول أن فلانا رئيس الوزراء أو الوزير سابقاً ولكن كيف يكون المفكر مفكراً سابقاً؟ هل تركت الفكر يا أخي؟ فأجابه

حمزة: لا... الفكر هو الذي تركني!!

وحمزة أديب معروف باللسن والقدرة على الحجاج والجدل الطويل، حتى ليظل في بعض الأحيان يناقش عشرين ساعة متصلة دون سأم أو كلال، ومع ذلك يعتبر نفسه الأديب الصامت، ويتمنى أن يجد البشر وسيلة للتفاهم غير الكلام..

ويتنبأ بأن إنسان المستقبل سيستغني عن اللغة وسيتفاهم الناس بانتقال «موجات الأفكار» وكلما أمعن الناقد في دراسة حمزة ألفى نفسه إزاء شخصية يتعانق في طواياها الإنسان بالفنان.. وهو يمارس الوظيفة ويحل مشاكل الحياة بروح الفنان... يقول لصاحب العمل [إنني سأتخلى عن العمل بعد أسبوع فلتبعث مديراً جديداً يتسلم مني الإدارة في هذه الفترة] وإذا تباطأ الرد كتب له مرة أخرى: [أمامك يومان للتسلم لأني سأركب الطائرة إلى لبنان أو إلى مصر]... ويسافر فعلاً سواء تسلم منه العمل أم لا..

وحينما كان محاسباً للبعثات السعودية بمصر كان يقضي وقت الدوام وهو يناقش طلاب الجامعة في شؤون الحياة والفكر والأدب فيستهويهم حديثه ويشعرون أنهم إزاء مفكر غير عادي.. ويظل معهم على هذا النحو إلى أن يحين وقت انصراف الموظفين إلى دورهم فيبدأ في عمله الرسمي... ويحبس نفسه وموظفيه المساكين إلى الليل.

والمزاج الفني يتحكم في مجرى حياته ومعاملاته مع الناس، فبينما تراه يدقق في القرش ويحاسب على الهللة حتى يقبضها تراه في موقف آخر يترك ألوف الجنيهات تذهب هدراً، لأن الذي استدان منه اتخذ في النصب عليه وسيلة فنية استهوته ووافقت مزاجه الفني...

وقد حكى لي مرة قصة التفاؤل والتشاؤم في الدَّين [بفتح الدال] قال بطل القصة لصديقه:

ـ إنني أفضل الاستدانة من الأستاذ حمزة على غيره من الناس..

فسأله الصديق:

ـ لماذا؟... فأجابه:

ـ لأنه متشائم وغيره من الناس متفائل... قال له:

ـ أرجو إيضاحاً أكثر... فقال له:

ـ «إن المتفائل يظل يلح على غريمه ويمد يده ولا ييأس أبداً حتى يتقاضى دينه، أما الأستاذ حمزة فيدين الشخص ويعرف مقدماً ٩٩٪ أنه لا يرد دينه.. فهو إذن متشائم وأنا أموت في المتشائم».

وحمزة شحاتة من نتاجه الأدبي يقف على نقطة الالتقاء أو خط التماس بين الفلسفة والأدب. وهو في هذه السمة يشبه أبا العلاء المعري الذي يعجب أديبنا به وبآثاره أيما إعجاب.

وإذا أردنا أن نطبق عملية تصنيف علم الطبائع للأمزجة، ألفيناه يمثل الطبع العاطفي على حين يمثل زميله محمد حسن عواد الطبع الغضبي.

وأصحاب الطبع العاطفي ـ بفطرتهم ـ يتأرجحون بين الانطوائية والانبساطية وهذه الميزة تبدو واضحة في حمزة شحاتة سواء في حياته أو في شعره. فقد يهرب من المجتمع ويتقوقع داخل داره أو غرفته متأملاً أو منغمساً في قراءات طويلة عميقة متنوعة يقرأ كل شيء، ولا يكاد يظهر للناس، حتى إذا ظننا أو اعتقدنا أنه قد آثر الوحدة والانعزال، ألفيناه فجأة يغشى المجالس والمجتمعات ويلقى أصدقاءه ومعارفه وينغمس في دنيا الحياة والأحياء والبيع والشراء، ويمثل الروح الإنبساطية بأجلى معانيها، ولكنه لا يلبث أن ينصرف تدريجياً إلى حياة الانطواء والانفراد.

الجزء الأول

حنفشعيات

«هذه الكلمة منحوتة من كلمتي: حنفي وشافعي وتقال لمن يخلط المتناقضات، وهي ليست من وضعنا ولكنها مما أجراه الارتجال على لسان امرأة من بنات حواء».

(١) حنفشعيات

هول الليل(*)

أهوال الليل معروفة، وقديماً كان الليل حرباً على الإنسان الأول، وكم دارت فيه معارك دامية كان الإنسان ضحيتها الباردة.

والخوف من الليل قديم، تعترف به الأعصاب ويعترف به الدم إن أنكره العقل.

ولكن هول الليل الذي يدور عليه حديثنا اليوم حي من جملة الأحياء يمشي ويؤذي وهو كثير الحركة، قدير على الانتقال والتشكل، ولكنه صامت كالليل مظلم مثله، ولا يظهر إلا فيه.

وبيني وبين «هول الليل» مشابه؛ فأنا طويل مثله، وفي طباعي جفوة ووعورة تصرف الناس عن الاطمئنان إلى عشرتي، فأنا وحيد مظلم النفس، انطوى منها على ما يشبه القبر العميق المهدم، وفيّ ميل إلى الصمت، الصمت الطويل، ولو اخترت لكنت أبكم، وكل ما يهمني أن أسمع وأرى، وفيّ ميل إلى الأذى ككل الناس ولكني أمقت الشر وأعافه، وأذاي من نوع الفكاهة والسخر.

(*) صوت الحجاز ـ العدد (٢٢٥)، ٦/٧/١٣٥٥هـ ـ ٢٠/٩/١٩٣٦م.

والناس يكرهون من الأشياء أحياناً ما لا يسبب لهم ضرراً، النقد والمجاهرة بالحقائق، وليس في شيء من هذا ما يضرهم، أو يؤخر مساعيهم في الحياة.

وأنا حزين منقبض الصدر أحس دائماً بأني غريب في الحياة، أو عابر سبيل أو متفرج حيل بينه وبين ما يدور تحت أنفه من الحوادث، ويستفزني المزاح المرح أحياناً فأسخر بالحياة، واستجبت لبواعث السرور لحظات. وهذه اللحظات نادرة في حياتي الآن، وبالرغم من أني لا أزال غض الأهاب.

وهكذا هول الليل الذي يروي الناس عنه من الحوادث المتسلسلة المتشابهة ما لا يمكن رفضه أو إنكاره.

وهول الليل لا ينزل إلى أذى الصغار إنما يعمد إلى الأقوياء فيخيفهم وهو كثير الإعجاب بمن لا يخافونه.. وبمن يسايرونه وينظرون إليه نظرتهم إلى شيء معقول.

وأرجو ألا أعدم من الناس طائفة تنظر إليّ هذه النظرة.

التوقيع

هول الليل(*)

(*) اسم مستعار كان يوقّع به الاستاذ حمزة شحاتة بعض مقالاته الصحفية.

حنفشعي (*)

هذه الكلمة، منحوتة نحتاً ديمقراطياً من كلمتي حنفي وشافعي، وتقال لمن يخلط بين المتناقضات، وهي ليست من وضعنا ولكنها مما أجراه الارتجال على لسان امرأة من بنات حواء، ولهذا الارتجال حكاية شهيرة ما نظن أحداً من القراء يجهلها.

وكاتب هذه الكلمات ليس حنفشعياً قحاً، ولكنه يختار الخلط في ما يكتبه ولا يلتزم ما يلتزمه خاصة الأدباء وعامتهم من قصر القول على الموضوعات الدسمة والدراسات الفنية فهو لذلك حنفشعي.

وسيرى القراء في هذه الحنفشعيات نوعاً طريفاً من الأدب الديمقراطي الذي دعا إليه الأستاذ أحمد قنديل، حتى جف قلمه. . .

ولا شك أنها تضحية سيحمدها لنا الناس ـ دون الأدباء ـ وسيرتاحون إلى نتائجها لأن لغة الأدب في بلادنا، لغة اسبرانتو أخرى لا يفهمها إلا القليل، وهذا القليل يعيش في الدنيا من الألفاظ والأفكار، لا يصلها سبب بدنيانا العامة ولا بدنيا غيرنا من الزاحفين على قسمنا من الكرة الأرضية. . وهذا نقص أحسه الناس وتحدثوا عنه حتى سئموه.

(*) صوت الحجاز ـ العدد (٢٢٥) ٦/٧/١٣٥٥هـ ـ ٢٠/٩/١٩٣٦م.

فليسخر الأدباء من هذه الحنفشعيات وليقولوا عن أسلوبها إن المتانة تنقصه وإن ألفاظها لا تترابط فنياً أو موسيقياً. . . وليصبوا عليها كل ما تعلموه من العقاد والمازني وطه حسين، ومن كل أديب في مصر وسوريا، والمهجر.

ليسخروا ما شاؤوا فإنا لا نختار أن نكذب الواقع. ولا نختار المشي على أيدينا ورؤوسنا فإنما خلق الله الأقدام وحدها للمشي.

وبعد فإنا لا نقلد أحداً، ولن نسرق وحسب القارئ منا هذه الأمانة في الوقت الذي عمّت فيه فوضى التقليد وأصبحت كثرة الأدباء لصوصاً، وغدا الأدب «لصوصية» لا يطلب للبراعة فيها أكثر من جلادة الوجه، وخفة اليد، والصبر على المكابرة.

التوقيع

هول الليل

فضائل مجفوة(*)

من الواجب أن تتغير نظرة الناس إلى كثير من الفضائل. فإن العفة لم تعد في موازين الحياة العامة إلا ضعفاً، والأنفة حماقة وأفنا في العقل!!

ومن طبيعة هذا الاعتبار أن يصرف الرغبة عن تشجيع الفضائل وإكبارها فتضعف وتتلاشى، ويتسع المجال لأضدادها فتقوى وتنمو.

وليقل لنا من يمارى في هذه الحقيقة ما هي نظرة الناس إلى الحياء الذي كان معدوداً من أكثر الفضائل تمثيلاً لكمال النفس؟.. أليس هو اليوم معدوداً من دلائل الضعف والفتور وانحلال الحيوية؟

ولا ننكر أنه معدود فضله في نفوس الناس، وعلى ألسنتهم، كما هو معدود هكذا في بطون الكتب، ولكنه ليس كذلك في زحمة الحياة، ومقاييس الواقع الملموس.

وقد تجسد رجلاً يستحي ويأنف أن يريق ماء وجهه في التسكع على أبواب العظماء واستجدائهم وإرهاقهم بمطالبة، عزوفاً عن الضعف فيتنكرون له ويحاربونه ويعملون على محوه كأنما يعدون انصرافه عن غشيان مجالسهم واحتمال انكماشهم عنه، تعالياً يستحق عليه العقاب، وهو لو لاقاهم لذاق

(*) صوت الحجاز ـ العدد (٢٢٦) ١٣/٧/١٣٥٥هـ ـ ٢٩/٩/١٩٣٦م.

الويل من الغطرسة والخيلاء ولما كان في اعتبارهم أكثر من فرد لا يأبهون له في جد أو هزل، ولما لاقوه إلا بما تنفجر له النفس الأبية، وهم إذا أباحوه عطفهم أو بشاشتهم وإقبالهم، فإنما يفعلون بعد أن يكون قد أبلى كوجهه، وأحنى رأسه وقدميه في مسابقة خدمتهم إلى أداء أحقر واجباتهم وأدقها تمثيلاً للمذلة والهوان.

وربما مات الأنوف جوعاً، والناس خبيرون بحاله، فلا يدفعهم إلى تفقده والعطف عليه بدافع من دوافع الإنسانية والرحمة وكبار الفضائل ولا يكون ذنبه بعد ذلك إلا أنه ترفع عن السؤال.

فما هي هذه الفضائل المجفوة المنكورة؟ ولماذا يلقنها الناس أبناءهم إذا كان نصيب المتحلي بها الإنكار والاحتواء؟

والجرأة الأدبية، وعلو النفس من جملة الفضائل التي تربي الأمم أبناءها عليها وتأخذهم بها أخذاً لا هوادة فيه، وتوسع المجال لاهتبال نتائجها. فما هو المجال الذي يهيئه فهمنا وتقديرنا لهذه الفضائل؟ إنه ليس إلا مجال السخرية والامتهان والكبح في ما نعرف..

ولو أن مفكراً حراً زين للناس أن يربوا أبناءهم على الوقاحة في مواضع الحياء وعلى الضراعة والاستخذاء في مواقف الإباء والكرامة، وعلى الكذب والرياء والملق والخداع، لقال الناس إنه إباحي لا يقيم للفضائل وزناً، جاهلين أنه إنما يبني جيلاً ناجحاً بهذا المبدأ ويقضي على آخر ضعيف متعثر.

وها نحن نرى اليوم وسائل النجاح محصورة في مجموعة من الرذائل والصغائر كان الواجب أن نتنكر لها ونحاربها بكل ما أوتينا من قوة الإيمان والخلق، كما يفعل غيرنا من بني آدم.

وبعد، فما يدفعنا إلى إجمال هذه الفكرة عداؤنا للفضيلة، ولكن رثاءنا لها، وإنا لمن أول المؤمنين بأن الفضائل التي مشت الإنسانية على ضوء هديها، وما تزال تستمد منها حياتها، لخليقة بألا تحارب بتشجيع أضدادها.

حمــــار(*)

(١)

في الحمير شيء جدير بالاحترام والدراسة. والعناية بالحمار ليست فضولاً فإنه رفيق الإنسان منذ كانا، ومساعده ومطيته، على قلة ما تستوجب هذه المرافقة من التكاليف والقيود...

والحمار من أنشط الدواب، وأقدرها على احتمال المكاره، وما نشك أنه كان من أكثر الحيوانات طيبة، وأن ما دخل على أخلاقه وغرائزه من الشذوذ المنكور إنما جاءه من قسوة الإنسان وعنته... وما نظن أن حيواناً آخر ينافسه صفاته الطيبة غير الجمل.. وليس هذا وحده ما يجعله أجدر باهتمامنا... فإن في الحمار جاذبية لا يفسرها تناسب جسمه، ولطف حجمه وفراهته. وما نظن أن مردها إلى شيء خفي وراء لحمه وجلده وشياته الظاهرة..

وفيه أناقة ووجاهة يفوقان كثيراً من الآدميين. وله ابتسامة محجوبة يدركها ويدرك موضع السحر والفتنة فيها كل من يعنيه من أمر الحمير ما عنانا..

(*) صوت الحجاز ـ العدد (٢٢٧) ٢١/٧/١٣٥٥هـ ـ ٦/١٠/١٩٣٦م.

والحمار بعد، يؤدي واجباً في حياته لا يؤدي مثله إلا قليل من الحيوان ومن بني آدم. وهو جم اللطف والتواضع، وفيه إنكار عميق للذات، ووفاء يجب أن يكون مضرب الأمثال.. ونحسب أن الله خلقه على أن يكون خير الحيوانات وأكثرها شبهاً بالإنسان الكامل، من الناحية الخلقية والنفسية، وإن باعد بينهما في الخلقة والإدراك والمقدرة على استخدام الفكر والتصرف بالإرادة، ونستبعد أن تقترن بهذه الفضائل الممتازة، رذائل تتنافى في جوهرها، وسماتها الأساسية، مع تلك الفضائل الثابتة...

والعناد، ـ على أنه رذيلة أو شذوذ مكروه ـ إنما هو صفة من صفاتنا، وليس في فطرة الحمار، ولا في مطالب عيشه ما يقتضي أن يكون معانداً... فلم يكن مقدراً للحمير في ما نرجح، أن تحمل على ما تأباه فطرتها، وتنكره طبيعتها، ولا أن تحمل من حماقة غير أبناء جنسها وشذوذ تصرفاتهم ما يثير فيها روح العناد ويقويها حتى تنقلب طبيعة ثابتة، أو صفة لاصقة!!.

وقد أساء الإنسان فهم الحمار، وركبه بالسخر والدعاية حتى أصبحت كلمة الحمار منذ أجيال سبة الآدميين، وموضع تنادرهم، والحمار في هذا أخسر الأحياء صفقة مع الإنسان، وأبينها ظلامة، وأوكسها نصيباً. ولا نشك أن صدفة من الصدف السيئة قضت على سمعته هذا القضاء الظالم.

ولعل حماراً من حمير التاريخ القديم! تمكنت منه الفلسفة، أو تمكن منه الضعف والخرف، ونشأ عن هذا إخلاله بواجباته المفروضة عليه إخلالاً يدل على الغباء والذهول حتى اشتهر أمره، وتنادر الناس ببلادته وغبائه، فكانت عثرة ينبذ بها كل حمار بعده استحثاثاً له، وحفزاً لنشاطه، أو كسر السورة شرفه وعرامه.. ثم.. درج التاريخ فإذا هو الحكم الذي لا يقبل النقض...

ولسنا في حاجة إلى أن نسوق الأدلة على ظلم الإنسان وتعديه، ففي تاريخ الإنسانية نفسها شواهد حمراء.. ناطقة بذلك.. والحمار ضحية من ضحايا هذا الظلم..

... وفي الحمار خفة، وفي حركاته حلاوة، ونظراته لا تخلو من معان تفيض منها العذوبة. وفيه ديمقراطية تصرفه عن الخيلاء، فهو أبداً مقضي على أخلاقه وعاداته وميوله التي يندر ألا تكون هادئة جداً، في سبيل إرضاء صاحبه أو راكبه. فيكون مؤدباً على أن يسير سيراً لينا موزوناً، فيأبى ممتطيه إلا أن ينهب الأرض ركضاً كالخيول في الطراد، فلا يجد في ذلك غضاضة، على ما فيه من إجهاد له ومصادرة لإرادته، وإفساد لآدابه وتقاليده...

ويركبه الصبيان أو أشباههم من ذوي اللحى والشوارب، ويعملون فيه أيديهم نخساً وأقدامهم رفساً، وعصيهم ضرباً، وأصواتهم المنكرة زجراً، ويأخذونه بين ذلك كله... بقيادة مضطربة مجنونة لا تتخذ اتجاهاً ثابتاً في السير، مائلين به إلى اليمين تارة، وإلى اليسار تارة.. وقد يحلو لأحدهم أن يترنح عليه، أو يكون جهله بفن امتطاء الحمير، يلزمه هذا الترنح فما يكاد يمسك نفسه فوقه، ويعاني الحمار المنكوب من هذا، شر ما يعانيه حمار من راكبه.. ثم لا يكون منه إلا احتمال هذا الأذى، والمسايرة فيه، فإذا مس السوط جلده، وجن جنونه، فطفر أو رفس، أو قام على رجليه الأماميتين وألقى راكبه، قيل حمار حرون شرير، وما به شر ولا حران ولكنه فساد ذوق الإنسان وتحجر عواطفه.

وصوت الحمار من أنكر الأصوات ما ننفي هذا. أو هو أنكرها، إن كنا نعتبر النعومة والاعتدال، كل مقومات الصوت الحسن، أما إن جرينا في نقد الأصوات على النهج العصري الجديد الذي لا يدين إلا للمقدرة الفنية

في التأليف والتنويع، وأحكام النسب وتحريرها. . . والذي ينكر النعومة ويعدها أنوثة لا تليق بفن إنساني يقود الأفكار والعواطف والمشاعر ـ كالغناء، كان الحمار معدوداً في طليعة الموسيقيين الموهوبين.

وقد يخطر لحمار أن يرفع عقيرته مغنياً ليطرب أمثاله من الحمير. . فيضحك الناس ويمطرونه وابلاً من الشتائم والازدراء وفي هذا حجر لا شك فيه، على. . الحرية. . الشخصية. . كان من الواجب أن يتنزه عنه الإنسان تسامياً بذوقه. وماذا يبقى للحمار من الحقوق إن حرم الحرية في استعمال هذا الحق؟؟. . .

والناس؟ أليس فيهم من إذا قيس صوت الحمار بصوته، كان أخسر القرينين وأخلاهما يداً من أدلة الفوز؟؟.

والحمار أرق ذوقاً في هذا، فما يفاجئون الناس [أعني الحمير] بالغناء إلا عندما يكون المجال مهيئاً لمثل هذه المفاجأة. . . ولكن الإنسان يدندن حيثما اتفق له أن يفعل. ويكفي أن تتهيأ له دواع من نفسه، أو من خياله المريض، حتى يندفع في ذلك الهواء المغثي، غير عابئ بما يصبه على رؤوس الناس من هول وألم. . .

حمـــار(*)

(٢)

والحمار إذا غنى [أي إذا نهق] يقول شعراً، ولا يردد كلاماً، فهو في مأمن من اللحن والنكير، وتتبع الألفاظ والمعاني ومسخها وتشويهها... والإنسان على عكس ذلك، يجمع على السامع مصابين ويغشيه بحماقتين. ومالنا نقارن بين الإنسان والحمار وهي مقارنة لا يرضاها كلاهما.

والحمار من أكثر الحيوانات فرحاً بالطبيعة وشعوراً بمفاتنها ووحيها الصامت. وهذا دليل شاعرية عميقة ناضجة فياضة.

ونحسبنا غير مبالغين، أنه لو استطاع التعبير عنها [بغير النهيق] لأضاف إلى تاريخ الآداب والفنون شيئاً جديداً لا يقل جمالاً وتأثيراً عن أحسن ما يفاخر به الإنسان ويرتاح إليه.

وفي الحمار فكاهة عملية، تدل على ظرف أصيل، فقد رأيت حماراً يحمل رجلاً له سمت وأبهة، وكان الحمار مقدراً هذا وشاعراً به، وفي وقار مشيته، واتزان حركاته، دليل على ذلك. واتفق إن أفلت من الرجل

(*) صوت الحجاز ـ العدد (٢٢٨) ٢٧/٧/١٣٥٥هـ ـ ١٣/١٠/١٩٣٦م.

ريح مسموع. فحبق الحمار. ولوح بذيله في مرح واضح.. وكان تجاوب فني بين الرصيفين... اتسعت معه حدود الحرية بعض الشيء!..

أما حماري الذي أمهد للحديث عنه بهذه المقدمة. فهو بدع بين الحمير. وأقسم بالله إنه لو كان إنساناً لكان مكانه بين من تشتغل الدنيا بذكرهم من العظماء والفنانين ظاهراً مرموقاً.

ولا أكتم القارئ، أني منذ كتبت مفرط الحنان على الحيوانات أو على ما يشاطر الإنسان معيشته منها، وقد كنت أرى أن عشرتها الطويلة لنا يجب أن تنشئ بيننا نوعاً من القرابة «المعقولة» ولا أنسى طبعاً أن فيها ما لا يستحق هذا العطف كالبغل مثلاً، فإنه لما فيه من الغلظة الواضحة، والميول المتشبعة بالشر والخشونة، ودلائل الجحود الشائعة في قسماته النافرة خليق بأن يبقى هكذا بعيداً عن قلب الإنسان وفكره.

والحيوانات عندي جزء من الطبيعة التي نرتاح إليها ونحبها، وتربى كثيراً من ملكاتنا الفكرية، ومشاعرنا النفسية على حسابها، وفي [الحيوانات] بعد أكثر جوراً علينا من الطبيعة، وآمن مفتنها ونحن بها أكثر امتزاجاً.

ومن ينكر أن الحيوان، جندي مجهول في تاريخ حضارتنا؟. ولو ذهبنا نزن الحقائق وزناً فلسفياً مجرداً لرأينا أن كل حمار، وكل فرس ـ وكل جمل... وكل كلب.. قد أسدى إلى الإنسانية يداً بيضاء، يجب أن لا يقل تقديرها وتقديسها عن تقديرنا المجاهدين في هذا السبيل... ألم تكن رفيقة الإنسان وعونه في سلمه وحربه، وهدمه وبنائه، وحله وترحاله؟؟ ألم يكن منها حارسه اليقظ! ومركبه الأمين، وأنيسه المخلص؟؟

وقد آنس حماري مني هذا الشعور الطيب أو تمثله في وجهي أول ما تلاقى نظرانا، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة فاتنة فمسحت له عنقه، ولعبت أناملي بأذنيه الناعمتين رداً لتحيته الرقيقة. فأخذ صدره يعلو وينخفض تأثراً

بهذه العاطفة التي بادلني إياها بشهقات حارة.

وأقبل رفاقي في اختيار حميرهم، وكان لكل منهم طريقة تختلف عن طريقة الآخرين، وأسفرت عملية الانتخاب عن سقوط حماري فيه لفتوره وضآلته وبقي كلانا بلا رفيق فبسطت يدي إليه وكنا رفيقين.. ولم تكن لي علاقة مباشرة بالحمير قبل هذا الرفيق الوديع، وكنت مشفقاً عليه وعلى نفسي من نتائج جهلي ولكن مظهره، ونظراته، أوحت إلى الثقة به، والاطمئنان إليه.

وركبنا، وكنا خليطاً، لا تؤلف بينه إلا الإنسانية وإلا الصحبة.

وكان من السهل أن يحكم أي إنسان يصير على الحالة النفسية والفكرية لكل فرد من جماعتنا.. وكانت حميرنا دقيقة الشبه بنا. فكان بينها الحمار الحضري والبدوي والأنيق والبوهيمي.

ولم يكن لحسن الحظ حماري عصبياً فتم التفاهم بيننا على الأساليب التي تحقق رضاء كلينا عن رفيقه وارتياحه إلى عشرته.

ولاح لي بعد خطوات أن مزاج حماري من الأمزجة الميالة إلى الاستقلال فلم أشأ أن أثقل عليه. وإني اعترف في سرور بأنه لم يكن مقصراً في ما يجب عليه [كحمار كامل!] وكان يسرع في الأرض السهلة المتسعة ويتئد في المضايق والوعور. ووجدت بعد لحظات أن في وسعي الاقتناع بوجاهة تصرفاته، علاوة على أنها من مصلحتي.

ولم أجد ضرورة تدعو إلى التحكم في ميوله عندما كان ينتحي يسار الطريق بظرف مخالفاً في هذا الحمير الأخرى التي كانت تتجه إلى اليمين أو إلى الأمام بعناد.

وبالرغم من أن صحبي كانوا يؤكدون أن الطريق إلى اليمين، معولين

على خبرة حميرهم وخبرتهم، فقد وضح أخيراً أن حماري كان أعمق خبرة ـ على حداثة سنه ـ من الجميع، وقد وفر علينا ربع المسافة.

وكانت المعركة محتدمة طول الطريق بين الحمير والركب، وهذا طبيعي لأن كل راكب يحمل عصا لا ترتفع عن ناحية من جسم حماره إلا لتقع على ناحية. وكانت لدي فرصة ملائمة لدراسة نفسيات الحمير عن كثب، فقد كان بعضها في ثورة عصبية ظاهرة، بينما كان البعض ضابطاً لأعصابه بتفوق وهذا القسم هو الذي استطاع أن ينتقم من راكبيه بإتقان ودقة!!

التوقيع

هول الليل

حمـــار(*)

(٣)

والحمار من أوسع الحيوانات حيلة.. يؤيد هذا أن حماراً ألقى صاحبه في مستنقع متظاهراً بأنه عثر. وآخر صدم راكبه بشجرة شوك أدمت أطرافه ومزقت ملابسه.

وكنت المحسود الوحيد بين الجماعة على حمارين ولا أشك أنه كان محسوداً من رفاقه أيضاً على هذا [الجنتلمان] الذي يحمله، وقد أتاحت هذه الفرصة لحماري أن يظهر بمظهر الدلال.

ولاح لي في النهاية أني على استعداد لحمله لو أعياه الجهد، وما أحسب أن ذلك يضيرني، فهو خفيف الوزن والروح ويستحيل أن يتعدى وزنه سبعين كيلو.

ولا أدري كيف كانت تنتقل خواطري وخوالج فكري إلى رأسه. فضاعف جهده في السير، ونهق نهقة أدركت بسهولة أنها تعبر عن احتجاجه، وكان هذا تأكيداً منه بأنه لن يضطرني لتلك التضحية.

(*) صوت الحجاز ـ العدد (٢٢٩) ١٣٥٥/٨/٤هـ ـ ١٩٣٦/١٠/٢٠م.

وأخذتنا روعة الطبيعة بين الجبال وسفوحها المكسوة بالعشب والحلفاء وجداول المياه المنسابة.. وصاح أحد الرفاق قد وصلنا مترجلاً عن حماره. ولكن حماري أبى الوقوف، وأخذ يوغل بين الجبال فأدركت أنه يعد لي مفاجأة سارة. ولم يجد الصحب بداً من اتباعي، أو على الأصح اتباع حماري الحكيم..

وكان أن اجتزنا مضايق صخرية انفرجت بعد دقائق عن صخور ينفجر منها الماء وتغطيها الأعشاب، ويعطر جوها شذى الشيح والحبق، وتضفي عليها السكينة أردية من السحر والفتنة والجمال.

وثملنا مرة، فانطلقت الحمير ترعى، وتشرب، وتتوثب، وتضطجع، وتنهق نهيقاً موسيقياً لا اعتراض عليه.. وقد لاحظت أن في وسع الحمار [أي حمار] أن يكون نهيقه رفيقاً إذا شاء..

وكانت الحمير البدوية منصرفة عن التأمل في هذا الجمال الذي يغمر الكون كوننا الصغير. فكان هذا دليلاً على أن الألفة الطويلة لها لما في الطبيعة، توجد في النفس نوعاً من التخمة والزهادة.

وكان حماري [دون الجميع] متنبهاً لدقائق واديه الفاتن.. وكانت تدور في رأسه خواطر وتتجلى في نظراته النشوى معان لعلها من خير الشعر وأروعه، لو كان إلى تصويرها من سبيل!

وذهبت أترسم خطواته الموزونة، يظهر أنه ارتاح ارتياحاً عميقاً إلى هذا، فسار إلى جانبي، وألصق رأسه بصدري، أو بما وسعه أن يلمس منه، وشعرت بأن نفسينا متحدتان، ولم يخطر لي أن في هذا أية غضاضة، فوشيجة الرحم بين الأحياء وثيقة، وإن أنكرها عرف البشر القاسي، ورب حمار كهذا لا تجد بين كل ألف من الناس مثله رقة جانب، وخفة روح، وسلامة نفس، وصدق سريرة، ووضح عاطفة، وإن جيلاً من الحمير يخلقه

الله على غرار هذا الحمار، لجدير بأن يفوق ألف مرة جيلاً من الأناسي، حرى بالأذى ومطبوعاً على الشر، والتزوير والنفاق والغدر.

وسبحت في هذه الخواطر المتدفقة وأمثالها حتى تصورتني حماراً أرعى وأعيش في هذا الجانب من الأرض، عيشاً خفيضاً تطرد فيه أسباب الأمن والدعة والهدوء والسلوى، وتتلاشى عنده متاعب الفكر وآلام الحياة، ودواعي السأم والكلال. وتضيق فيه مطالب العيش وغاياته حتى تنحصر في مرعى خصب تتعهده السماء والشمس ثم لا تكون فيه لأحد بعد الله منة أو يد.

وعشت في هذا الكون لحظة لا يعد لها عمر مديد مليء بالسعادة والهناء. . حتى أفقت على صرخة أحد الرفاق عضه حماره عضة أدمت ذراعه. ومضى يجري والحمار يتعقبه ثائراً ملوحاً بذيله. وألقيت نفسي مسوقاً إلى التدخل بينهما لحل المشكلة. . وأدرك الحمار غرضي فوقف بأدب فربت على رأسه وجبهته. وكان هذا بمثابة اعتذار عن غلطة الرفيق. . فتردد في صدره صوت متقطع، خلت أنه لغة في الاعتراف بالجميل والتقدير.

وهكذا استطعت أن أسيطر على الموقف، وأن أتلافى فتنة كانت على وشك الشبوب بين الفريقين المتحمسين. وأستطيع أن أراهن أن الحمير الأخرى كانت على وشك الانفجار في اللحظة التي يبدو فيها أن أحداً منا ينتصر للرفيق [المعضوض] وهذا دليل على احترام الحمير للمبارزة الشريفة بين خصمين.

والحمار طيب القلب، يساعده على أن يكون هكذا دائماً ضعف ذاكرته فهو لا يستطيع أن يحتفظ بالحوادث المؤلمة طويلاً، فسرعان ما تناسى الجميع أحقادهم، وعادوا إلى الصفاء مع أنه لم يكن هناك اندماج روحي ملحوظ.

ونشر الليل أرديته على ذلك الوادي فزاده جلالاً، وكان كل شيء

صامتاً كأنما يصغي إلى همس الطبيعة الحفي، ووسوسة الحصا، وأنفاس النسيم فودعنا هذه الحياة النابضة قافلين وكنت أتمثل في نظرات حماري معنى بيت المتنبي:

أبوكم آدم، سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان

واستطاع حماري أن يملأ نفسي إعجاباً به، حتى اللحظات الأخيرة... وفارقته بعد أن اعتنقنا طويلاً على أمل اللقاء. وما أزال أحس في نفسي حنيناً وشوقاً ينزعان بي إليه نزوعاً ملحاً.

وبعد، فهذه ذكرى صحبتنا الهادئة أبعثها كتحية إلى ذلك الرفيق الطيب.

التوقيع

هول الليل

أستاذ(*)

لصديقنا الشاعر قنديل(**) لسان ما يعجزه أن يحك به قفاه لو شاء، وقد نفرد نحن من دون غيرنا بفهم هذا الجانب منه. وبذلك كان من أولى الواجبات بمراعاتنا به تحاشي الاصطدام به، اصطداماً أدبياً، وتجنب إثارته.

ولكن الهدوء أحياناً، مملول يجتوى. وما قيمة حياة لا تكون الأيام فيها مترجحة بين جزر ومد عنيفين؟ بل ما قيمة حياة تشرق فيها الشمس وتغرب على أنفاس تتردد ونظرات تسبح في آفاق هامدة لا حس فيها ولا حراك، ولا تختلف عن نظرات الحالم المستغرق في شيء؟؟.. وقد ألزمتنا الحياة أن يعيش في بلاد مهمومة لا يدل على حياتها إلا هذا الغطيط الموزون، فلا أقل من أن نتبادل من شؤوننا الخاصة ما يثير في النفس شعوراً خافتاً بالحياة ونبضها.. إن لم يكن هناك أمل أو رجاء.

وقنديل.. وليس هذا اسمه الكامل كما يعلم القراء ـ شاعر وكاتب من الطراز الأول بين شعرائنا وكتابنا، وليس هذا ما يعنينا منه ـ وهو ليس بالمغمور، ولكن له في إنكار نفسه فلسفة لو قدر الله لها الظهور، وأتاح لها

(*) صوت الحجاز ـ العدد (٢٣٠) ١١/٨/١٣٥٥هـ ـ ٢٧/١٠/١٩٣٦م.

(**) أحمد قنديل من شعراء النهضة في السعودية، يكتب الشعر إلى جانب اللغة العربية الفصحى بالعامية ويمتاز بروحه المرحة في شعره العامي... وشرفت «الاثنينية» بطباعة أعماله الكاملة في ستة أجزاء عام ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م.

الفهم والوضوح لخلا السكون، أو خلت بلادنا على الأقل ثمانية أعشار الرذائل التي يولدها الغرور، وجهل النفس، وتطليق الحياء!

وقنديل كاذب، ممعن في الكذب وما أخاله إلا كذبة تدفعها الحياة في شكل آدمي ليسهل تسربها الى النفوس والأذهان. يكذب بعضه على بعضه وظاهره على باطنه. فهو في مجموعه مثال للتنافر.. وكأنه نقيضة من نقائض الطبيعة تهجو بها الحياة نفسها، مبالغة في التطرف والمرح.

وليس بين أدبائنا وشعرائنا الكثيرين (والحمد لله) من يستطيع أن يبلغ في تمثيل «الرجل البلدي الأصيل، بجميع حدوده وصفاته، مبلغ قنديل، فهو بلدي قح بقفاه وبوجهه، أو بما يلقاك منهما، وبضحكته وحركاته، وبلدي بهذه النفس القانعة، المستسلمة، وبهذا الصوت الغليظ الذي تتردى منه الألفاظ تتدحرج في مثل البئر العميقة المهجورة، وبلدي باطمئنانه إلى الزي العادي الذي يمثل تخمة الحجاز بعادات الأمم المختلفة ونفاياتها. وجسمه المتوسط المتماسك خير دليل على أن الرجل البلدي يجب أن يكون هكذا محدوداً معقولاً، لا فضول فيه...

وقد تعاشره، أو تسايره، حولاً كاملاً لا يقوم لك في أثنائه دليل أو تلوح شبهة على أنه أديب أو شاعر، ومعظم الذين يرون كثرة تردده بين إدارة الجريدة والمطبعة يظنونه صفافاً، أو خبيراً في الرزم، أو مخبراً متجولاً.

وقد تفاجئه وهو جالس على مكتبه في وضع منحرف، وهيئة تدل على أنه يحرسه، أو كأنه اغتصب مقعده اغتصاباً في غياب الرئيس، فيبادرك بفزع الخائف المذعور، وروعة المعتذر النادم، وكأنما يضرع إليك ألا تؤنبه على هذه الحرية أو العفرتة، التي لا تليق بصغار الموظفين في إدارات الصحف، وتكون أعظم الناس أو أقلهم شأناً، وهو يعلم هذا حق العلم، فلا يكون لعلمه بشأنك أثراً في ارتياحه إليك بجملته وتفاصيله، ولا من

سابقة الخادم إلى تقديم مطالبك والتنبه لها، والتوفر على الترحيب بك والدوران حولك عدة مرات، يسألك فيها عن حالك، وحال من تعرفهم ويعرفونك وحال البلد.. نازلاً لك عن جزء كبير من دخيلة نفسه، وهذا الجزء، فليعلم القراء ـ ثابت لا يتغير وفيه الدلالة على (بلديته) وعلى غرامه بالبلد وأهله. فهو لا يسأل عن السياسة وأحدث ما يغشى حومتها، ولا عن الأدب وحركة النشر والتأليف، ولكن عن اللحم وتطور أسعاره، وعن الفواكه الرخيصة وسهولة تناولها وعن الخضروات ووفرتها ويحمد الله في أثناء هذا السيل الجارف من الكلام، مائة مرة أو ألفاً، أن منَّ على بلده المقدس بهذا الرخاء.

وحظ قنديل متواضع مثله، وفيه دليل على أنه مظلوم النشاط والكفاءة والذنب في هذا ذنب إمعانه في (بلديته) وذنب استسلامه واطمئنانه فقد كان حين كان تلميذاً راضياً بقسمته، وراضياً عن حكم أساتذته فيه..

وقد يقضي في الصف الدراسي أعواماً، ما تندمت من فمه كلمة اعتراض أو احتجاج، أو تظلم حتى ترفعه الصدف إلى صف غيره، أو تدحرجه درجة، ولا أحسب أن تلميذاً أبلى من عمره في الدراسة مثلما أبلى قنديل فيها، فقد دفعه أهله إليها قبل أن تنبت أسنانه وغادرها بلحية تسترسل على صدره، تفترش معظمه أو سائره، وقليلون يعرفون أنه كان أستاذاً في صدر حياته، وأنه كان أول من أضاف إلى معاني الأستاذية معنى من الجندية وشقائها وجهودها وتضحيتها.

وقد اكتهلت خبرة قنديل بالدنيا في هذا الدور من حياته، وأفاد منه ما لا تضمنه رحلة طويلة في أطراف الأرض وحواشيها.. ولكنه خسر نشاط الشباب واندفاعه وطموحه وتفززه، ولا غرو فإن حياة المدارس في بلادنا ضرب من ضروب النعاس الثقيل..

ويودع المدرسة أخيراً، وهو في حدود الثلاثين، ولكنه يحمل على عاتقه رأس شيخ هرم!..

ويمتاز قنديل دون أساتذتنا بخفة في الروح لا يطالعك بمثلها إلا (رجل مدردح) وهذه الخفة هي التي تضفي على عقليته المكتهلة شيئاً من الطراوة والمطاوعة. ويخطىء من يتلمس خفة روحه في ظاهره الذي يخيب الأمل.

وفيه ميل إلى الابتكار والتجديد إلا في ما يتصل بمطالب جسده وعيشه فإنه رجعي حتى أطراف أذنيه. فلن تجد فيه ميلاً إلى (البحبحة)، ولا إلى الأناقة التي يعبر الاندفاع فيها عن طبيعة الشباب، ولا ننكر أنه في عهده الجديد حريص على الاتصال بعصره في رفق ووقار، وتردد فقد ألغى الطريقة القديمة في حلق رأسه. ولكنه ما زال يحن الى (الموسى) حنين البدوي إلى الصحراء.. وأطلق سالفتيه كالفنانين... و...

وما فتىء قنديل بحاجة إلى ثورة إصلاحية تتناوله من جميع نواحيه الظاهرة وتقوم بها (مصلحة تنظيم) مستعدة. وما نرى للبلدية عذراً في إغفال هذا الواجب، فسوف يجيء يوم يكون فيه الأستاذ قنديل جزءاً من تاريخ البلد، وجزءاً من تاريخ نشاطه الأدبي.

وبعد، فإن لقنديل يداً على الحرية الأدبية، وعلى تلوينها. وسنمهد السبيل لنزولها من الصدور منزلاً رحباً، نظرته العميقة إلى هذه الكلمة إن شاء الله.

التوقيع

هول الليل

عزاء(*)

(١)

انبرى الأستاذ (سهران) لإنصاف الحلواني الشاعر، لما هاله في نقدنا من التحامل «المعيب» و«الخطأ الفني» وقد أجرى دفاعه مجرى العزاء والتوجع، اللذين سرهما الرحمة والشفقة، متظاهراً بالرغبة في إنصافه.

والأستاذ «سهران» رقيق العاطفة مرهف الحس، وقد آلمه أن يتدحرج مجد الحلواني وشعره وحبه في هاوية لا قرار لها. وأشباه الأستاذ في الدنيا كثر ولا اعتراض لنا على ضرورة وجودهم في الحياة لا تفسح للضعيف مجالاً! وأنا لمن أول المعترفين بأن الحياة تنقلب جحيماً لو تجردت القلوب كلها من الرحمة وإنصاف الضعيف والدفاع عن العاجز. ومن خير البر لا شك، أن يتطوع القوي للمناضلة عن ضعف منتهك، أو عجز مستباح.

ولكن هل كانت هذه غاية الأستاذ حقاً من دفاعه؟ أم كانت غايته، أن ينكأ جرحاً في قلب الشاعر أوشك أن يندمل، وأن يبالغ في تصوير فشله، وتعنيفه عليه بهذا الدفاع الذي يعترف فيه بأن الشاعر كان كثير السقطات، وجديراً بالسخر والتهكم؟ ويصور به صاعقة مروعة تنقض على رأسه؟ ويشهد بأنه أثخن

(*) صوت الحجاز ـ العدد (٢٣٣) ٣/٩/١٣٥٥هـ ـ ١٧/١١/١٩٣٦م.

طعناً؟ ويتركه هكذا جثة هامدة، لا يلوح بدليل واحد على حياة؟؟ . . إن من الرحمة لقسوة! وإن من العزاء لرزاء! وإن من التوجع لتنكيلا!

وما تظن حلوانينا الشاعر إلا متبرماً بهذا الإنصاف أضعاف تبرمه بالنقد ونحسب أن لو كانت فيه بقية من نشاط لأخذ بتلابيب الأستاذ واقتاده إلى حيث يثبت له أن سقوط شاعريته في ميزان النقد لا يعني موته وتلاشي حيويته كإنسان.

وماذا يا ترى، يسع الشامتين بالحلواني والهازئين به أن يقولوا فوق مقالة الأستاذ في إنصاف الشاعر؟ وما هي لغة الشمات والرزاية، إن لم تكن هذا التقرير الذي يؤكد الإسراف في التدليل والإسراف في الاعتراف؟؟ . .

سيقول الحلواني «إن الأستاذ سهران» إنما تقدم بهذا الدفاع عنه ليضاعف عليه الرزاء، والنكاية، وسيقول إن الأستاذ نصيرنا وخصيمه وسيجد من الدلائل والشبهات وما يؤيد هذا القول وما نخال الأستاذ «سهران» بحاجة إلى ما يدله على مواطن الدقة والمنطق في هذه الدعوى.

وبعد، فإن كانت نية الأستاذ معقودة حقاً على إنصاف الشاعر، فقد علم الله والناس، أنه عثر، وضاع عليه أجر المصيب، ولم يبق له على أمله إلا أجر المصيبة، وأجر المجتهد المخطىء، وما على الشاعر وحبيبته إلا أن يسلكاه في عداء من يجوز عليهم الدعاء «نظما» من الخصوم والأعداء فبماذا ينفي هذا السهام المسمومة؟؟

والآن نميل إلى الأستاذ «سهران» لنوفيه حقه من التقدير والإعجاب بلباقته وابتكاره أسباب الخلاف والتناقض بيننا في حين أننا على تمام الوفاق في شأن الشاعر.

قال إنه «يخالفني في أذكاري على الشاعر فنزعه إلى الأساة والأطباء

لئن ذكر الطبيب في مثل هذا الموقف من صميم منازع الحياة ومن ناحية الوهم والخيال الواقع أولاً وثانياً، لأن الحب اليائس كثيراً ما يورث أدواء تتطلب علم الطبيب وفنه وشورته، وقد لا يكون العلاج غير الوصل بين الحبيبين وسواء أقام بهذه المهمة طبيب، أو رجل آخر ليس من أهل هذه المهنة، فإن المعنى يظل مستقيماً، ويبقى له حظه الحسن من الفن والجمال، واستدل بقول إسماعيل صبري:

يا آسي الحي، هل فتشت في كبدي؟ وهل تبينت داءً في زواياها!

ويقول حافظ إبراهيم في رثاء اللغة العربية:

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني وفيكم ـ وإن عز الدواء ـ أساتي؟

ونحن نحمد الله على أن الأستاذ يحسب الفرق الدقيق بين آسي «الحي» والطبيب، فإن هذا الإحساس خليق بأن يمهد لنا سبيل التعارف والاتفاق.

ونقول للأستاذ، إننا لم ننكر على الشاعر فزعه إلى الأطباء بل قلنا إنه يكذب عليهم، وينسب إليهم ما لا يستقيم حتى في منطق الدجاجلة المشهور عنهم الاشتغال بهذا العبث وما على الأستاذ إلا أن يدلنا على طبيب يزعم لمريض أن الدواء نظرات حبيبه إليه، أو على طبيب يرضى أن يترك عيادته ليصل بين حبيب وحبيبته!!

وبعد فقد تكون حبيبة الشاعر مصابة في عينيها بعارض يمنعها التحديق في وجه الشاعر، أو لعلها زاهدة في مرآه زهادة لا تقضي على احتمال ارتياحها إليه باجتماعات قصيرة أو طويلة ترفه عنه بلواه في حبها فما شأن الطبيب بهذا؟؟ إنه شأن الدجاجلة الذين يزعمون القدرة على تحويل الأفكار بالرقى والتعاويذ. أو شأن الأساة الذين يحملون في حقائبهم عقاقير سحرية

ينسبون إليها قيادة القلوب والتصرف بها، ولن يرضى طبيب يحترم فنه أن يكون لهذا نصيب في ضمان مورده على الأرجح إلا إن كان متطرفاً في حب الإنسانية كالأستاذ: فما نحاول الحجر على عواطف الناس!!

ومن حق الأستاذ «سهران» أن يحمد الله معنا، على أن العشاق لا يلتمسون عند الأطباء شفاءهم من شقوة الحب وتباريحه كما يلتمسونه عند العرافين والسحرة، وأساة الحي. وإلا لانقلبت الدنيا مستشفى كبيراً. والناس مرضى حتى.. الأطباء!..

وما الشعر الذي احتج به الأستاذ إلا دليل على أن علاج الحب لا يتصل بفن الطبيب، ولا يشفيه إلا إيحاء المنومين أو طب علماء النفس..

ولهذا يقول صبري لآسي الحي، هل تبينت داء في زوايا كبدي؟ وهذا دليل على خفاء هذا الداء على الطبيب، والبيت كله يشعر بلوعة البائس في مقدرة الطبيب على تبين الداء وشفائه.

والشطر الأول منه يوشك أن يكون تهكماً حزيناً على الآسي، يتعرض لما لا يدخل في فنه ومعرفته!!!

وقد فطن الشعراء، والعشاق، قبل صبري إلى عجز الطب عن إنقاذهم وضيق حيلته بأدوائهم. وليس هذا من الخفاء بحيث نطالب بالدليل عليه.

ولا خلاف في أن آسي الحي الذي يجمع بين كفاءة العراف، وخبرة المجرب غير الطبيب الذي يقوم فنه على الواقع بحدوده المقننة.

وقد كانت مصر على عهد (صبري) مأخوذة بهذا الوهم الذي يزين للعشاق التماس العزاء والامل والراحة عند هؤلاء الأساة.. إن عز الشفاء، فلا عيب في أن يتأثر به صبري.

ونرى أن أصالة صبري قد حالت بينه وبين المتعلق بمقدرة الآسي،

المفروض توفرها في عرف العامة والجهلاء، فلم يقل إن الطبيب شفاه من حبه وتباريحه أو أنه أشار عليه باتباع أسلوب معين يضمن له الراحة من كربه. بل انصرف بعد هذا البيت إلى بث الأمة وتصويرها، شأن البائس من فائدة هذا العبث.

وبيت حافظ في رثاء اللغة العربية لا نعرف له علاقة بموضوع اجتماع الأستاذ لرأيه، فنحن لم ننكر على الحلواني، استعماله كلمة الأساة، والأطباء ولا ننفي أن الحبيبة في موقف الشاعر تنزل منزل الطبيب من المريض أو الدواء من المرض، ولا ننكر لكلمة الأساة في شعر حافظ، فإنها تستقر منه في موضعها الطبيعي المكين ولكننا ننكر أن يكون في وضع أحد غير الأستاذ سهران أن يدّعي استقامة هذا الدليل للنهوض بحجته.

ونقول للأستاذ إننا لم نفرض على الحلواني أن يستعين بدجالين ومشعوذين على شفائه، ونبرأ إلى الله وحده من هذه التهمة، ونحسب أن لو كان الأستاذ محامياً والشاعر موكله لما أرضاه بأن يسوق للدفاع عنه أمثال هذه الأدلة.

ونعاتب الأستاذ عتاباً رقيقاً على إقلاق المجنون في قبره، والتماس النصرة من شعره الصادق. وقد كان أخلقه أن يطلبها عند من فسدت ملكاتهم وطباعهم من الشعراء الذين يفهمون الحب وما يتصل به على أنه من جملة الألاعيب والأباطيل.

قال المجنون:

يقولون ليلى بالعراق مريضة　　فيا ليتني كنت الطبيب المداويا

وهو هنا يتمنى أن ينزل من ليلاه منزلة الطبيب لمجرد القرب منها،

والاستعانة بهذه المناسبة لرؤيتها، والتوفر على خدمتها وعلاجها، بصدق الحب، وحرارة الإخلاص.

أو أنه يؤمن بأن ليلى مريضة بحبه وبالشوق إليه، فيكون طبها عنده لا عند الأطباء والأساة. ولا نعرف للبيت معنى ثالثاً نصحح به عقيدتنا في شعر الحلواني فهل يعرف الأستاذ؟؟

التوقيع

هول الليل

عزاء(*)

(٢)

إننا لم ننكر أن يشفي ألم الحب حبيب، ولا يداوي ما يورثه من الأدواء الباطنة والظاهرة طبيب، ولكنا ندفع عن الأطباء تهمة العبث والمجون، نحارب فساد الطباع وهزال الأفكار الضاوية، ونزعم أن لنا على الأستاذ سهران حق المعونة والتأييد في هذا..

فهل نحن على صواب؟؟

ويتهمنا الأستاذ [بتناقض الروح الفني والنقد الفني] مناقضة ظاهرة في تصويرنا. ذكر الحلواني أجداده، في مقام مناجاة حبيبته ـ بنبش الأكفان، و«نشر الرمم».. ونحن إنما نضع يد القارئ بهذا النقد على عيوب تخفى على غير الأديب المتعمق وقد لا يثير ورودها على الذهن، شعوراً بالتناقض والمفارقة مما أحوجنا إلى رسم هذه الصورة، ونستحلف الأستاذ بالله عما يثيره في خياله ذكر [الدهور الخوالي] والجدود، ومحنة الدهر، وأبلى، واندبي، وممات، ونعاة و... قبر وهي الكلمات التي حفلت بها الأبيات الأخيرة المتتابعة في قصيدة الشاعر؟؟

(*) صوت الحجاز ـ العدد (٢٣٤) ١٠/٩/١٣٥٥هـ ـ ٢٤/١١/١٩٣٦م.

وهل يسع الأستاذ أن ينكر، أن توارد المعاني المتماثلة، وتداعي الصور المتشابهة وتساوقها حقيقة مسلم بأصالتها؟

ويأخذ علينا الأستاذ «محاسبة الحلواني على مزاجه في الحب، ويقول إن الشاعر الحلواني يستشعر الذلة والألم والحاجة إلى التوسل والضراعة في سبيل استرضاء حبيبته».

ونحن لم نقل إن الشاعر ذليل ضارع بل عبنا عليه أن يتهالك بين يدي حبيبته الواقفة منه موقف الاستعداد والاستسلام يسألها أن [تأخذه بالأحضان] وأن تقبله وهذا أقصى ما يفعله مقعد كسيح، أو مريض مضعوف في مثل موقفه، وكان من الواجب أن يتفطن الشاعر لموقف الحماس، وذكر الأجداد ومجدهم، فلا يقيم هذه الصورة الهزيلة من نفسه، والموقف بعد ليس موقف استرضاء أو ضراعة، فهو موقف حبيبته رزقها الله من الصبر والأناة، ما احتملت به كل هذا السخف والغثاثة!! فما حاجته إلى استعطافها؟؟

وأية حبيبة تسوغ لها طبيعة جنسها ولو كانت [عامية جاهلة!] أن تمثل هي دور المحب، ودور الرجل النشيط، فتقبل على الكتلة الناطقة ضماً وتقبيلاً؟!

وهنا فارق بين الذلة والرقة، واللين والضراعة، نود أن يرجع فيه الأستاذ إلى قواميس اللغة.. وإلى كلام الأصحاء من عباد الله!.

وقد أسف الأستاذ، لاسرافنا في التحامل على الشاعر.. ونحن نأسف لأن الأستاذ كان أكثر تحاملاً وقسوة عليه، وأشد إعناتاً له.. ونستشهد الشاعر والقراء على ما نقول!

ولا ينكر الأستاذ أننا لم نستقص كل ما في شعر الحلواني من العيوب

والسيئات إبقاء عليه، وهذا وحده دليل على الاعتدال والهوادة، كان من الواجب ألا يعد ذنباً إن لم يعد حسنة.

وبعد! فلتكن هذه الكلمة، تحية منا للأستاذ سهران، وإعجاباً بلباقته وتقديراً لأدبه.

صراع(*)

لم ينجح الزمن في ترويض أحد مثلما نجح في ترويضي، فأنا اليوم شبيه بالإنسان من حيث الخلقة، وإن كنت أقرب شبهاً إلى الحيوانات المجترة. فلا أمل يستهويني، ولا غاية تستفزني، ولا شيء مما يدور تحت أنفي وخلف أذني يثيرني.

والدنيا عندي صور تتدافع أو موجات يزجى بعضها بعضاً، والمدفوع منها يدفع ما أمامه، والكل سائر إلى الهمود. وما أرى من هذه الحياة الواسعة المزدحمة الصاخبة إلا هذه الرقعة التي تضمني تارة وأضمها أخرى، وهي، مثلي جزء من الأرض يشيع فيه الحس، وكلانا بعد، موف على غاية مقدرة من الفشل والخمود، أو من القوة وتجدد الرغبة في الصراع!

وأظن أن الذي يلحقني بالمؤمنين الأبرار، شعوري بأن الغايات مقدورة، والأنفاس معدودة، الأرزاق والآجال محدودة، وأن كل شيء لا يريده الله لن يقع ولو اجتمع له كل أهل السموات والأرض، ورأسي الآن شبيه بالكوخ الخاوي تصفر فيه رياح الصحراء، أو أرواحها وروحي خامدة، وكل ما في نفسي هامد لا ينبض، وأحس في قرارة نفسي، أني منطوٍ على

(*) صوت الحجاز ـ العدد (٢٣٢) ١٣٥٥/٩/٢٣هـ ـ ١٩٣٦/١٢/١٠م.

قطعة مجدبة جافة من الأرض، لا يرف فيها دليل من دلائل الحياة، ولا تلح بمعنى من معانيها وقد تضيق سبلها أحياناً حتى أشعر بانطباقها على جانبي، وطالما انتهى بي تطويقي فيها إلى جبال ووعور يأخذ بعضها بأطراف بعض، فأمضي فيها ما أثقل رجلاً، حتى إذا تكشفت لي عن أمل، تدحرجت منحدراً، متخذاً من رأسي قدماً ثالثة، ولا ألبث أن أفتح عيني على الأمس بهوله وجدبه!

ولكني مع هذا أضحك كلما وجدت إلى الضحك سبيلاً، وآكل كما تأكل النعام، وأغمض عيني، كما تفعل الأحياء، وأحس دائماً بأني لا أنام نوماً طبيعياً، أذهل به عن نفسي، وأن في جسمي «ناطوراً» يختفي في نور النهار، ويظهر في ظلمة الليل، بعصاه الغليظة، ذات العقد وعباءته الخشنة التي تجعله شبيهاً بحراس الحصون القديمة، أو بأشباح الليل المخيفة ويدور حولي صامتاً، لا تثير الجلبة دقات عصاة، ولا وقع خطواته.. ويحرسني أو هذا ما أظنه ويحميني أن تطوف الأحلام برأسي، أو أن أنحدر إلى وادي الخيال أهيم فيه لحظة منطلقاً من عقال الواقع السهران أبداً، كما يفعل الراقص بعصاه حول النار تنطلق نفسه راقصة في حركاته العصبية المجنونة. فإذا أطلت الشمس، أطل على الواقع برأسه المنفوش، وعينيه المحمرتين ووجهه المرعب! هذا الواقع الذي يضع عقلي ونفسي كل صباح في قيد جديد!.

وبعد فما أنا غير سجن مظلم مهدم تجره روح قديمة، شبيهة بالسلع، أو بفضلاتها التي تعرض في أسواق النفايات وفي عيني معين يفيض بالهرم والكلال ما أرى من ورائه إلا الشيخوخة تدب في كل شيء دبيب الفناء في كل حي!!!.

والدنيا نفسها هذه العجوز الشمطاء المتوكئة على عصوين من عمى

الأفكار وتزيين الأقدار!! أليست في حقيقتها شيئاً قديماً جداً، لم يبق فيه تعاقب الأزمان، وكر العصور معنى للجدة، أو رمزاً للشباب.

والزمن الرافض الدال على نفسه يتحول المرئيات وحركتها، أفتراه ساكناً ككل شيء مما أراه لا يريم مكانه، أم هو وحده السائر المجد لهذا الموكب الحافل إلى نهايته المحتومة؟ أم تراه ميدان حرب تتطاحن فيه الجموع وتقتتل وتتنازع البقاء الرخيص، غافلة عن سيره الحثيث بها!!

لقد هدني السهر، وبرمت بعبء أثقل كاهلي الضعيف، وما يفتأ يسلط على قلبي الضعيف وأعصابي المخطوفة شواظاً من اللهب يدفىء هذه الصحراء القارصة التي أجوبها وأضرب في حواشيها إلى غير غاية، ولكنه يلتهم منها كل معنى للعزاء وكل رمز للطمأنينة، طاوياً منها كل ما آنس إليه.

ذلك العبء الثقيل، هو رأسي الذي أنوء بحمله منذ تفطنت للحياة وغرست بتجاربها القاسية، ولو أن لي في موضعه من عاتقي رأس حيوان أعجم لما أخطأت العزاء في محنة.. فمن لي بذلك؟!.

وفي نفسي مقبرة، تنبت فيها قبور مليئة بالذكريات، أعشق فيها العداء والصداقة، والحب والبغضاء، والفوز الحلو والفشل المؤلم، والمادة والروح وغدت كلها تراباً صامتاً وخواء موحشاً منقبضاً لا يتصل من الحياة بعد اتصاله بنفسي وموطن الذكرى فيها، بشيء!.

وقبري بين هذه القبور فارغ يتثاءب قد مل الانتظار... الطويل، كما مللته، فمتى يعتنق التراب بالتراب، فيخفت هذا الأنين، ويتعطل بالزمن؟؟؟

التوقيع

هول الليل

عظيم(*)

تتفاوت مقادير الرجال الممتازين بمقدرتهم على الابتكار والتجديد.

وللعقول أجواء خاصة تتميز بسماتها وإشراقها. والعقول التي تتوازن كفاءاتها في غير أجوائها هي خير العقول وأقواها وأتمها نضوجاً.

وإنك ليدهشك أن يكون الطبيب كاتباً قديراً. فإذا كان شاعراً موهوباً زادت دهشتك، فإذا كان سياسياً محنكاً أو خبيراً بفنون الحرب أفعم نفسك إعجاباً لا مزيد بعده.

ونحن نفضل قطعة من الأرض على مدينة زاخرة بالمعجبات لأن الفتنة التي تتجمع أسبابها في القطعة متجاورة متناسبة ـ لا نجدها في المدينة الحافلة ففي المدينة طراز من الصناعة لا يتغير، فهي عاجزة عن استفزاز مشاعرك الفنية وتغذيتها ولكن هذه القطعة تتعدد فيها الصور وتزدحم فهي ترمز إلى صناعة الحياة المدنية، بما فيها من قصور ونظام وإلى فن الحياة النفسية، بما فيها من بساطة طبيعية، وإلى متعة الشعر بما يجول في حواشيها من حلاوة الريف وعذوبته وامتداده!

(*) صوت الحجاز ـ ٢٠/١٢/١٣٥٧هـ ـ ١٩/٢/١٩٣٩م.

ونحن نعجب بالبيت من الشعر أو بصورة من ريشة الرسام على مقدار ما يزدحمان به من معان ورموز.

فالرجال هكذا ورب رجل يأخذك بدسامة ظاهره ووسامة مخائله وحفول ملامحه، فإذا تكشف لك في مجال المحدود عن طاقاته الباطنية: لم يعد أن يكون في عينك نجماً يتألق ولكن في فلكه الخاص المحدود. فإذا اندفعت فيه مع أطماع خيالك الشره ودفعته إلى فلك غير فلكه اضطرب وتذبذب، وانقلب شرارة تجذبها عوامل غيرها من الأفلاك وتلعب بها.

وأنا اليوم أمام صورة رائعة، صورة رجل عظيم، نسوق هذه المقدمة للكلام على عبقريته لا لتحليلها، فنحن من المؤمنين بأن في نفس العظيم وسبيله في الحياة، سراً خفياً من العبقرية الموهوبة يعجز عن إدراكه التحليل.

هذا الرجل هو صاحب المعالي وزير المالية الشيخ عبد الله سليمان الحمدان(*) الذي تتألق عبقريته في كل فلك يغشاه، فهو في حفول نفسه بمعاني العبقرية الفياضة أكثر من رجل، وأكبر من عظيم. وما بالك برجل يأبى إلا أن يكون في كل أعماله، معنى من الابتكار والعمل الجبار؟ ومعنى من الأمل المنظم، ومعنى من الطموح الزاخر؟

وما بالك بعبقرية تضم أطرافاً واسعة من العمل والبناء، وألواناً من الرغبات والميول. وروائح من الابتكار والتجديد والإصلاح، والجهاد المستعر لها؟؟

ولسنا بسبيل الاستقصاء والإحصاء وحسبنا الإشارة والتوجيه.

ولأن من حسنات عاهل العرب الأكبر عبد العزيز الأول، ما نراه اليوم

(*) أول وزير للمالية في المملكة العربية السعودية توفي رحمه الله قبل سنوات.

من آثار بارزة في نهضة شعبه الكريم، وإصلاح سبيله في الحياة، فإن من أكبر الحسنات ولا شك أن يكون هذا الوزير الخطير، يداً عاملة لجلالته.

إن ميادين النشاط، كميادين الحرب لا نفاذ فيها إلا للشجاع المقحام وهي إلى هذا كمجالات السياسة، لا سبيل فيها إلا للفكر البصير، والذهن المبتكر، والخيال.

كل هذه الصفات يطالعك بها وجه هادئ رصين الملامح تترقرق فيه قوة الأمل، وقوة الإرادة وقوة الإيمان وتجول مجالها في حواشيه الوادعة معان جذابة من اللطف والكرم واللين واتساع مدى الشعور ومعان ناطقة تعبر عما يزدحم وراءها من ألوان العواطف والخوالج والإحساس الدقيق لكل ما هو جميل وعظيم، وسوي وفتان وقوي.

هذا الوزير الذي لا تراه العين إلا هادئاً هدوء الفجر الحالم، لا يكون في داخل نفسه، وبواطن تفكيره إلا حركة دائمة ما تهدأ ولا تقر، وشعلة تتأجج بها عوامل مطمع جبار، وأمل ممتد، وتفكير لا تقف دونه الحواجز والضرورات فهو فوقها وبعدها دائماً.

وعودته همته الظفر كله، فلا وعر إلا اجتازه ولا ذروة إلا اقترعها وعودته فنوناً من الظفر الشعري، أروعها فن ظفره بقلوب الرجال، فكأنما في نفسه، سحر نفوسهم ومغناطيسها.

وفي لسانه فتنة تقود أعصى القلوب وأشدها مراساً، وتملؤها حباً وطاعة وتضحية، وتدعه في أذهان رجاله فكرة تضيء السبيل وتشحذ النفوس وتشد العزائم.

وهذا شأن العظيم، لا يكفيه من نفسه أن تمتلئ شعابها حتى تفيض وتطفى وتنظم الناس حوله، وتسلكهم في طرازه.

ولقد كان من حظ هذه المملكة أن يكون هذا الوزير فيها جمرة النشاط ودعامة البناء، وعنصر الحيوية، فما فتئ منذ تولى شؤون وزارته وأعمالها الواسعة دائباً على العمل والتجديد، والابتكار والتنظيم، بخطوات موفقة، تقترن فيها التؤدة الحكيمة ـ وهي حركة هادئة متبصرة ـ بالسرعة وهي رمز العبقرية واقتحامها.

ومن آثار تجديده وابتكاره في دوائر الأعمال، ما كان في ذاته دعاية باهرة للإدارة العامة في هذه المملكة، وهو في مواقع الشعور فتح للقلوب وغزو لعواطفها. ومن ينكر أن من خير الدعايات أن يكون لبناية الجمرك الحديثة هذا الرصيف الفني؟ وهي البناية التي تعاقبت عليها الحكومات من قبل وخلفها كما كان العهد بها مضعضعة في دلالتها على حياة البلد؟

ومن ينكر أن من دلائل النشاط في حياة هذه المملكة أن تكون لجمركها هذه المخازن المحكمة التي كانت نتائجها انقلاباً محسوساً في أسلوب حفظ البضائع ونهايتها؟

والجهد مبذول لإتمام مخازن لحفظ البضائع وقتاً أطول من الوقت القانوني، وسيكون الانتهاء منها إلغاء نهائياً لضريبة الأرضية التي لا يفهم منها التاجر إلا أنها حيلة الجمرك لاقتناصه، وهي ليست أكثر من حافظ على تعجيل تخليص البضائع في خلال أسبوع، لتنظيم الحركة، وإخلاء السبيل. في مشروع كهذا تجد طابع وزير المالية الإنساني أوضح من طابعه الرسمي أو الإداري أو العملي.

فالفكرة فيه قائمة على ترقية التاجر وتبديد شعوره بالغبن والإرهاق، وعلى التقريب الفكري بينه وبين أنظمة الحكومة ومقرراتها ونصيب الفلسفة الإنسانية في هذا واضح بيِّن.

ومن يتتبع خطوات هذا الوزير الخطير، يدرك أثر النزعة الإنسانية فيها

وأثر النفس الشاعرة المستجيبة لنداء العواطف الاجتماعية الرحيمة.

ولا يقف مجهوده عند الحدود بل يتخطاها، ويتخطاها دائماً فالشعار الذي تترجم له أعماله المجيدة وغاياته النبيلة هو، إلى الأمام!

وإنك لتقف من أعمال هذا الوزير وميوله الصادقة، موقفك أمام الصناعة المدهشة ممزوجة بمطالب الفن الخالد.

وأمام مواهب العقل الاجتماعي، مقترنة بصفات الفطرة.

وأمام الإرادة الجائحة في سبيل من الحكمة والهوادة الإنسانية السامية.

فإذا كان للنظام الاقتصادي والاجتماعي في أمريكا أن يفاخر بأمثال فورد وفي مصر بأمثال حرب وفي غيرها بأمثالهما من أصحاب الأعمال التي يتوفر فيها نصيب العنصر الإنساني والاجتماعي، أكثر مما يتوفر نصيب المادة، فإن لهذه المملكة أن تفخر بهذا العامل المصلح، صديق الشعب، وصديق المبادئ الفاضلة ومثال العبقرية الناضجة.

وبعد فما بالغريب أن تخرج عظمة جلالة مليكنا ـ وهي مفخرة الجيل الجديد في تاريخ نهضة هذه المملكة ـ رجلاً فذاً كعبد الله السليمان.

إلا وإن لسعود جلالة الملك، آيات رائعات، لا ينزل منها هذا الوزير إلا منزلة واسطة العقد من العقد، ولم لا يكونها وهو يد من أيادي جلالته البيضاء على نهضة شعبه المخلص المتطلع إلى الأمام؟؟...

الجزء الثاني
بين النقد والجمال

«لو نظرنا إلى الوجود لما أصبنا معناه إلا في الإنسان، ولو التمسنا معنى الإنسان لما أصبناه إلا في الزمن الدائب.. والزمن ليس إلا إحساسنا بالحركة والتحول ولو وقف كل شيء في أعيننا لا يريم مكانه لما كان الجمال ولا كان الشعور بالسعادة.

ما معنى مظاهر الوجود في ذاتها؟ ما معنى الجدول المترقرق والحقل المهتز والنسمة؟

ما معنى مظاهر الوجود في ذاتها المتألق والبدر المشرق والليل الساجي؟».

بين النقد والجمال(*)

(١)

أبى صديقي الأستاذ عبد الله عريف(**) إلا أن يشيع كلمتي المتواضعة التي تحدثت فيها إلى الناس في ندوة الإسعاف عن الفضائل والرذائل وطائفة من فنون القول ومذاهبه ـ بمناحة تصطنع الهيبة للموت اصطناعاً ـ فنشر عنها كلمة دعاها «ضريبة الإعجاب» قال إنها صدى فني العالي، وأقول أنا إنها صدى ضميره الحي. وحرارة فنه المستوفز.

والكلمة التي تتضمن نقداً دقيقاً ومناقشة هادئة لفكرة ساقها الاستطراد عفواً، في مقدمة حديثي.

ولقد كنت حرياً أن أتقبلها كدلالة على رأيه الطيب فيَّ فلا أعر لفكرتي المنقودة بتفصيل أو تأييد حرصاً على أن لا يظن بي التعصب لما يجري في كلامي مجرى الفكرة السانحة، وفرقاً من أن تعد نظرتي إلى النقد نظرة الجفاء والتنكر.

لكن من حق الأستاذ عليَّ أن أمد يدي إليه، مكبراً فيه شجاعته وثقته

(*) صوت الحجاز، ١٣٥٩/١/١٧هـ ـ ١٩٤٠/٢/٢٥م.

(**) كاتب وصحفي كان يعمل أميناً للعاصمة المقدسة (مكة المكرمة).

بنفسه ووثاقة فهمه، ومن حقه علي أن لا أدعه يظن أنني قد قلت كلمتي وفرغت منها، فليس أحب إلي من النصب في سبيل تعديل الموازين ومعاناة الحقائق واحتمال مشقة الهدم والبناء في نفسي وفكري، فإن كانت الحياة حياة باستمرار حركتها، وتجدد دواعيها وتعدد صورها، فالنفس ما تكون النفس العميقة إلا بما يجيش بها من أسباب التغيير والتحول والتقدم والتقهقر.

وأنا ذو مزاج سؤوم، لا أدع الزمن يفجعني في طمأنينة شعوري بطرافة الأشياء، وأية حقيقة من حقائق الفكر. أو متعة من متعات الحس. أو طوبى من طوبيات الخيال الخلاب، يبقى لها جمالها على الزمن للماضي أو يفض الختام كل يوم عن جمالها ومعانيه جديدة أخاذة؟

إنما يصيب الأديب لذته الفنية، والفيلسوف متعته الفكرية من علاج الجديد وابتكاره، وحتى إذا عرض له القديم المألوف سلك إليه غير سبيله المطروقة.

وهل أضمن لهذا من النقد الذي تراد به القوة في ميزان الحدود والقيود والهدف والذي يهدم قديماً متداعياً ليقيم جديداً ثابتاً؟؟

والقول المرسل يكفي له النشاط ولكن تقنين القواعد، يقتضي النشاط والمقدرة والدفاع عنها يتطلب الصبر والقوة، فلا يحسبن الصديق أن سآمة المزاج ضعف ونضوب، فإنما هي قوة وحفول.

وقد لا تكون لي أعصاب الناقد ويكون لي إحساسه. ولكن لا تكون لي ملكته وخصائصه. وقد تتهيأ لي طبيعة الشاعر المشغوف بالحياة وجمالها المتطور وأحرم من طبيعة الشاعر المتطلع إلى حقائقها وأسرارها المكنونة فأكون أديباً أو شاعراً يتحدث إلى الناس عن فكره ونفسه، لا عن الفكر والنفس فما يمنعني هذا النقص أن أجول مجال القوي للعارم الموهوب وما

دمت حياً له حق الأحياء في العيش، فلي حق الناس في التفكير.

وللأستاذ الصديق أعصاب الناقد وحسه وملكته وخصائصه ونفس الشاعر المفتون بجمال الحياة وقبحها، والمأخوذ بحقها وطبيعة الفيلسوف الهائم بحقائق الحياة والمعنى بأسرارها. فلماذا لا يكون من حقه أن ينقد الأخطاء ويقوّم المعوج وينطلق في جو فنه الفسيح متأملاً واعياً، يسمي الأشياء بأسمائها ويردها إلى مصادرها.

ولست أدري لم اختار الصديق أن يبدأ بي. إلا أنه عرف في رحابة الصدر للنقد. والصبر على ما تجره نظرة الاتهام من مضض أم لأنه أراد أن يفهم الناس عنه أن الصلة الصحيحة بين ندّين جديرة بأن تزداد امتزاجاً وقرابة بالصراحة والاختلاف لا بالائتلاف والتستر؟!

إني أرحب به وبنقده ترحيب الصديق بالصديق، وأرجو أن لا يقنع من النقد إلا بما يغلغل في الأعماق، ويكشف أدق العيوب، وأخفاها ببصيرته النفاذة وفنه الذواق.

* * *

وضريبة الإعجاب تجلوها طبيعة صديقي النمومة، لصديقي الظاهرة وليس لي إلا فضل اكتشافها والإشارة إليها.

هي صورة الناقد الصريح أو الناقد المتهكم لا يمنعه الاعتراف بقيمة المنقود وأثره أو يوهن منه بأسلوب الرمز والإيماء السافرين ولكن طبيعته النمومة تشي به فتجعل هذا الرمز المبالغ في إخفائه، سراً فاشياً وحركة ملحوظة. وما زالت نظرة الناقد أو طبيعته أميل إلى خيانة صاحبها وخذلانه، كما تخون العاشق تقطيبته المصطنعة وإشاحته المتكلفة، فتكون كلاماً يقول كل حرف فيه ما لا يقوله الكلام الواضح والبيان المقصود.

قال في فاتحة كلمته:

«إن انصياع الجماعة واندفاعها أقوى منهما في الفرد».

و«وإن الفرد وسط الجماعة أقوى شعوراً وإدراكاً من الفرد وحيداً».

وهذا تمهيد واضح الاتجاه لكلمة نقد عارية قوية، تهز بعنف ما تضمنه حديثي من آراء، ونظرات في سبيل تقدير أثرها في نفوس الجماعة السامعة فماذا يريد أن يقول؟

إن كان هذا الحديث قد أعجب الناس واستفز أفكارهم ونفوسهم فليس لأنه خليق بأن يبلغ هذا المبلغ منهم، بل لأنهم جماعة ولأن الجماعة أقل تمييزاً من الفرد فهي أسرع استجابة.

هكذا يريد أن يقول صديقي الأستاذ، وكلمتا التمييز والاستجابة هنا سيظنهما إقحاماً ومغالطة وهما تعديل مقصود بجملته التي تتضمن معنى أن الجماعة أكثر انصياعاً للمؤثرات من الفرد. وعلماء الاجتماع يقولون أو أحسب أنهم يقولون إن تأثر الجماعة واندفاعها أسهل من تأثر الفرد واندفاعه لأن شأن الجماعة أن تفقد قدرتها على التمييز والتعقل أمام المؤثرات العنيفة فهي لذلك أرهف شعوراً وأقوى وأقرب تهيجاً على نقيض الفرد الذي هو أقدر منها على التمييز والإدراك فيكون أقل انقياداً وأكثر تعقلاً.

إذن فالفرد بين الجماعة المتحمسة أضعف إدراكاً لأنه أقل تمييزاً كما يقول علماء الاجتماع وليس أقوى إدراكاً لأنه أقوى شعوراً كما يقول الناقد.

وإذا فقوة الشعور لا تقابل قوة الإدراك فالذي يضعف تعقله بين الجماعة المنفعلة بمؤثر عنيف لا يفقد شعوره بل يحتدم لأن الشعور إحساس والتعقل فهم وما دام الفرد وحيداً أقوى شعوراً وإدراكاً منه بين الجماعة المأخوذة فمعنى هذا أنه أضعف شعوراً وإدراكاً خارجها وهذا

تناقض ملموح لا تعرف فيه القاعدة سبيلها القويم ولو حللنا ما يقوله الأستاذ الصديق بطريقة أخرى لعلمنا أنه يعتقد أن الفرد + الجماعة = أكثر انصياعاً للمؤثرات، فالفرد ـ الجماعة = أقل انصياعاً للمؤثرات وأن الفرد + الجماعة = أقوى شعوراً وإدراكاً. والفرد ـ الجماعة = أضعف شعوراً وإدراكاً. وإذن فالأقوى شعوراً وإدراكاً = أسهل انقياداً. والأضعف شعوراً وإدراكاً = أصعب انقيادا. وهكذا تأخذ الجماعة خصيصة الفرد في هذه القاعدة. ولا شك أن التقاء الشعور والإدراك في قانون الأستاذ أو في مثله الذي ساقه سبب هذا الارتباك الواضح. فهل من حيلة يرتجلها لتقينا حرج التقاء الساكنين؟؟ كما عند النحاة.

والحب شعور كلما ازداد قوة انعدمت ملكة التمييز والإدراك والاختيار في العاشق فلو قال قائل إن الحب يقوم على الفهم والإدراك أو الاقتناع والاختيار لا على طغيان الشعور وعمق التأثر لما قال إلا كلاماً يصلح أن يكون قاعدة محدودة أو قاعدة حادثة خاصة. وما دام الصديق يتحدث عما يقوله علماء الاجتماع فهو حريٌّ بأن تزحمه بمحصولنا الضعيف منه. على أن لا يضيق ذرعاً بهذه الدقة التي نقتنص بها دعاية سانحة ونود أن نطمئن بها إلى مقدرتنا على التحديد وإن كنا نعتقد أن الإطلاق أسهل السبيلين وأهون الشرين.

والعبرة هنا ليست بخطأ الصديق في المقابلة بين الشعور والإدراك ولكن بما نمت عليه طبيعته في هذه الكلمة المنطلقة لا سلطان لعقلة الواعي عليها فهي حقيقة قام معناها في النفس سافراً، وإن تبرقع بألفاظ الإطراء المسرف.

إن الأستاذ الصديق لم يكن يعنيه ما يقول علماء الاجتماع في شأن الفرد والجماعة ولكنه أراد أن يعلل اندفاعه في الإعجاب والتأثر بحديثي الملقى ويعتذر بأن هذا الإعجاب إنما كان أثر اندماجه اللامنتهي في حماس

الجماعة فلا غرو أن يكون له رأي خاص بعد أن يخلو إلى نفسه.

فما هو هذا الرأي؟ هو أن الصورة الجميلة لا تفقد تأثيرها في النفس الذواقة مهما طال إليها النظر المشغوف وارتوى منها الحس المفهوم فهل هذا صحيح؟.

بين النقد والجمال(*)

(٢)

إن لبعض الصور والأشياء قوانين ذاتية لا تفسر اصطلاحاتها ورموزها إلا بمفتاحها الخاص. فإذا التمسنا فهمها بغير مفتاح هذه القوانين اضطرب بنا القياس واختلت الأحكام ونحن لا نطلب أن يكون مزاج كل شاعر صورة لأمزجة الشعراء في دنيا فيها الشيوع وفيها الندرة، وفيها الاتفاق والاختلاف والاستقامة والعوج والصحة والخطأ ونقول الدنيا ونعني بها النفوس وخوالجها ونزعاتها وعالمها الحفيل.

والحياة بغير هذا التنوع والتفاوت والتناقض والتباين خليقة بأن تفقد قوام معناها الفني.

والغلبة ليست دليل الصحة فما خلدت الحياة أحسن آثارها إلا من سبيل الندرة ومخالفة المألوفات الدارجة. فالشعر كلام تدور على ألسنة الناس ألفاظه ومعانيه ولكنه فوق الكلام الشائع. والشعر والعبقري نظيم كسائر الشعر في التركيب والتوليد والافتنان، ولكنه غير سائر الشعر في قيمه ومعاييره وعمقه وندرته. وألماس زجاج في الزجاج مثل بريقه وسطوعه

(*) صوت الحجاز ـ ٢٠/١/١٣٥٩هـ ـ ٢٨/٢/١٩٤٠م.

ولكن ليست فيه ندرته وخواصه وصلابته. والهمجي لا يميز بينهما.

والناس يتفقون على حسن الجدول والحقل، ويتشابهون في الارتياح إليهما ويشتركون في تناولهما من ناحية الطلاقة الظاهرة، والجمال المتاح والمتعة الهنيئة ولكن الشاعر المبتكر والفيلسوف المتعمق والعاشق المشغوف، يتناولون في الحقل والجدول ومن معانيهما الخفية وحقائقهما المتخيلة وعلاقاتهما بهوى النفس والفكر، فرحاً وترحاً وطرباً وانقباضاً ما لا يستطيع الناس إدراكه أو الشعور به، فهل يعرف جمال الجدول والحقل بالنظرة الغالية أيهما، أم بالنظرة الفريدة تتخطى حدود النظرة العابرة والشعور القريب؟

ومن يظن أن فرحة الأديب والشاعر والفيلسوف بالجدول والحقل كفرحة الرجل العادي، أو من يرى أن شعور العاشق بنبض الحياة ومعانيها ونسيمها الخافت حوله وفي نفسه في حالات سروره وحزنه ويأسه ورجائه، كشعور الخلي اللاهي؟؟ فالشاعر والفيلسوف والعاشق لا يختلفون عن عامة الناس في هذا إلا بأن لهم حساً فوق حس الناس وأمزجة أدق وملكات أحفل وإدراكاً أخصب. فإن شئنا أن نقارن بين نظرة الفيلسوف والشاعر وبين نظرة الرجل العادي إلى شيء وجب أن نعطي كلا نسبيته وقانونه. ولا يكفي هنا أن تكون النسبة الشائعة القانون المشترك إنسانيته الضدين وتشاكل ظاهرهما وحدة الموضوع.

ورب ناظر يرى الجدول فيرى لغة الجمال تتزاحم فيها المعاني وتتداعى فيدرك كل معنى منها بشتى الحواس، وآخر يراه بالعين المجردة والخيال المحدود فما يجد فيه إلا ما يجد الحيوان السارح أو الطائر المتوثب أو الطفل الطروب من فرحة قصيرة الأجل حنيقة المدى.

هذا فرق ما بين الناس والنظرات. وليست الدنيا هذه الرقعة الواسعة

الجامدة، إنما هي هذه المعاني المنطلقة المتجددة في خياله ونفسه وفكره. وبذلك تدفع الحياة من نفوس الشاعرين بها لغوب السآمة، وفتور الملل. فالحياة كما قلنا ـ حياة بالتغيير الدائم، والتجدد المستمر والتطور إلى أرقى وأكمل معانيها وحوافزها وافتن مظاهر جمالها بل هو معنى الجمال وسره فيها والسعادة ـ في رأينا ـ هي المسرة المتجددة.

والجمال من أغلى غايات السعادة إن لم يكن أغلى غاياتها فلو لم تكن السعادة غاية النفس أكان يكون الجمال مطلبها الذي تريمه وتلتمسه؟ فإذا لم يوح الجمال بالمسرة المتجددة لم يضمن السعادة وهو فخها المنصوب وأحبلتها القائمة.

وكيف يضمن الجمال تجدد المسرة واطرادها إن كان غير قدير على تجديد معانيه وتنويع مؤثراته وتزويدها بالألوان والطيوف والأخيلة الموشاة؟ فهل يطيق الجمال هذا العبء والزمن جزء من معنى الجمال والشعور به؟؟ وأي شيء في الحياة تبقى له روعة جماله، وجدة معناه في نفوسنا وأبصارنا بعد فهمه واستغراقه والتزود بخير ما فيه وأجمله؟؟

انا لو نظرنا إلى الوجود لما أصبنا معناه إلا في الإنسان، ولو التمسنا معنى الإنسان لما أصبناه إلا في الزمن الدائب.

والزمن ليس إلا إحساسنا بالحركة والتحول ولو وقف كل شيء في أعيننا لا يريم مكانه لما كان الجمال ولا كان الشعور بالسعادة.

ما معنى مظاهر الوجود في ذاتها؟ ما معنى الجدول المترقرق والحقل المهتز والنسمة؟

ما معنى مظاهر الوجود في ذاتها المتألق والبدر المشرق والليل الساجي؟؟

أليست حقيقة معانيها في نفس الإنسان ونظرته وشعوره وما كنه هذه الحقيقة ومعانيها في نفسه إلا أنها جزء من الزمن المتغير وساعاته المتجددة؟

فالمباني تنسب إلى مظاهر الوجود من قبيل التغليب وإلا فهي في حقيقتها معاني أنفسنا وصور أفكارنا ومشاعرنا وتأثراتنا.

وهب أنني رجل أكمه الذوق. فما تكون معاني هذه الصور في نفسي؟

أو هب أنني فلاح يقضي حياته بين حقوله وعلى صفحات جداولها المنسابة؟

تتلون معانيها في نفسي ودخائل فكري هذا الجمال المعبر الأخاذ. الذي يحسه الشاعر ويساجله ويناغيه العاشق ويحدثه الفيلسوف ويستنطقه أم أنها تكون عندي رمز الكد وضرورة الإنتاج والنصب للعيش وضروراته القاهرة؟

ونحن نشير بالاستصفاء والتذوق إلى غير علاج الفكر والنظر، فهل فهم الأستاذ الصديق كناية هذا العلاج على وجهها الصحيح، أم كانت الغيمة أقل شفوفاً عما يحول وراءها، فبقيت للألفاظ مدلولاتها الدانية؟

وحسب الصديق أن يقيس وقع السماء في النفس، في حالاتها الخاصة إلى وقع الجمال الحي النابض في شتى حالاته ليرى الفارق جلياً فوق بداهة النفس والفكر عشرات الأدلة عليه.

ولو افترضنا الدوام والإدمان للنظرة إلى السماء لما كان هذا دليل الفهم والإحاطة بمعاني جزء من مظاهرها المجهولة.

وكلامنا على إدمان النظرة المشفوفة إلى الصورة الجميلة والعكوف على استصفاء معانيها وتركيزها، يعني الفهم والتذوق والتغلغل في أطوائها،

والإحاطة بما يفرضه الخيال المتداعي لما يكمن وراء حدودها الظاهرة فما تقاس به النظرة إلى جمال السماء أو جمال الفكرة الفرضية عنها.

والسماء بعد من مظاهر الوجود الثابتة بالنسبة إلى عمر الإنسان المحدود فهي على نقيض الصورة الجميلة الحية، يكون الزمن جزءاً من حقيقتها. وطبيعة الشعور بها وإلحاح الشوق إلى استصفاء معانيها والزمن ولو كان ربيعاً كله ما كان للربيع معنى جدته وسحره وروائه الأخاذ لذلك كان تعاقب الصور وتجددها شرطاً لازماً لضمان تأثير الجمال، وتأثير معانيه. ولذلك كان الزمن جزءاً من حقيقة الجمال أو كان أهم أجزائها.

وقد قلنا إن الحياة تكون جميلة رائعة بالتغيير والتجدد ونحن نرى أن أصحاب الإدراكات الواسعة والإحساس القوي والتذوق العميق أكثر تغييراً أو ابتداعاً وأكثر ميلاً إلى التغيير والابتداع وهذا تقليد لمجرى الحياة الصادقة فهل كانوا هكذا، وإلا لأنهم أفهم للحياة وأفطن لمعاني الجمال وأكثر طلاباً لها وتوفراً عليها؟ وهم بعد أسرع مللاً من ذوي النفوس الراكدة الذين يرون الجمال بحواس لا تختلف عن حواس البهائم السائمة فهم لا يعرفون الملل لأنهم لا يعرفون التوليد ولا تتفجر في نفوسهم المعاني والخيالات والمطالب ولا تتداعى الصور.

وقد نرى إنساناً يسحره البدر لأنه المضيء الساطع. فإذا شبهه بمن يحب كانت الصلة عنده بينهما اللألاء والاستدارة. وإنساناً يرى في البدر حيالة فتنة الحي الرائعة ومشابهة وسهومه وخيالاته وحيرته وسأمه وخفوقه وله عواطفه ونوادره الطريقة إقبالاً وإدباراً ونشاطاً وفتوراً.

أفلا يكون من له هذه المقدرة على توليد الصور والمعاني أفطن لحقيقة الجمال الواسعة وأقدر على التهامها وتذوقها وعلى تركيزها وإذابتها؟

وبعد فهل يسعنا أن نتصور في الحياة جمالاً غير مسؤوم؟ أو جمالاً لا

تصرفنا عنه صوارف الفهم والاكتفاء وإدمان التذوق والمصاحبة الطويلة؟

إن تأثير نوازل الشقاء الطارئة أعمق أثراً في النفس من مسرتها بالجمال فأية نازلة في الدنيا لا تخلل معناها السلوى ولا يذهب بفجيعتها الاعتياد والألف.

فذاك حيث زعمت أن إدمان النظرة إلى صورة جميلة يفقدها شيئاً من تأثيرها كلما تجدد إليها النظر المشغوف وارتوى منها الحس المفهوم. وذاك حيث زعمت أن لبعض الأذواق قوة النار واستشراءها ما يستقيم الجمال في لهيبها الجاحم إلا قليلاً.

وذلك حيث يكون الذوق العامل على تحليل معاني الجمال واستساغتها، ذوقاً سؤوماً متحولاً لا ينتهي عنده عمر لصوره الجميلة بانتهاء عمر معانيها فيه.

وهذا كلام يصدق على عشاق الشعر وهواة الفنون، صدقه على عشاق الجمال ومعانيه، وطلاب غرائبه وطرائفه، ورواد مجاهله وأوعاره.

ولقد قرأنا كما قرأ غيرنا أرق صور الشعر، وأجمل معانيه وروائعه، فما زال الإدمان ينتهي بها إلى الإصغاء حتى أصبح عندنا أشبه بالكلام المردد على الألسنة.

والحجر المنحوت بالصنعة المركب في نحو عمود أو عتبة يفقد روعة معناه مع إدمان النظرة فينقلب صورة فاتنة الأداء والجمال مجهود الناحت دليل مقدرته ولكن يبقى في الشعر الجميل بعد انقضاء الإعجاب به أثر قائله وأثر جهده الفني، ولذلك بقي بعض الشعر ببقاء أسماء قائليه واندثر بعضه باندثار أسمائهم.

وقد يلقانا الجميل أول ما نلقاه بحشد من معانيه الفاتنة ليست هي

أداءه عن نفسه ولكن أداءنا عنه وعن موقعه من نفوسنا وأفكارنا فما نفتأ ندور بهذه المعاني مطابقة وقياساً ومداً وجذراً وإطلاقاً وتقييداً حتى نشعر بنشوة امتلاكه واحتوائه فإذا الاكتفاء أو التجدد المنتهي إلى انقضاء التأثير فيستحيل شعور بالصورة الفاتنة إلى ما يشبه شعور العاشق بعد إفاقته من غيبوبته واستغراقه.

وقد قلنا الجمال والصورة الجميلة ولسنا نعني المثل الأعلى للجمال حتى يشعر صديقنا الأستاذ بهول الفجيعة في ما نقول على أننا نظن أن النفس متى ألقت ملامح مثلها الأعلى انصرف بها سأمها أو اكتفاؤها إلى مثل غيره فيتصور له الزيادة وتفرض الأرباء، وإن عجزت عن استحضار الصور وتحديدها.

والخلود الموجود أليس هو مثل الحياة الأعلى؟ فقد جاء في تصويره والحكاية عند ذكر السأم واللغوب ونفيهما، فهل نفيهما إلا لأنهما من طبائع النفس الإنسانية وخصائصها، وإلا لأن ورودهما عن النفس في غمرة الخلود ممكن لا مفروض؟ والجميل ذاته لا يروعه أن يكون لجماله لغة يفهم منها الناس ويحسون ما لا يفهم ويحس ألا تراه خطأ أن يظن ظان به الترف والنعمة والثراء العريض، حيث لا يرى هو في نفسه، إلا دون ما يراه موفوراً في الناس أو مثله؟ لذلك كان الحب الفصيح الملذوع جمالاً يؤثر الجميل ويدنيه، فهو لغة قوته في ضعفه، ومعنى اختياره في اضطراره. والجميل يعرف بحاسة الجمال فيه ولا يدهن صديقنا الأستاذ أن تكون للجمال حساسية أم يصطلح عليها الناس بعد ارتواء العطشان اللاظي لا يبقى للماء إلا معنى أنه ماء وقد كان في حرقة الحاجة شيئاً ألوف المعاني تخطر خطراتها الهزاز في النفس والحس وإطواء الفكر وأن الماء في ذاته الماء لا غير، ولكنه في الظامىء أو عنده، المطلب الذي تتجمع فيه معاني الحياة،

وأسرارها؟ وحاسة الجمال تعرف بعض من خطرات معانيه في النفوس أنه حقيقة الحب فإذا ظهر لم تكن حقيقته في ذاته إلا حقيقة الفكرة عنه ولم يكن عمره إلا عمرها الآخذ في الإدبار كمعاني الماء في نفس الظامىء، تعيش بعيش الظمأ وتزول أو تختفي بانقضائه.. والماء بعد لم يتحول.

ومن هنا يعرف الأستاذ أني لا أوجب تحول الصورة الجميلة، ولا أرى أن تفقد حقيقة جمالها الظاهرة، ليتم الإصطفاء والفقدان الذاتي الذي راعه أن يكون نتيجة الوفاء للجمال أو فهمه.

وصديقنا الأستاذ يحب الحياة ـ كما أسلفت ـ ويحرص على محصوله الفاتن من صور الجمال فيها، فلا يجب أن يفجعه التجريد في ذخيرته منها، ولكن الوفاء الذي تعرفه الحياة لا يصرف الإطلاق الذي تعرفه طبيعة الشاعر العاشق وتألفه ولا يصرف أباطيل الخيال المتدفق وروغاته فما ألوم الأستاذ عن رؤيته يلتمس الدليل على اختلاف نظرتي بشيء من الشعر الجميل يضطرب، المقياس في يدي فما زالت النفس التي تشعر بوفائها للجمال المحبوب، ترى الوفاء ضرورة يتسع بها مدى الشعور بالكرامة والصدق.. ونقول آسفين ـ إن الحياة لا تكون الحياة إلا بتردد هنة الفجيعة فيها. وقد قال المتنبي الذي استعداه الأستاذ على نظريتي في الدنيا.

ولا خير فيها للشجاعة والندى   وطيب المنى لولا لقاء شعوب

وقال ابن الرومي:

إن من ساءه الزمان بشيء   لخليق إذن بأن يتسلى

ونقول نحن:

ومعاني الحياة تفجع في الحسن   وفي الحب، والمنى والوفاء

نود أن نسأل الأستاذ الآن عن معنى الجمال في الأبيات التي ساقها للتدليل على زيف نظرتنا ما شارته؟ أهي دقة الحقيقة الفلسفية وصدقها؟ أم جمال الصياغة؟ أم من الشاعر قوة تأليفه؟ أم شيء يعرفه ولا نسميه؟

أما نحن فنعرف أن الجمال غير الحقيقة وغير الإتقان، وغير التآلف ولا نرى في أبيات المتنبي من حيث الصياغة الفنية جمالاً يغري بإدمان النظرة ولا من حيث المعنى إلا صحة الحكم.

ولا نرى في بيت شوقي إلا إطلاق الخيال والإحالة وما فيه بعد هذا ما يأخذنا بشعور المفاجأة أو حلاوة المسرة ولعل بيتنا ـ على بساطة تركيبه وضعف السياق فيه ـ أضمن لتوكيد هذه المسرة بالجمال والحب، وأحفل بالرموز وأغنى بالمفاجآت وأدق، أداء وتصوير الحقيقة من حقائق النفس في الحياة أو للحياة في النفس.

والحقائق في أبيات المتنبي لا تتغير على الزمان.. فروعتها روعة للصحة والثبات ومسايرة واقع الحياة ومطابقة سيرها فما فيها بعد أن تغدو مفهومة المعنى ما يشيع المسرة في النفس أو ما يشعرها بتغير الصور وتعاقبها.

وقد قال المتنبي:

لو فكر العاشق في منتهى   حسن الذي يسبيه لم يسبه

وما زال كل عاشق يتصور منتهى حسن الذي يسبيه، ويرى نهايته المحتومة ولكن هذه النهاية المتخيلة لا تصرفه عن الحب والانقياد، بل لعلها خليقة بأن تزيده حرصاً على مسابقة الزمن وحماسة الولع ورغبة التزود.

فالحكمة الصادقة لا تنتصر على منطق العاشق، ولا تنال من سلطة

الجمال وحقيقته وإن كانت سلطة الجمال أو حقيقته قصيرة العمر ورهن التحول.

فإن كانت حقائق الفلسفة الصادقة في الشعر الرقيق أو الشعر القوي جمالاً فأي الجمالين أجلب للمسرة وأضمن للنصر وأبقى أثراً في النفس، وأقوى سلطاناً عليها؟!

أترانا الآن بحاجة إلى غشيان كهوف الشعور وسراديب النفس ويسألني الأستاذ في لوعة المفجوع المنكر.. عن كلمات العدالة والحرية والحب والجمال مالها تفعل فعل السحر في العقول؟ وما لها لم تصب بالإصفاء والإفلاس؟

وأنا لم أتحدث عن هذه الكلمات حتى تكون على تبعة جمودها واستعصائها ومغالبتها للفناء والإصفاء، فما أراها جزءاً من الجمال الذي قلت فيه كلمتي المقلقة!..

إنما نتحدث عن الصورة الجميلة تأخذ فيها النفس الذواقة بحظها من المتعة كاملاً فتكتفي أو تتحول، فإن لم يكن ما قلته حقاً نرى موضعه المكين الواضح في النفس والحياة فليكن الزمن لحظة جامدة تقف فيها دورة الفلك المغذى عن السير ولتكن الصورة الجميلة بعد رسماً جامداً لا يعدو حدود إطاره القاهرة، حتى يأمن من مزاج صديقي الناقد، الفجيعة في حقيقة شعوره بالجمال والنفس!

ويقول الأستاذ الصديق «والجديد جدة مطلقة لا يلحظه الإنسان إنما يلاحظ ما يعرفه بعض المعرفة» وساق تجربة استدل بها على صحة نظرته ثلاثة من عمال مطبعة نشر بينهم كتاباً جميلاً ليرى أثر (هذه الصورة الجميلة) في نفوسهم.

أما عامل الصف فقد أخذ بإتقان صف الحروف و(جمالها!) ولم يتحدث عن الطبع والتجليد، ومثله فعل عاملا التجليد والطبع.

وإني أعترف في شجاعة لصديقي الناقد، بأن هذا المثل قد أدار رأسي حقاً فإن أبى إلا أن أتناول بالمناقشة كلامه هذا، فليحدثني أولاً عن فرق ما بين الاتفاق والجمال عنده فقد بدأت أشعر بأني خولطت وتداخلت في فكري حدود الأشياء. فالجمال عندي غير الاتقان ودقة الصف والتناسب وأظنه هكذا عند غيره من أبناء آدم وما بي أن يكون غيره، ولكن بي أني لم أرد أن أتحدث عن شيء آخر في حديثي عن صور الجمال أو الصور الجميلة الإنسانية أو الصورة التي ينفخ فيها خيال الإنسان من حياته ويسبغ عليها من معانيه وما يجعلها وثيقة الاتصال به. أما الكتاب المطبوع؟...

وهنا يحسن أن أقف رحمة بي وبالقراء وأن أسجل تقديري العميق لصديقي الذي أنسب إليه ما في كلامي من حسن أو قبيح لأنه مثيره وباعثه.. وإلى اللقاء إن أتاحته الفرصة، وأسعف به الجهد المضعوف، والذهن المكدود...

بين النقد والجمال(*)

(٣)

ليس أشقى للنفس من أن تبقى غامضة عند من تنكشف له عن أعمق وأخفى مكنوناتها. ذلك معنى من البعد ينتهي عنده جهد القرب والدنو، أو معنى من اليأس يقف عنده سير الأمل والرجاء.

وما نظن أن حسرة تكون أبقى في القلب وأدوى له من حسرة شاك يفتح مغاليق قلبه بين يدي من يتوسم فيه الارتياح والإصغاء والمسايرة فإذا بلغ غاية أمره في شكواه، كان بينهما مدى مترامي الأطراف تضيع الأصداء في مخارمه الصماء.

كتبت عن الجمال في عددين فائتين من أعداد هذه الجريدة(*)، ما حسبته غاية في الوضاحة، صادراً فيها عن تجارب نفسي وواقعها، وعن خبرتي العميقة بالحياة والنفوس، فإذا هو الدعوى التي لا تنهض بها حجة، ولا يستقيم لها قياس، عند صديقي الأديب عريف، وإذا كل نصيب حقائق الفكر والنفس بيننا أن تكون جدلاً مردداً، يدور به الكلام، وتتجدد المحاورة، وليس فيه بعد ذلك إلا أنه سبيل أن يلقي أحدنا السلاح.

(*) صوت الحجاز ـ ٨/ ٢/ ١٣٥٩هـ ـ ١٨/ ٣/ ١٩٤٠م.

وما بي والله إن ألقى السلاح، أو يلقيه هذا القرن الصامد ولتكن بي أن أكون مكفوف الصطا في هذا الجمال الذي تصطلح على تقييد انطلاقي فيه قيود من العرف الآبد، وقيود من الود الوثيق، وقيود الفطنة لطاقة الحياة الفكرية عندنا ولطبيعة إدراكها اللموحة.

وقد سئم الناس ـ أو كادوا ـ أن أقول فأطيل القول في تدعيم نظراتي إلى الجمال وقرضها، وحسبوها محاولة ظاهرة الدلالة أتحرى بها الأغراب والشذوذ، فيما تخادعهم عنه نفوسهم في حقيقة الجمال ومعانيه، وفي حقيقة الشعور به.

وأكثر الناس مطمئنون إلى حياتهم وإلى مذاهبهم الهينة في فهمها، وتفسير قوانينها. والإحساس بالجمال والقبح فيها وحريصون على أن تبقى لهم الفرحة، وتدوم المتعة بها كأنما هم في جلسة التفرج الهادىء أو المفكر السائم المنصرف عما في الحياة من جد ولهو بما في نفسه من طمأنينة وارتياح أو فتور وملل. فما يسر من كانت هذه حاله أن يقتحم عليه خلوته الناعسة الكليلة، أديب تسبقه الطبول إيذاناً بإشهار الحرب على الجمال وتجريده ورج جوانبه.

والناس إن لم يطيقوا الفجيعة في هذا كانوا على حق. فما يطيق الفجيعة في عقيدة من عقائد نفسه، أو في خيال من أخيلته إلا من فجعته الحياة في حقائقها الزائفة، وحججها الباطلة المدفوعة.

وشأن الأديب في العرف أن يضاعف محاسن الحياة، ويزيد الشعور بمسراتها لا أن يمسخ صورها الجميلة ويهدمها ولكن هل يسع كل أديب أن يكون هذا مذهبه، فذاك حيث ألقى الناس كما لقيتهم بجديد هو لغة الهدم والبعثرة والإقلاق في نفوسهم ومعتقداتهم الفكرية، ولغة البناء في منطق فكري واعتقاده.

وما تزال أدق البصائر، أفطن لعيوب الحياة وحقائقها المشوهة كما هي أفطن لمحاسنها وحقائقها الصحيحة.

ومن يظن أن المتشائمين ثائرون على الحياة ومسراتها، أو كارهون لمباهجها إنما هي ثورة الراغب المستزيد، لا ثورة الكاره المحتوى.

وقد تفطن الأستاذ عريف إلى أن سلاح الحيدة عن مناقشة نظراتي وقرعها بالحجة الدامغة هو السلاح الذي يضمن له أن أتكلم وحدي، وأن يكون صوتي المسموع لتكون الحرب بيني وبين سواد القراء، حرباً أكون فيها المهاجم الشاذ لا يبالي إن تقع بطشته من نفوسهم وعقائدهم الفكرية، فيلقى الأستاذ الكلمة لا تستوي علاقتها بما نجول فيه أو تحوم حوله ويكون عند القراء قد رد العادية وجال مجاله فيها، ونصيبي من الكد والجهد الناصب بعد ليس نصيبه، ولكنه ينحدر الى نفوس الناس هذا المنحدر السهل الرقيق والسهولة ما تزال عندهم أداة، الزينة والمسرة وشارة التعلل والعزاء، أو هي مادة الاجترار التي ما تنتهي بها النظرة البارحة إلى إصغاء.

ولقد يكون من الممتع حقاً أن يظن الأستاذ الصديق أن هذا محك الحقائق والنظرات، وغاية النفوس والعقول، وهو في حقيقته العارية غاية الاسترخاء والتهويم.

فإن كنا لا نكتب إلا لأوساط الناس فقد وأدنا خير عناصر الجمال، وأقوى وأحفل معاني الفكر والنفس، ولم يكن أثرها جهدنا المبذول أكثر من متعة يزجى بها الفراغ ويتاح اللهو للنفوس الراكدة والعقول المهمومة.

وما أراني وأراه أمام القراء إن سلكنا هذا السبيل إلا في حلقة الملاكمة لا يعرف فيها سبيل المقارنة الدقيقة، والحكم الفني الصحيح، إلا من تضيع أصواتهم في دعكة الضجة المنطلقة، والهرج العالي. ثم لا معنى بعد إلا للضربة القاضية وأين هي مني ومنه، إن كانت الوسيلة إليها إن

استمر على تدعيم حجة يغفلها الرد، وينصرف عنها النقد، وأن تكون الكلمة لي، ولي دائماً.

فهل يسعني أن أبقى هكذا كالمتهم بالجرم كل شأنه أن توجه إليه الأسئلة وأن يجيب.

لقد عرف الناس عني. كما أعرف عن شأن نفسي أنني لا أضيق بالكلام ولكني أكره أن اطيل الجولان حول نقطة لا يعدوها البحث، ولا يتخطاها الشرح والتفصيل، وما تعنيني والله راحة الناس، أو دفع الظنة عن بصري بالعيوب والمفارقات، إنما هي سآمة من يشعر أنه يضرب في أحشاء الفضاء.

فإن كانت هذه لغة الهزيمة، وإلقاء السلاح. فلتكن براءة مني لصديقي الأستاذ الأديب، يكتسب بها فوزاً جديداً عند من تكون الحياة في أبصارهم متحفاً من الصور الجميلة والأحجار المنحوتة والخشب المنجور. لا يفصل بينهما وبين الجمال الزائل المتغير القابل للإصغاء. وفقدان التأثير في النفوس إلا أنها باقية وهو متغير، وجامدة وهو منطلق. مدهونة لامعة مزخرفة، وهو بسيط عاطل من الزخارف والوشى.

ولهذا أخلق بأن يجعلها أجمل عندهم وأبقى أثراً في نفوسهم، وأغلى موقعاً فيها. ما دام هذا منطق من يخافون الفجيعة ويفرقون من مفازع الحرية والانطلاق ومفاجآت الزمن الراكض.

وهب أن هذا شأن أوساط الناس ومبلغ فهمهم للحياة والجمال ومقدرتهم على تفسير رموزها ومعانيها، أفيكون أيضاً شأن الأستاذ الأديب؟ أم هو لهو الفراغ وثرثرة البطالة الفكرية، يسوقاننا إلى تسويد الصحائف وإطالة النقاش في غير جدوى؟

يقول الأستاذ إنه لو كان له أن يستقبل ما استدبر في نقد نظراتي إليها لسلك طريقاً غير طريقه الذي سلك وأنه لا يصرفه عن التنكر لي إلا حرصه على ألا يعصف بصلة الود بيني وبينه.

فما أحبه إليّ عبدا يريحني من عناء قيد حز في قدمي حزه الأليم. ويحسب الأستاذ الصديق من أن تكون نفسي أعمق النفوس ارتياحاً إلى الصدق والتجريد ولو عندي بعد عقيدة مؤمن ما تزلزلها أقوى المؤثرات عنفاً فكيف بها إزاء هذه اللمحات العابرة.

بين النقد والجمال(*)

(٤)

والمؤثرات التي أعدها لغة التدليل والتحبب وتوشيج الأواصر الفكرية والنفسية.

فليستقبل الأستاذ من أمرها ما استدبر وليقل كلمته الصحيحة العنيفة في كلمتي التي دعاها «حدث الأحداث في تاريخ حياتنا الفكرية!».

ولا عليه في ما اندفع فيه من قول أملاه الحماس، والاندماج في فورة الجماعة فله أن يدفع التهمة عن نفسه بأنه كان بينها أضعف إدراكاً وأقوى شعوراً، وأنا ضمين له بأن لا يضطرب الميزان في يده، وأن لا تخلو كتب علماء الاجتماع من نظرية تأخذ بيده حتى في أضيق السبل وأحرج المآزق!!.

وبعد فما أود أن أملك على الأستاذ مذهبه في التنصل من مسؤولية كلمته التي أخطأ في نسبتها إلى علم الاجتماع. فقد يضيق صدره بأن يعرف أن كلمته بهذا التعديل الذي تجني به على المطبعة وعمالها الأمناء، فقد

(*) صوت الحجاز ـ ١٣٥٩/٢/١١هـ ـ ١٩٤٠/٣/٢١م.

عادت أكثر قلقاً وشذوذاً وغرابة فقد قال «يقول علماء الاجتماع إن انصياع الجماعة واندفاعها أقوى من انصياع الفرد واندفاعه وقال بعد التعديل «إن الفرد وسط الجماعة أقوى شعوراً وأضعف إدراكاً منه وحيداً».

ومعنى هذا «أن الفرد وحيداً قوي الإدراك ضعيف الشعور» وأنه وسط الجماعة ضعيف الإدراك قوي الشعور.

فهل يتفضل بتعليل الحماسة التي قوبل بها حديثي في ندوة الإسعاف، أكان مصدرها الإدراك لمعنى ما سمعت الجماعة! أو هو الشعور بشيء لم تدرك معناه! وعندئذ هل يشعر الإنسان بمعنى ما لا يدرك؟ أم يدرك معنى ما لا يشعر به، وهل هناك من فاصل بين إدراك الإنسان لشيء وشعوره به، في حديث يسمعه، وهل الشعور بمعنى الشيء غير إدراك معناه، أم إدراكه غير الشعور به. وهل يكون الفرد أضعف شعوراً بما يكون أقوى إدراكاً له ولماذا؟

ثم أترى لو سلم للأستاذ معناه في العبارتين، أكان يكون معنى تقريره أن الفرد خارج الجماعة أضعف شعوراً وأقوى إدراكاً إلا معنى أن شعوره بقيمة ما سمع من حديثي بين الجماعة ضمين بأن يضعف ويتحول بعد قراءته؟

وإلا أن إدراكه لحقيقة ما قرأ بعد أن سمع، جدير بأن يفقد حماسه وتأثره، فأنا أطالبه ملحاً بنتائج دراسته الهادئة الخالصة من تأثير الجماعة.

إن للأستاذ الصديق في حيلته الفنية الدالة على سعة حيلته وبراعته قوة ما أظنها عاجزة عن الإمعان في التنكيل بغفلة المطبعة وعمالها البلداء مرة أخرى بل مرات، وعساه ينسى أنه مصحح كل كلمة في مقاله، والراصد الذي ما تخطئ عينه الهمزة والنبرة، لتكون المفاجأة أحفل بالدلالة القوية على عمق شعوره بضعف جماعة القراء، والمتتبعين لما يكتب، ومن حسن الحظ أن ما يكال جزافاً، وما يوزن بدقة، عند سواد الناس شيئان لا

تختلف بهما السبيل، ولا يختل القياس والمطلب أن يقرأ الناس له في كل عدد يصدره كلمة يطول بها النفس أو يقصر.

أليس ما أقوله ويقوله كلاماً سبيل بعضه سبيل كله، والناس يقرأون، فليكتب إذن فالمجال خليق بأن يرحب بكل قدير على رص الألفاظ وسوقها وأين الفاهمون.

وما لنا نحمل الأستاذ على هذه المضايق؟ أفلم يعد له أن يستقبل من أمره ما استدبر فيعفينا من الضرب في هذا الخواء؟

ليعلم الأستاذ أننا لا نحتال لبلوغ رضى القراء وإن كنا أعرف بسبل هذه الغاية وحبائلها وإنا لنترفع عن أن نقف منهم موقف التهريج والاجتذاب والحيلة وما يزيدنا في أمرنا وسيلة بصيرة أن يكون العطف علينا منهم، أقصر من التنكر، ويحسبنا أمامهم أن نعرف بهذا الطابع، إن أحب غيرنا أن يعرف عندهم بغيره حتماً يظن أن مما يضرهم غنانا عن الاستعانة بعطفهم، فالعلاقة بين الكاتب والقارئ ليست علاقة الحبيب بحبيبه، ولا هي علاقة الخادم بسيده، وإن كان الأستاذ عريف يفهمها على غير ما نفهم، فله في ذلك مذهبه الذي ما ننازعه إياه، وحسبنا أن نصحح وهمه في كلمة يستعدي بها قراءه علينا حيث زعم أني قلت إن هناك فرقاً ما بين نظرتي ونظرته إلى الصورة الجميلة هو الفرق ما بين نظرة الفيلسوف الشاعر، ونظرة الرجل العادي.

لو كنت أعرف لنفسي الفلسفة الشاعرة، لمنعني ما عرفت به من الحياء والتواضع وإنكار الذات، أن أنتهز هذه المناسبة للإعلان عن نفسي.

إنما قلت إني ذو مزاج سؤوم!! لا أدع الزمن يفجعني في طمأنينة شعوري بطرافة الأشياء. ولم أقل بعد هذا شيئاً عن نفسي في بقية المقال.

بين النقد والجمال(*)

(٥)

وأنا بعد أكثر الناس تقديراً لقيمة صديقي الأستاذ عريف ولعلي أول من أشاد بذكره وفرضه على الأفهام العديدة محتملاً فيه مشقة العتاب المر ممن يترصدون نشاطه اليوم بكثير من القلق والارتياب.

فإن كان هذا من طبيعة المن الذي اكتشفها الصديق فيّ فما كان سببها إلا التجني منه وأنا من عقباها بريء.

وقد اتهمني بالجرأة، ونفاها عن نفسه، فمالي لا اهتبل الفرصة ـ كما يقول الأستاذ السباعي(**) ـ لأرخي العنان لنفسي قليلاً وللقراء أن يفهموا عني ما تشاء لهم فنية الموقف وشعرية البواعث مثلاً؟

وما أخلقني بأن أدير رؤوس القراء بالسير في هذه السراديب كما أدار الأستاذ رأسي!! أو كما أدارني عليه!؟ وأنا كفيل بأن أردهم إلى الصواب

(*) صوت الحجاز ـ ١٥/٢/١٣٥٩هـ ـ ٢٥/٣/١٩٤٠م.

(**) أحمد السباعي صحفي وكاتب قصصي من رواد الأدب السعودي، له مؤلفات عديدة، أنشأ جريدة قريش المحتجبة، شرفت «الاثنينية» بطباعة أعماله الكاملة في ستة أجزاء عام ١٤٣١هـ ـ ٢٠٠٩م.

متى استقبل الأستاذ الصديق من أمره ما أستدبر. وفي حديثي عن الفضائل والرذائل والرجولة والأخلاق فضول تضمن للمعركة وقوداً ما تخبو جذوته. ولا تنفذ ذخيرته إن شاء الأستاذ أو شاء غيره.

وأحمد الله على أن لي في كل رأي آراء أو نظرة أرسلها، فضل الناقل، وحسنه المقتفي، فما تضيق بي وجوه الاحتجاج إن ضاقت بغيري في هذه السبل وإن كنت قلت ما لا يقوله الناس في بلادنا، فقد قلت الصحيح الذي يقوله الناس في غيرها، والذي تقوله طبائع النفوس وغرائزها وميولها ومذاهبها. ولهذه الجريدة أن تستبشر بالرواج والإقبال. فيدفع موقفي منها اليوم. أقلاماً حبيبة طال بها عهد الانصراف السائم عن هذا المجال إلى الظهور والحركة والنشاط. وللجريدة أن تغتبط بمحصول لا يجشمها من المشقة، ويكلفها من الأجر والعناء حتى تظهر الارتياح المتردد. أو كلمة الثناء المغتصبة.

* * *

يقول الأستاذ «فإن صح أن ما سقته مساق التدليل من صور فكرية ولغوية وطبيعية ليس من طبيعته الإقناع، فما أحسبني فاقداً سبيله أن سخرت بعض آراء الأستاذ «يعينني ـ في تأييد نظرتي إلى الصورة الجميلة، ويزعم أنه رمى بسهم فأصاب مقنعي».

أيريد الأستاذ أن يفهم القراء عنه أنه يحتج بنظرة العاشق على نظرة الباحث إلا أنه قياس من أفشل المقاييس، وأدلها عن الإصفاء وأخلقها بأن يبقى معه الأستاذ دائراً حيث خلفه القراء يدور في مقاله الأول.

أين هو مما سقته في ثلاثين صحيفة تدليلاً على صحة نظرتي إلى الجمال وعمقها وعلاقاتها الوثيقة بواقع النفس ومنطق الفكر؟؟

أكل غايته أن يكون الصراع بيننا أسلوباً جديداً في العد ويمتحن به الصبر والجلد، ويكون سلاحه الساق والقدم، لا النفس والفكر! على أنني ـ كرياضي قديم ـ جدير بأن أشبع رغبة الأستاذ، فأغشى معه هذا المجال بساقين نشيطين، وقدمين قويتين.

والشوط ليس بعيداً، إن لم يستهوه القفز وتخطي الحواجز، فما لي عليها طاقة بعد أن أراحني الله من إلحاح النزوات العارضة.

ظن الأستاذ أن الفكرة الفنية في قصيدتي «لم أهواك» قائمة على تجريد الجمال من معانيه، وتضعيف أثره في واقع الحياة والنفوس وهي قائمة على تقديس الجمال وفهمه، والتغني به، وراء أشكاله الملموسة. وسماته الظاهرة. وقائمة على الإعلاء من شأنه وعلى تخيل معاني الحب السامية وتحليلها واستكناه أسرارها العميقة.

والنظرة في القصيدة نظرة عاشق تسلط عليه فكره المولع بتعليل أسباب الحب وتلمس العلاقة بينه وبين الجمال، والرغبة الملحة في فهم مجهولاته الخفية، وليست نظرة أفكار وتجريد واستلاب.

وأنا لم أقارن في القصيدة بين جمال ما في الحياة، وجمال الإنسان ولم أقل إن جمال الحجر، والأرض، والحيوان، والنبات، أخفى معنى من الجمال الإنساني، إنما كنت أتلمس أسباب الحب وبواعثه. أهي الحسن الظاهر الوضيء أم هي وقع الندى في النفس؟ أم هو الرواء الأخاذ؟ أم المعاني المعبرة أم الحس الرفاق المتوفز؟ أم الذكاء وقد يكون في المحبوب ضئيلاً؟ أم الفتون وقد لا يبل غليلاً؟ فإن كانت شيئاً من هذا. ففي البدر، والزهرة اليانعة وفي طلعة السماء البرزة، والأرض المجهودة ونأمة الطير المرسلة، ولفتة الظبي وفي همسة الجدول، وملتقى الزهور، صور حية

يناجيك منها ألف وجه من كالح ووسيم، وفضاء لا يعرف الحد والقيد ولا وغزة الضني والسهوم، وهي في الأرض والسماء يتفشى هوى وينساب لمعاناً.

فالجمال هنا في نظر العاشق المفتون معنى وراء السمات والشكوك، معنى لا تحده النظرة، ولا تقيده الفكرة، إنما هو جمال مطلق شائع لا تكون الحياة بما فيها إلا لفظاً هو معناه.

وسر الحركة والسكون والنور والظلمة فيه فلا تكون دنيا عاشقة إذ غاب إلا دنيا سؤوم جم الكروب طليح، فإذا لاح أشرقت وتلقته بوجه طلق المحيا صبيح».

وهو بعد ذلك كله معنى النزاع بين النفس والفكر، لا يهتدي السائل عن حقيقته إلى غاية، ولا يظفر بجواب، وهو مجهول ما يتكشف عن معنى من معانيه، إلا ليغوص في لجة الغموض والخفاء. فلا جرم إن كان «جهاداً ضاقت به النفس ذرعاً وصعاباً موصولة بصعاب» ومجهولات من ورائها مجهولات، وأسباب تختفي فيها مسبباتها، فلا تكون أخيراً، إلا كما كانت أولاً، الجمال والحب.

والقصيدة بعد بوحدتها الموصولة الأجزاء دليل الاستغراق التام والوله العميق، يفتنه الحب والجمال، فالإنكار فيها تقرير، والنفي توكيد للإثبات فما فيها ما يصح أن يؤخذ دليلاً على تجريد الجمال من محاسنه ومعانيه.

وكان الأحرى بالأستاذ الأديب أن يسأل نفسه، أدامت لهذا الحب وقدته ولهذا الجمال معانيه؟ لتلقاه طبيعته لجواب الحق أو كان خليقاً بأن يسأل كيف يكون الجمال جمالاً وهو رمز النقص والفقدان والتحول على الزمن.

ثم كيف يخفق الجمال في فرض التحول على منطق العقل العنيد السافر فيفرضه على النفس المنتشية، والحس المفهوم، والقلب الغافل، فتتم له الغلبة بهذا الانقسام الذي هو مظهر سلطانه القاهر في حقيقة سلطانه القاهر.

بين النقد والجمال(*)

(٦)

كان خليقاً بأن يسأل هذه الأسئلة ليعرف كيف يكون الضعف لغة القوة القاهرة وسبيلها الممهودة. فخليق بذلك أن ينتهي به إلى الطمأنينة على الجمال في نفوس عشاقه وأسراه!!

وحقائق الشعر بعد صور تشكل بها خوالج النفوس الهائمة، وتلبس منها كل يوم ثوباً معاراً تحسبه ثوبها الأصيل. والشاعر العاشق يكون حبيبه في عينه أحسن الناس وأعطفهم في يوم إقباله ومواتاته، واختلافهم من الفتنة والعطف في يوم إدباره. كما يكون الحب يوماً في منطق العاشق نعمة الحياة وشعاعها الضاحك ويوماً نقمة الحياة وظلمتها المطبقة، أو كما تكون الدنيا في عين الناهل المأخوذ بمحاسنها في يومي إقبالها وإدبارها.

والحب في معناه هو الحب في معنى نفس العاشق وولهه، ونشاطه وفتوره، وأمله ويأسه وفرحته وترحته.

والجمال في ذاته ما هو؟ أهو تجاوب القسمات واتساق الملامح،

(*) صوت الحجاز ـ ١٨/٢/١٣٥٩هـ ـ ٢٨/٣/١٩٤٠م.

واكتمال الانسجام، أم هو معان مكنونة تعبر عنها ظواهره البادية؟

إن الجمال جمال بما تولد النفوس من معانيه، ونقيس من مشابهه ونتخيل من دلائله وإشاراته لا بما يلقاها به من حدود وزخرف، وإنما هو جمال بما يثير فيها من بهجة ويطلق من أصداء ويحبو من حرية وخصب، فهل تبقى معانيه حية، وتأثيره دائماً على تغير القسمات والملامح وخصب وانطفاء لمستها البهيجة؟

وماذا يبقى من الجمال بعد انقضاء تأثيره في النفس وإثارة كوامنها غير أن يستسلم الزمن المتحول فينطوي فيه كما ينطوي كل شيء فيه، وغير أن يبقى بين أطواء النفس ذكرى، أو معنى، أو رمزاً أو مقياساً، تلقى به جمالاً يخلقه سلطانه الجديد.

أم يريد الأستاذ الصديق أن تبقى كل صورة جميلة صورة جميلة يحبسها الزمن الساحر في حدود لا تخطوها ويقف عندها جامداً ليس به حراك.

أترى ماذا كان يكون نصيب الجمال من فهمنا وتقديرنا وإثارة كوامن صبواتنا لو سكت نداء الحياة في بواطن نفوسنا!؟ أما كان يكون شيئاً لا يختلف عن بقية أشياء الوجود الشاخصة؟ بل ما كانت تكون الحياة كلها لولا هذا النداء.

وهكذا نرى نصيب النفوس في تخيل معاني الجمال وفهمها، يكون على قدر نصيبها من سعة الإدراك، ومدى الحس، ونشاط الشعور، وعمق التصور وامتداد مذاهب الخيال والتوليد!

وقد قلنا في مقال سابق «من يظن أن فرحة الأديب والشاعر والفيلسوف بالجدول والحقل، كفرحة الرجل العادي؟ ومن يرى أن شعور

العاشق بأنباء الحياة ومعانيها ونسيمها الخافت حوله وفي نفسه، في حالات سروره وحزنه، وبأسه وشقائه، كشعور الخالى اللاهي؟

ولو قلنا ما معنى الحياة في ذاتها، لم يكن الجواب إلا أنه الزمن والحركة والتغير والتحول، وإلا لكانت متحفاً جامداً لا فرق بين الصور القائمة فيه والصخور القائمة فيه.

فما دام الزمن يسير بكل شيء. فالحياة تتغير. وما دامت الحياة تتغير أفيكون غريباً أن تردد النفس الإنسانية صدى هذا التغيير؟ وأن تسير في هذا الموكب الحافل تقوده ولا تتبعه؟؟

وقد قلنا «إن الزمن لو كان ربيعاً كله لم يكن للربيع معنى جدته وسحره وروائه» فالجمال هكذا، لم يكن الجمال إلا لأنه المتعة السائحة تهفو إليها النفس وتقبل عليها في لهفة الشاعر باحتمال الفجيعة فيها، فهي تسابق الزمن بشعورها المبهم أو بفهمها الواضح المبين.

وقلنا: هل يسعنا أن نتصور في الحياة جمالاً غير مسؤوم أو جمالاً لا تصرفنا عنه صوارف الفهم والاكتفاء وإدمان الذوق والمصاحبة الطويلة؟؟

قلنا هذا وأشباهه، وكان من حقنا بل من حق منطق الفكر والجدل على الأستاذ الناقد أن لا تصرفه قصيدتنا «لم أهواك؟» عن الإجابة والتدليل وإطالة الوقوف والتأمل عند هذه المعاني السافرة التي تلبي نداء كل داع.

إن بعض النفوس الشاعرة تنفذ إلى ما وراء السطور وتحس أخفى معانيها وتسمع أخفت همساتها بحيث لا يعدو بعضها حدود الجمال وخطوطه الواضحة فإن كان طول الفرحة أو دوامها والعكوف على تقديس الجمال وتذوقه إلى ما لا نهاية مما يدخل في إمكان النفس الإنسانية أو مما يضمنه الجمال وتحققه طبيعة الحياة نقول: الأشكال المحسة لا خفت

الهمسات خليقة بهذا الدوام لما يتوفر لها من مجالات واسعة متعددة ولما يتهيأ لها من أسباب المقدرة على التنويع والإطلاق والتولد، وكانت النفس المحدودة أثمن بانتهاء الرغبة وسآمة الملل والزهد في الدوام.

وما نرانا بمستطيعين أن ننكر أن النفس المحدودة قد تكون أقدر على الاجترار لأنها نفس موصدة نائمة لدواعي ما تكون فيها فترات الصحو والانتباه إلا نادرة، فشعورها بما حولها من جمال شعور راكد بليد، ما ينتهي تذوقها لمعنى من معانيه إلا وقد بدأت نومتها الثقيلة وركودها العميق.

وبهذا المقياس تكون الحياة في عين الحيوان السارح، هي الحياة ما يتغير فيها شيء عن معناه، ولا ينحرف عن سبيله، في ما تحسه أو تدركه أو ترتاح إليه! وهكذا هي في عين المجنون، وهكذا هي في حياة الإنسان إلى الأبد.

أيدري الصديق الأستاذ الأديب الناقد ما هي الصورة الجميلة التي يبقى لها معناها طويلاً على مر الزمن الممعن؟ هي ذكرى الجمال، وخيال حياته المطوية في النفس، أو في ملعب الحياة والرغبات التي زايلته.

فالجميل المفقود يبقى جميلاً في النفس ولا يفقد سماته وتأثيره ومزاياه الفاتنة لأن الزمن لم يعد جزءاً من حقيقته الزائلة، والمؤلم تبقى صورته المحزنة أو المثيرة أثراً تتردد به صور أشباهه وبواعثه.

وحتى هذا لا يكون للبقاء الطويل له في سريرة النفس معنى دوامه واستمراره. ولذلك كانت أسرار النفس وتجاربها المطوية، بحاجة إلى ما ينشرها ويحيي ذكرها ولذلك كان لسوانح الحياة والجمال والمسرة والحزن والسعادة والشقاء، أثرها في إحياء ماضي النفوس والأفكار وبعث ذكرياتها الدفينة!

وقد كانت لكل عاشق أو ناظر وقفة تطول أو تقصر فيها النظرة إلى صورة جميلة ظن أن الحياة خليقة بأن لا يتم معناها بدونها فما فتئ بعدها تنتقل بها الحياة في متحفها الحافل لم ينقص من معناها شيء ولكن يزيد.

وإذا كان الجمود والاحترار من طبيعة بعض النفوس الموصدة، فالسأم والتنقل من طبيعة النفوس المشبوبة، أو لعل أقدر النفوس على استصفاء معاني الجمال هي أحسها بفتنته وأوفاها له وأقدرها على تنويع معانيه واستنطاقها.

وأراني بحاجة إلى أن أردد ما قلته في فاتحة مقالي المتابع: «ترى أية حقيقة من حقائق النفس أو متعة من متعات الحس، أو طوبى من طوبيات الخيال الخلاب، يبقى لها جمالها على الزمن، أو يفض الختام كل يوم عن جمالها ومعانيه جديدة أخاذة؟.

فلم يسمعني الأستاذ الصديق جوابه على هذا السؤال إنما ذهب يتلمس إصابة مقنعي كما قال ـ بما حسبه تجريداً للجمال في قصيدتي «لم أهواك؟».

* * *

وصفوة القلب أن الحياة لا تعرف الجمود وهي أقدر على الابتكار والارتجال وليس ما يدعونا إلى أن نسيء الظن بها، لحسنه بطبيعة الأستاذ التي تخشى أن يفجعها التجريد، والاعتراف بسآمة النفس والفكر في الصور الجميلة.

وما أدري أية ضرورة تدعو الأستاذ إلى تحتم دوام التأثير للصورة الجميلة وبقاء معانيها؟ أهو الخوف من إفلاس الحياة، أم هو ضيق أمداء الجمال ومذاهبه فيها؟ أم عجزها عن الارتجال والإنتاج؟ أم الشعور بأن ما يفوت في الحياة هو خير ما يمكن فيها؟ أم وقفة اقتضاها الوفاء لصورة جميلة؟

للأستاذ العقاد كلمة لعلها تسهل لصديقي الناقد هضم فكرة طال بنا الطواف حولها وهي إن كانت تشير إلى غير ما نحن فيه لحرية بأن تهون عليه مبدأ الانطلاق بالنفس والفكر من أثر هذا الوفاء. قال «ليس أسأم العقل والنفس ولا أبطل لعملهما من حصر كل شيء في صورته وحبس كل شيء في ظاهره فإن الحقيقة التي لا جدال فيها أن العقل المطلق لا يرى وجهاً ما لتحتيم صورة من الصور من غيرها ولا يمنع أن تظهر الحياة ـ أي معانيها ـ في ألوف من الأشكال المختلفة غير أشكال الآدميين والأحياء المألوفة» فهذه نظرة إطلاق وحرية، تكره التحتيم والجمود. وأرى أنه لو كان الأستاذ عريف يعني بالصورة الجميلة المثل الأعلى لجمال الوجه، لكان في وسع الزمن أن يفجعه في تأثير معانيه بعد أن تطول الصحبة بينهما وبعد أن يستكنه كل معانيه وأسراره ويحولها إلى نفسه وفكره.

ألا وإن لكل جمال رسالة قصيرة كرسالة الربيع الطلق فهل يضمن لها الدوام منطق الأستاذ ومزاجه الوفي الصادق، كما ضمن القدر للسماء أن تبقى قائمة وللشمس أن تكون في كل مطلع وكل مغيب لها، هي الشمس التي يفصل بينها وبين الزمن اطراد العادة، وعمر الإنسان القصير، ربما تسنى لنا الوفاق لو استطاع الأستاذ الصديق أن يدلنا على حقيقة من حقائق النفس الإنسانية، أو من حقائق الحياة الماثلة، أو المتخيلة، أو من صور الجمال التي لا تمتد إليها يد السآمة ولا يتحول بها إدمان التذوق والاستصفاء، في فكر العاشق أو الشاعر أو الأديب أو الفيلسوف أو الإنسان الحي!

رُفاتِ عقل

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

دكت حصونه الأيام والسنون... وعصفت به أعاصير الحياة ورياحها القاسية... تدافعته الأمواج.. قذفت به يميناً.. وقذفت به شمالاً.. سبح فوق ضوء القمر.. وتركزت على جسده أشعة الشمس، وملأت ذرات الرمال الصفراء عينيه؛ فظل قمة من القمم.. وعلَماً من الأعلام.. وراية بيضاء.. ظل مناراً وسط محيط؛ ينام موجه تحت ليل مظلم، طويل.. عرف القلق حينما كان في السفح.. وعندما تربع على القمة؛ عرف القلق، وحرارة الحّمى التي تنهش الجسد والقلب.. وعرف الهزيمة والانتصار.. فآثر الهزائم النظيفة على الانتصارات القذرة.. عرف الكثير والكثير.. وجهل نفسه في بحر الانتماء...

آمن بالله.. ثم بالإنسان.. وعاش للحياة يعطيها.. ولا يأخذ منها.. فقد أحس أنه أكبر من عطائها.. وأن عطاءها لا يدوم.. وشق لنفسه هذه المعرفة..

شق لنفسه عبر الصخور، والرمال، والأوحال، والخرائب الفكرية طريقاً؛ تصطف على جانبيه شموع، لا يتراقص ضياؤها، ولا ينطفئ سراجها..

فعزف عن الأشياء.. وظل يطل على الحياة من على ضفاف غير تلك التي يعيش فوقها البشر.. يطل ويشمئز.. يطل فيحس بالاختناق.. يطل والآمال تحرق وجناته.. وجمر الأماني يكوي ضلوعه.. ويرتد بصره إلى نفسه: فلا يرحمها من اشمئزازه، وضيقه بها، وحنقه عليها.. ولكنه بالرغم من كل ذلك؛ كان يرفع قلمه بين الحين والحين.. ليكتب بالدمع شعراً، وبالآمال غناء، وبجمر الأماني نشيداً..

كذلك عاش شاعر العروبة الراحل حمزة شحاته، وهكذا كانت حياته.. حياة زاخرة بالهموم والآلام.. حياة كانت شبيهة إلى حد كبير بحياة أستاذه الشاعر العملاق أبي الطيب المتنبي..

عاش شاعرنا الفيلسوف الراحل حمزة شحاته هذه الحياة التي يطل بها على القارئ من خلال جانب من مذكراته الخاصة التي استطعنا بعد جهد جهيد: أن نعثر عليها بخط يده بين أوراقه المهملة المتناثرة..

وهكذا عاش حمزة شحاتة.. ثم رحل عنا إلى مثواه الأخير ولم يزل إخوانه يبذلون قصارى جهدهم في سبيل جمع ما تركه من إنتاجه النادر القيِّم، وفاء بحقه عليهم، وتخليداً لذكراه.

عبد الحميد مشخص



(*) من اليمين إلى اليسار: عبد الحميد مشخص، محمد نور جمجموم، حمزة شحاتة، محمد قطان، عبد الله عبد الجبار في أحد منتزهات القاهرة.

مَــن أنــا؟!

يبدو لي أنني لم أستقبل حياتي؛ منذ وعيت؛ حتى هذه الساعة.. كنت أعيش متأثراً بجملة الظروف، والدوافع، والمقاومات.. أسير.. وأتقهقر.. وأقف..

وأحياناً أعدو بجنون.. وحيث يتاح لي أن أتأمل ذاتي؛ أرى أنني أداة تملى عليها مقدرات حركتها وسكونها.. لم أشعر قط؛ بتحرير إرادتي.. وحيث بدا للآخرين أنني اكتملت بحكم السن، واتساع أفق التجربة.. وجدت أن ما يسمى الإرادة فينا، ليس إلا حاصل ظروف وعوامل ينسحق فيها ما هو ذاتي وداخلي؛ تحت وطأة ما هو خارجي..

فإن قلت الآن؛ بصدق؛ إنني أجهل من أنا.. أو ما أنا.. فلأني لم أستقبل قط؛ ما أستطيع أن أسميه حياتي..

ولكيلا يعتبر كلامي عن حياتي كلاماً يكتنفه شيء من الغموض؛ أقول.. إني كنت كالجندي الذي قضى أيامه، ولياليه في التدريب والاستعداد لمعركة لم يقدَّر له أن يخوضها.. أو كالمتعلم الذي قضى شطر عمره للتخصص في مجال معين.. وقضى الشطر الثاني عاملاً غير ثابت في كل مجال غير مجال تخصصه..

هذا هو أنا.. وهذا ما أستقبله وأستدبره من حياة هذا.. «الأنا».

بين القلق والقيد

لقد كانت حياتي قلقة، وما تزال... لأني لم أتمتع قط بحريتي، واختياري على النحو الذي يرضي عقلي وطبيعتي، وكنت أعتقد القدرة على المرونة والتكيف؛ لأني محروم من الذكاء؛ إلى حد التجرد.

وكانت الوحدة بين عقلي، وخلقي؛ تملي عليّ منهجاً معيناً من السلوك يشبه قيداً لا يلين.. فأنا تحت وطأة هذا المنهج؛ أوثر الهزيمة النظيفة على الانتصار القذر... وتتقزز نفسي من النضال الحقير.. ربما لأن الذكاء ينقصني كسلاح طبيعي للنضال في مثل هذه المعارك... وربما لأن غلبة الخلق توهن العقل، وتحد من انطلاقه...

لم أنتَم لأية مدرسة

ورُبَّ سائل يسألني عن المدرسة الأدبية التي أنتمي إليها.. وفي هذا المجال أحب أن أوضح أنني قرأت الكثير.. كل شيء وصل إلى يدي... تأثرت، وانفعلت بكل ما كان له صدى في نفسي، وفكري.. ولم ألتزم منهجاً معيناً.. ففاتني التخصص في أي شيء... كما فاتني الاحتراف... ربما كان أثر من آثاري الأدبية يعكس لوناً من ألوان المدارس الأدبية والفكرية؛ في شكل من أشكالها.. ولكن هذا لا يعتبر انتماءً.. لأن الانتماء الموسع اعتباري من الطراز «اللامنتمي» ربما كان الكلام عن نفسي بهذه الصورة؛ يعتبر تكبيراً لصورة بالغة الصغر.. بالنسبة إلى أنه ليست لي آثار مجموعة؛ تحدد وجودي الأدبي...

ولكن... أهناك ما يمنع من استغلال وهم كبير، له كل هذا الرسوخ!! لماذا تقتل الوهم.. إذا كان مصدراً مثيراً للخيال؟! فلست مسؤولاً عن هذه الشهرة الزائفة التي ظللت أقاومها منذ بدأت تلتف حول

عنقي.. لم أمارس الأدب على أنه وسيلة... ولا على أنه غاية.. وإنما كانت تنفيساً عن شعوري بمرارة العيش.. وحرارة القلب وله استجابة تحولت بالمراس إلى عادة...

وكانت عادتي؛ أن أتخلص كل عامين، أو ثلاثة من كل ما حدث.. وكان هذا يريحني، ويملؤني شعوراً بلذة التخلف من شيء؛ لا أطيق النظر إليه..

لستُ راضياً عن آثاري الأدبية

ولم أكن راضياً قط؛ عن أثر من آثاري الأدبية بعد تأمله ولذلك لم أفكر في جمع هذه الآثار...

ولا شك أن قدرتي لا تجاري شعوري بالكمال.. أو بما يدنيني منه... إنني أشعر باختناق، واشمئزاز من خير ما يتقبله الناس من إنتاجي؛ لأني أحس بدقة متناهية؛ كل جوانب النقص فيه.. مهما خفيت..!!

وعبثاً أحاول التخلص من سيطرة شخصية الناقد على اتجاه ما أنتج.. إنها ظاهرة قد تفسر بضعف الثقة في الذات.. أو بأنها أثر للشعور بالخطيئة.. إنني على استعداد لتقبل كل تفسير؛ مهما كان قاسياً.. ولن أدافع عن نفسي.. أو أبررها..

أعمالي كمواطن لا صوت لها ولا رائحة

إنني أشعر بأنني لم أؤد واجباً من واجباتي نحو وطني.. لا كمواطن، ولا كأديب.. نعم لم أؤد هذا الواجب في شكل من أشكاله المقررة.. ولكنني عملت طوال حياتي أعمالاً لم يكن لها صوت، ولا رائحة يدلان على وجودها.. وبالدقة على ثبات وجودها..

إن ذاكرة الزمن.. وأعني المجتمع.. لا يمكن أن تحتفظ بالأعمال بل بآثارها المحسوسة.. إن حياة المجتمع كالحرب تماماً.. لا عبرة فيها بما يسقط، ولكن بما يظل قائماً..

ومع ذلك؛ فإن كل شيء سيخبو، وينطوي.. إنني منذ ولجت باب العيش، وحتى هذه اللحظة؛ لم أكن عالة على المجتمع.. ألا يكفي هذا؛ فوق أنه مبرر لوجودي؛ أن يجعلني مواطناً أقاوم عوامل الانحطاط.. إنه عمل سلبي؛ يصلح أن يكون مثلاً من أمثلة ضبط النفس...

أدبنا بين الاقتباس والتكوين

وعن مدى ما أسهم به إنتاجنا الأدبي في إبراز ما تتميز به أمتنا من سمات وخصائص.. أعتقد أنني لا أعرف أن لنا خصائص تميزنا؛ لنلتمس الدلالة عليها..

إننا كمجتمع، معرضون لسيل مستمر من الهجرة.. وتحت هذا المؤثر لا يمكن أن تبرز لنا خصائص ثابتة.. أو حتى شخصية بين العالم.. إننا نذوب، وننصهر وتغمرنا حضارة الغرب السائدة؛ معربة عن طريق الشعوب العربية التي كانت أوفر نصيباً في التأثر بها، أو بلغاتها الأصلية.. وأدبنا في عمومه؛ ما زال متأثراً بالاقتباس، وهذه مرحلة لا بد منها.. ولا بد من استقبال ما تفرضه بحكم زوال الحواجز.. ولا بد أن نعترف بأننا في دور التكوين.. وأن هذا الطور سيطول، أو يقصر بالنسبة لفاعلية حركتنا، وإمكاناتنا.. ربما كان الشعور الحالي بضرورة إعطاء الأدب دوراً قيادياً؛ يعين على تقصير مدة التحول..

شِعْرنا فَقَد مقوِّمات بقائه

وعن النكسة التي لحقت بالشعر على المستوى العربي بصفة خاصة والمستوى العالمي بصفة عامة؛ أؤكد أن الشعر على المستويين قد فقد معظم مسوغات بقائه.. حتى شعر المسرح.. حتى شعر الغناء والأناشيد.. حتى الآن.. وربما إلى وقت طويل؛ لن يفقد الشعر عملاءه؛ منتجين، ومستهلكين.. ولكن من المؤكد أنهم سيكونون أقصر أعماراً من سائر البشر.. وأغرب أطواراً من الداعين إلى العري..

إن الشعر الجيد عادة؛ يرفع درجة الانفعال.. وتيار الحضارة الآن مليء بأسباب الانفعال، والإنسان في حاجة إلى ما يريح توتره.. ويرضي أعصابه...

إن أية امرأة واعية تهزأ بأن تصنع فيها شعراً.. والشعر بلا شك؛ سذاجة إنسانية؛ لم يعد الاشتغال به معقولاً في عصر العلم.. وما حققه من غرائب، وملهيات؛ تغني عن كل شعر، وكل شاعر...

هل أستمر؟؟ أنا على استعداد... ولكن من الذي يحميني من سخط الجماهير حتى أتمكن من إقناع الشعراء أنفسهم بصحة إرهاص توقعي؟!

الشعر الحديث نقطة تحوُّل وانطلاق...

أما عن الحديث فهو نقطة من نقاط التحول، والتغيير.. كان من المحتم أن ينتهي إليها الشعر العربي، أو الشعراء العرب.. إن الشعر بقوالبه، وأساليبه، وجملة أشكاله التقليدية كان يشكل ضغطاً شديداً على أعصاب محاوليه الذين بلغوا درجة عالية من القدرة والتخصص.. كانت هناك القافية والوزن، ومستويات المبنى، والمعنى، والعمق، ووثاقة

التركيب، وسعة البصر بقوانين الكلمة، وأحكامها، حتى ما لا نهاية له..

وأطلت ثقافات الحضارة، وتبدلت المقاييس، وتغيرت قيم التعبير، وبقدر ما وضَّح الغرب مدركاته غمض الشرق.. وبعد... لقد تغير كل شيء في حياتنا؛ حتى أحكام العقل واتسع صدر الحياة لهذا التغيير.. فلماذا يقف الشعر بقوالبه الجامدة، وحدوده المتصلبة؛ لا يتغير مع طاقات الجيل الجديد، ومع مقاصده وأغراضه؟!

وبدأت التجربة بين زحف، ونهوض، وتحليق، وإسفاف.. واحتفظت التجربة بالوزن على مستوى التفعيلة المتحررة من حصر التحديد، وبالقافية ترنيماً داخلياً؛ كالسجع غير الملتزم.. وأشهد أنها انطلاقة؛ إن دامت لها قوة الدفع؛ خرجت بالشعر العربي إلى أوسع آفاقه وأجزلها عطاء...

وعندما أتحدث عن الترجمة؛ أستطيع أن أقول إن ما يترجم عن الشعر الحديث والقديم معناه مجرد من كل جميل، وتحلية، وكلا اللونين قابل للترجمة إلى غير لغته بلا فرق؛ إلا فرق القرب والبعد في أغراضها، أو مواضيع اهتماماتها من المفاهيم الحديثة، ومقاييسها في اللغات الأخرى..

معاركنا الأدبية مشاجرات صبيانية

إن المعارك الأدبية التي خضتها؛ كما سماها البعض بالمعارك؛ لم تكن في رأيي؛ سوى مشاجرات تغلب عليها صبيانية الفكر قبل أن يذبل.. وكانت أسبابها غاية في التفاهة، وكذلك موضوعاتها.. ولأني مجرد من الذكاء؛ كانت تفرض على المثقفين في صورة دفاع عن حرماتهم الأدبية.

والذي يضحك أني لم أكن أتقبلها بدافع المروءة.. بل ودائماً، بسبب التورط الذي لا أعرف كيف يحدث، وكيف يتكرر برغم الحيطة، والحذر، والتحرز...

وعموم ما يفرضه الشعور بالغباء؛ أنها القصة الكاملة... قصة المشاجرات التي زودتني بعديد من الهزائم.. يحمل كل منها اسم انتصار.. تفيض نفسي احتقاراً له؛ كلما ذكرته.

الصحفي والأديب

ولا يزال هناك الكثير من المواضيع الهامة، التي لا بد أن أبدي فيها رأيي الصريح.. الرأي الذي لا يعرف المهانة، أو المداراة.. فهناك من يربطون بين الأديب والصحفي.. وهناك من يقولون بأنه ليس من الحق اعتبار كل صحفي أديباً.. وهناك أيضاً من يدعون إلى قيام مجمع للغة العربية في بلادنا..

وفي رأيي.. أنه ليس كل صحفي أديباً.. هذا صحيح.. ولكن لماذا لا يكون الأديب صحفياً، يجري على طريقة الصحفيين في تقديم أدبه؟!

إن الفارق بين ما هو أدب، وما هو مجرد كتابة صحفية؛ فارق واضح، وإنك لتجد عرضاً، أو تعليقاً سياسياً، أو اجتماعياً؛ لا تجد له مكاناً إلا بين أفضل الآثار الأدبية..

ولست مؤمناً بالفكرة القائلة إن للأدب مواضيع محدودة إذا تجاوزها الكاتب إلى غيرها؛ خلعت عنه سمة الأديب.. وأعتبر أن بعض مذكرات المحامين، ومرافعاتهم؛ من أرفع النماذج الأدبية، وليست المحاماة أقرب إلى الأدب؛ لأي سبب من الصحافة..

أما عن قيام مجمع للغة العربية، فالواقع أننا لم نبلغ الطور الذي يقتضينا أن نفكر في إنشاء مجمع لغوي.. إن حتمية التطور تخضع لها اللغات؛ ككل شيء آخر.. وتطور الحياة يسير في اتجاه تيسير التعليم.. والأجيال الناشئة في كل بلد عربي؛ يتعرض كيانها لاهتزازات عنيفة؛ في

ظل حضارة الغرب السائدة، وظروفها.. ونحن لم ندخل دور التحول أو الانتقال.. فلأي الأجيال تجهد المجامع جهدها؟! وهل تفرض مقرراتها بالقوانين..؟!

وكما أخذت القصة والمسرحية، والسينما، والتليفزيون؛ مركز الشعر والشاعر؛ فستأخذ الصحيفة والمجلة والقصة، وكتب الثقافة غير المكثفة؛ مركزاً للكاتب المجود، والأسلوب المتين..

لقد ضاقت الحياة بقدر ما اتسعت، وقصر العمر على مقدار ما طال، وأصبح التأمل، والتروي عملاً لا يطيقه إلا الممتحن بثقل الوزن والعقل..

صحافتنا بين الأمس واليوم

ومن جهة أخرى؛ أرى أن الفرق بين صحافتنا بالأمس، واليوم هو الفرق ذاته بين الصورة العامة لمجتمعنا في الماضي، والحاضر.. في خلال عشر سنوات لم يكن من اليسير تصور انقلاب كهذا.. من حالة تشبه الزحف، إلى حالة تدخل مرحلة الانطلاق..

تكامل عمران المدن، وامتدادها، وتكدس منتجات الحضارة، وشيوعها، وتكاثر وسائل النقل، والمواصلات، وبروز معالم الحياة، وامتلاء المشاعر بها، والقلق، والتململ، والصراع؛ تعبير عن توهج الرغبة في التخلص من آثار الشعور بالتخلف والإقبال الملتهب على أي منفذ من منافذ الحياة.. كالإذاعة، والصحافة، والنشر..

نعم.. وتقدمت الصحافة، أو وثبت في جرأة؛ فبرزت الجرائد يومية، وأسبوعية، والمجلات.. وأُحبست الأنفاس إشفاقاً.. ولكن لم يكن هناك فراغ.. وتطور الشكل.. والصور.. واتزنت الخُطا.. وكان من العجب؛ أن يتم كل هذا.. وأن تظهر أقلام، وأساليب، وألوان؛ تقود، وتؤثر كأمثلة

تحتذى.. ويخطر لي الآن أن اسأل.. لماذا وقف هذا المد القوي دون مداه من منافسة الصحافة الغربية؟!

ولماذا لا يتسع مجاله ليحدد معالم شخصيتنا؟! وليكون له دور في تكوين الرأي، والوسيلة في فهم ذاتنا، والدفاع عنها ضد الضياع في سكون؟!

آثارنا الجديدة والرعيل الأول

كثيراً ما يسألني بعضهم عما طرأ على إنتاجنا الأدبي من تغيير في السنوات الأخيرة.. وعن موقف الرعيل الأول من أدبائنا من مسايرة الحياة كما هي اليوم..

وأقول لهم.. إنني منذ أن أصبحت أمياً؛ لا أقرأ؛ ولا أكتب إلا بالواسطة لم اقرأ من آثار أدبائنا شيئاً يمكِّنني من الحكم على مدى التغيير، أو التطور الذي حققته الآثار الجديدة.. ولكني أعتقد أننا سنستقبل مجالاً أرحب؛ يمتلئ بآثار الجامعيين، والمثقفين، والمتخصصين.. نبدأ به بدأة غنية، محمودة.. مرحلة انتقال طال علينا أوان ارتقابها..

ولم يزل للرعيل الأول - أعني من بقي منه - نشاطه البارز والمستمر على ما أعتقد.. وأنا لست منهم، ولكني على التحديد من الرعيل الثالث.. ومعظم أفراده باستثنائي؛ بخير.. من حيث توفر القدرة الفكرية برغم صوارف العيش.. وصوارف الحياة.. وإذا التزمت الحقيقة؛ فأنا لا أعرف أدباء يصح أن يقال عنهم إنهم استهلكوا... ولكن تغيرت مجالات نشاطهم.. ليس هذا دفاعاً ضمنياً عن نفسي..

فأنا في حالة استهلاك منذ ربع قرن، وإذا عملت؛ فأنا أعمل مكرهاً؛ بعامل فقدان الطاقة، أو على الأقل؛ بعامل الشعور الراسخ بفقدانها.. بقي

دور الشباب.. رعيل اليوم هو طاقة تعد بالكثير الرائع.. ولكني لا أجد رسوخ الأقدام، ولا التألق، والوهج التي كانت ميسم الشباب القديم المنطوي...

ولا يمكن أن أتهم إدراكي، وفطنتي بقية الأثر الأدبي في أي شكل من أشكاله.. الحذق في أسرار الصناعة.. والفن دعامته الأولى.. إنني أعني شعراء الشباب أكثر مما أعني كتّابه.. فالكاتب أقل تعرضاً للعثار من الشاعر..

إني أهتف للشباب مرتقباً بكل شوق؛ رايات تفوقهم الخفاقة...

* * *

الأدب والمجتمع

وما دامت الحياة حركة دائبة؛ فهي تغير، وتطور.. والحياة بالمعنى الشامل هي الإنسان، وعلاقاته، وصيرورته.. والأدب والفنون في الحياة ومنها... ولا يمكن أن تكون شيئاً منفصلاً عن الإنسان.. ولا بد أن تتطور في خط يجاري مطالبه المتجددة، وعلاقاته بالوجود الإنساني، وبالطبيعة... وسيظل الأدب فناً قوامه الجمال، والتأثير، والفكرة، والعاطفة، وهدفه الإنسان متابعاً لتحولاته، قائداً لمشاعره، موجهاً لاهتماماته.. وتتغير اتجاهات الأدب كما تتغير اتجاهات الإنسان على رابطة العلاقة بينهما..

والأدب في خدمة المجتمع لا يكون ولن يكون؛ أدباً متجرداً من جمال الفن، وفن الجمال...

إن الإنسان هدف الوجود، وغايته، ومغزاه... والإنسان وعلاقاته بالطبيعة مجتمعين، أو متفرقين.. هدف الأديب والفنان..

إنني أدور حول النقطة ذاتها..

خَبَطات أدبية

وهناك موضوع آخر له أهميته.. هو أسباب عدم تغلغل أدبنا في الأقطار العربية؛ على الرغم من وجود أدباء يستوون في المقدرة، والإبداع مع غيرهم من أدباء الوطن العربي...

ويحق لي أن أتساءل.. ما هو العامل في ذيوع اسم شاعر أو كاتب في بلاد غير بلده؟!

إنها «خبطة» أو عدة «خبطات» أدبية؛ كما يعبر الصحفيون.. لا أريد الكلام عن هذه «الخبطات» والتمثيل لها.. إنّ هذه الخبطات لم تتح لأديب من أدبائنا الذين يمكن أن يجدوا مكاناً بين أدباء الوطن العربي المشاهير..

إن فقدان عنصر الإثارة، والعنف، والانطلاق إلى الأجواء العليا، أو التردي في الأغوار السحيقة هي السبب في عجز آثار شعرائنا الجياد عن الحركة، والتطويف..

إذاً؛ فكل اقتراح من قبيل العرض والتصوير لاستجداء الرواج؛ لن يجدي... وفي هذا المجال تحضرني قصة المخبر الصغير الذي وافى رئيسه بخبر كلب عضَّ مدير الجامعة.. فصرخ فيه قائلاً.. إني أنتظر - على الأقل - خبر مدير جامعة عض كلباً.. إنه عنصر الإثارة.. الانفعال.. الرجة.. أترى هذا العنصر متوفراً في شعر شعرائنا.. مثلاً..؟!

ولا يفوتني أن أؤكد أن دور الشعر هنا قد انتهى.. انتهى قبل أن يخوض معركة وجوده.. انتهى غير مأسوف عليه.. حتى من ذويه..

الأسرة في حياتي

ورُبَّ سائل يسألني عن الأسرة في حياتي.. وماذا أتمناه لأبنائي.. والواقع المؤلم؛ أني حاولت بكل جهدي؛ أن أكون أباً مثالياً لبناتي.. وظللت أصارع المتاعب حتى خارت قواي.. وسقطت إعياء.. وعندما أجيب عما حققت لهن.. يكون جوابي.. لا شيء.. إن هناك شيئاً أقوى من رغباتنا، وآمالنا، وجهودنا.. أما ماذا أتمنى لهن.. فلا شيء غير

النصيب الممكن من العلم والمعرفة.. ليس النصيب الذي كان يملأ رأسي قبل وجودهن، وبعده.. فقد كان حلماً ابتلعه الضياع..

وأخيراً.. لقد أعياني الأمر، وعزَّ علي الاندماج، وتقطعت أنفاسي.. إلى هذا فأنا ما أزال فريسة للخوف؛ أن أفقد أدنى درجات القبول..

وإنها لكارثة يستوي فيها ما يأخذ الإنسان وما يدع..

الشِّعر صناعة فنية مثالية رفيعة

الحجر مادة البناء الأولى..

فالإنسان يقيم به المأوى المقصود فيه الغرض إلى سد الضرورة والحاجة منه.

والبناء يصنع به منزلاً متكامل الصورة في النفع، والتناسق، والوثاق على نحو أوسع؛ استيعاباً للمطالب المتطورة.

والنحات يصنع منه التماثيل، والزخارف، وفاتن الأشكال.. لا يضع فيها دقة الصناعة، وجمالها، والنفع.. بل المعنى، والفكرة، ورمز الفن وتعبيره.. وأثرها في الخيال..

فصناعة النحت أتاحت للحجر تعبيراً أرقى من تعبيره في المأوى الخاص وفي المنزل الكامل.

والكلام هو وسيلة التعبير عن أغراضنا، وأداة تشكيلها، وتصويرها فهو - بهذا - مادة البناء الأولى في مطالب النفس، والفكر.

يصنع به المتحدث صور أغراضه ومراميه وشعوره.

ويصنع به الخطيب والكاتب؛ وسيلة التأثير والاستفزاز، والاستهواء وترسيخ الغرض، وتوكيد المطلب، وعرض الفكرة، والدعوة إليها.

ويصنع به الشاعر كل ذلك أو بعضه في صور أعمق فنية، وأوضح مثالية وأفصح جمالاً، وأروع فتنة.

والناس لا يطلبون في المأوى الخاص ما لا يحققه إلا المنزل المتكامل، ولا في المنزل المتكامل - من حيث توسع أغراض الصناعة والارتفاق - ما يطلبونه في صناعة النحت التي تستهدف التعبير الفني عن الفكرة؛ فهم أيضاً لا يلتمسون في الخطيب ما يلتمسونه عند الكاتب، ولا عند الكاتب ما يلتمسونه عند الشاعر.

فالشاعر إذاً؛ صاحب صناعة فنية، مثالية، رفيعة؛ تتصرف بمادة البناء الأولى؛ في أبنيتها، وصورها؛ تصرفاً يتيح لها تعبيراً أغنى وأروع وأحفل بالفكرة، والإشارة، والرمز، والمعنى، والمضمون. . . أو تصرفاً أوسع مدى من تصرف المتحدث، والخطيب، والكاتب.

بواعث الشِّعر هي بواعث الغناء

هذا الكلام مبدأ، أو محاولة لتبسيط فكرة التفريق بين المتحدث بالكلام المرسل ومطلبه الإفصاح، والخطيب وهدفه التأثير والاستهواء، والكاتب وغايته ترسيخ الفكرة، وتأسيسها، والشاعر ويستهدف ما شاء في حياة الفكر، والخيال، والشعور، وحركة النفس، وخلجاتها، واستجاباتها، وحقائقها وأوهامها. . أو في حياة الواقع، والقانون، والمنطق، والقاعدة، والعمل، والتكوين، والرأي، والعقيدة؛ ولكن من هذا السبيل، وبهذا الأسلوب. . سبيل الجمال، وأسلوبه الخاص.

بهذا التفريق - إن كان معقولاً - تتفاوت مراتب الكلام، حديثاً مرسلاً، وصناعة حديث، وكتابة أديب، وشعراً.

والشعر؛ على ما يبدو أنه الصحيح؛ كلام وصناعة وفن. . ولكنه في

كل صورة من هذه الصور؛ الترف الحافل بمعاني القدرة المعبرة، وذخائرها النفيسة؛ في أبهى الحلل والأثواب، حتى بساطته - وهي من أسمى صفاته وغاياته - إنما تكون ترف البساطة الفنية بالمذخورات، لا فقرها العاري أو المتكلِّف.

إن بواعث الشعر - فكرية كانت أو نفسية - هي بواعث الحياة ذاتها وانفعالاتها.. ومعانيه، وخيالاته، وصوره هي التي تجول في كل نفس، وفكر.. غامضة مكبوحة، أو واضحة طليقة.. وباهتة أو لامعة.

والكلام هو وسيلة لتصويرها، والتعبير عنها، أو هو مادة بنائها، فلا جرم إذا كانت ديباجة الشاعر وأسلوبه قوة وضعفاً وانطفاءً ونصوعاً وصحة واعتلالاً؛ هي الدلالة والفارق والمقياس وميزان الحكم على قدرة الصناعة وحذقها وأهبتها، واكتمال أدواتها.

وندير الكلام على طريقة أخرى؛ فنقول: إن بواعث الشعر هي بواعث الغناء في كل نفس إنسانية. ونظن الأمر في هذه الفكرة من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل، أو موازنة.

ما هي مقوّمات المعنى

وباعث الغناء يقر في نفس كل إنسان تقريباً.. فكل إنسان يغني لنفسه بكلام ذي معنى؛ يصنعه، ويستعيره، أو يدندن بشيء يقل أو ينعدم نصيب المعنى، وأثره فيه.

وما في ذلك ضير، ولا به غرابة؛ فهو طبيعي بل ضروري في كثير من الأحوال. فلو سأل سائل: لماذا يغني الإنسان لنفسه؟! لما كان هذا السؤال إنكاراً أو اعتراضاً، وإنما يكون تقصياً للأسباب والبواعث والعلل.

أما إذا سأل: لماذا يغني الإنسان للناس؟! فإن السؤال هنا يشمل

الإنكار أو احتماله، ويشمل مسوغات الإقرار لفتح بابها أو قفله قبولاً أو رفضاً.

والإنسان إذا غنّى للناس - احترافاً أو هواية - كان أول واجباته وأخلقها بالالتزام والرعاية من جانبه ألا يقول شيئاً يفهم على أنه من أبواب الكلام.. بل شيئاً يستجاب ويطرب ويحرك الإقبال من باب حسن التصويت، ورخامة التنغيم، وقوة الاستجابة للمشاعر أولاً؛ فهذه الصفات تنزل منزلة الأسلوب، واتساق العرض، وجماله، وتأثيره في بسط النفس واجتذابها إلى ما تحتها أو وراءها من غرض هذا المعنى الماثل في المقطوعة المغناة، أو القول المردّد.

وقد يفتقد في المغني؛ حسن الصوت، ولطافته؛ فيستعيض السامع من ذلك؛ بقوة النبر، أو امتداد النفس، أو عمق الترجيع أو المقدرة على الضبط، والتوازن، أو سعة الحيلة في التصرف.. فهذا تحريك للإقبال والتأثر والانفعال في السامع بلون أو أكثر من ألوان القدرة والحذق يعوضه عن فقدان مطلبه الأساسي من المغني.

فإذا حرم المغني من ذلك كله، ولم تبق له إلا قوة المعنى، وجماله وبراعته في بناء المقطوعة؛ لم يعد أن يكون مردداً، أو مرتلاً، أو منشداً..

وهذا على أي حال غير مطلب الغناء، والتطريب، وغير ما يستحق به رافع عقيرته.. اسم المغني، أو المطرب.

الشِّعر كالغناء

وعلى أن الشعر كالغناء في بواعثه، وغايات تأثيره؛ كان لكل إنسان يحس بواعث الشعر أن يقوله، كما كان كل إنسان يحس بواعث الغناء أن يغني، لا حجر في ذلك على كليهما أمام قوانين الحرية والاختيار.

أما أن يرفع المغني، أو الشاعر عقيرته بالغناء بين الناس؛ فمسألة أخرى تختلف كل الاختلاف. فهو هنا عارض بضاعة، أو طالب مقايضة أو ملتمس مكانة، أو مستهدف غرض أدبي في الجماعة، أو متطوع لها - احتيالاً على المحمدة - بما يفرض فيه أنه خير ما عنده، أو خير ما يقدر عليه على معنى أنه مغنٍّ أو شاعر.

والمعنى الماثل في عديد هذه الصورة؛ يتضمن الدعوة إلى المشاركة فيما يستحق تجشم مشقة السعي والإقبال والتلبية، واحتمال المنّة المظنونة. والإنسان وحده؛ يأكل ما يشاء، أو لا ما لا يقدر على أحسن منه أو أطيب ليس لأحد عليه حجر في الاكتفاء بالميسور والتافه، وبما ليس به غناء في إقامة البنية، أو حفظ الرمق.

ولكنه متى دعا الناس إلى وليمة وجب أن يزكي دعوته ببسط أسباب الكفاية والإمتاع، والتوسعة لهم، وتوخي غاية التجمل والإحسان على مقدار غرضه من دعوته، أو على مقدار حرمة ضيوفه عليه، أو على أنفسهم؛ فهذا هو الصحيح.

ولو سألنا الآن: ما هي أغراض الشعر؟ لوجدنا أنها الجمال والتأثير وإبداع الصور، أو استعادتها لتوشيتها وجلائها، وتلوين الحقائق والأفكار، أو صنعها أو صنعهما أو ما شاءت المذاهب والطاقات.. والمعنى المنطوي في ذلك كله، والدائر على تفسير جهد الشاعر؛ إنما هو مباهاته المضمرة بقدرته على هذا النحو من الإنتاج الفكري الرفيع - ما في ذلك شك -.

والشاعر في وسعه أن يكتفي بميسور الشعر أو بما دونه لنفسه، ولمن ينزل منزلتها عنده، ولكنه متى أقام المعرض لكفايته على أعين الناس وأسماعهم فقد أولم! أو رفع عقيرته بالغناء! فما يحسن به حينئذ أن يستبقي من غايات فنه بعضها حين يفقد سائرها. ولا أن يكون هذا السائر المفقود

هو القوام، أو ما يدخل في باب المطالب الأصلية للشعر والغناء.

ونوضح الأمر فنقول: إن الأسلوب قوام الشعر كما هو قوام الغناء، أو كما هو قوام كل فاتن وجميل وقوي مؤثر في جملة ما يتوقف حصول تأثيره على اجتذاب الرغبة فيهن وإثارة الإعجاب به، وتحريك الميل إليه.

نعم.. إن الأسلوب قوام الشعر ومظهر غاياته ومقاصده وهو في هذا كالجمال تتهيأ له الوسامة والقسامة وحلاوة الشارة على قانون مقاييسها الجسدية، ولا تتهيأ له الحركة والنبض والروح وتأثير انطلاق معانيه، فيكون جمالاً «أسلوبياً» تجتمع له أسباب القدرة ومظاهرها، ولا تتم له بها الغلبة والسيطرة على المشاعر والنفوس، ولكنه يظل جمالاً سليماً في القاعدة والتعريف.. جمالاً يحرك الإعجاب والميل إلى التأمل إن لم يحرك الرغبة ويبعث الصبوة ويثير الهوى؛ فهو بهذا خير من دلائل الحركة الباطنة، والنبض والمعنى، والتعبير الملحوظ في جسم متنافر التركيب، أو شاذ أو مطموس معالم الوسامة.

جمال الأسلوب الصِّفة الأولى للشِّعر

فالأسلوب في الشعر هكذا، هو شارة الحسن، وشياته في مثال الجمال. ولا يقلّ عن أن يكون صنعة الشعر الأولى، ومزيته، وأساسه، وقوامه.

ولا شك أن الجمال التام هو ما تجتمع له سلامة الصورة؛ موازنة لمعاني التأثير في تعبير المفاتن الجسدية، أو شيء من هذا إلى شيء من ذاك. ولكننا نسأل.. أي جمال ـ أسلوبي ـ يخلو من صفات التأثير ودواعيه، وأسبابه؟ كما نسأل أي كلام يمكن أن يخلو من المعنى؟ إنما أسوأ الفروض أن يكون وجود صفات التأثير، ودواعيه وأسبابه في الجمال ـ

الأسلوبي ـ وجوداً ناقصاً أو مرجوحاً؛ فلا يكون بهذا النقص سبباً مباشراً في التأثير أو السبب المباشر له؛ بل معنى فيه أو عنصراً في جملة عناصره، أو عاملاً من عوامله؛ فهذا أخلق بأن يكون المعقول، والواقع المفسر.

ولنذهب أبعد من هذا المذهب؛ فنتصور جمالاً توازنت فيه معنويات الروح المعبرة المنطلقة، على مقاييس الجسد، وحسن شارته، ولكنه فقد جمال الاتساق في التصرف، وبراعة الحركة في المشي والالتفات والإيماء والاستجابة، أو فقد لبوس النشاط في استخدام المفاتن أو استخدام ما تدور عليه من انسجام الزينة والملبس! أفلا يكون بهذه العنجهية جمالاً يستثير العطف والمرحمة والإشفاق، أو ربما استثار السخرية، لما طرأ على جملة أسلوبه من النقص والاضطراب والمفارقة بين فقدان هذه العوامل التي هي أسلوب، أو تكميل له.

فالأسلوب في هذه الحالة؛ هو فن القدرة على استخدام المظاهر، وتطويعها للتعبير عما ترمز إليه تعبيراً لتنهض به الفتنة، ويستقيم التأثير. إن فن الحركة، وفن توزيع الألوان، أو الأنوار، والتصرف في تسليطها، وتقدير نسب سقوطها على الأمكنة والأشخاص والمناظر والحالات، وفن تزويق الملابس بالتقصير والتطويل، والتضييق، والإرخاء، والشد واللف، والضم والمواءمة أو المفارقة بين خطوط اتجاهاتها بالمعارضة والانحراف - إن كل ذلك أسلوب يصنع صوراً من الجمال أخاذة السحر والفتنة؛ تكبر الصغير، وتجلو الغامض أو تكسب بالغموض المتوخى أسباباً مثيرة للافتتان... أو تواري القبح، أو تصوغ بالمغالطة عن الحقيقة صواباً فنياً، يهز أو يحرك الإقبال.

الشِّعر غايته الجمال والتأثير

فإن كان الشعر فناً والشاعر فناناً أو كانا صناعة وصانعاً؛ فالحقيقة لا تختلف، وهي أن الشعر موضوعه وغايته الجمال والتأثير في كل مدخل ومخرج من مداخله ومخارجه وإلا كان كل كلام يغني عن الشعر، وكل مبين عما يحس ويتخيل ويلتقي يغني عن الشاعر والناس.. أفلا يحبون ويتألمون ويحسون ويصغون ويفرحون بالطبيعة، ويتحمسون ويستجيبون لكل ما يستجيب له الشاعر ويستثير بعضهم بعضاً، ويفكرون، ويحللون ويتنادرون، ويتمثلون الأمثال والحكم - على نحو لا يختلف إلا باختلاف صيغ الكلام وأساليبه؟ فما حاجتهم إذاً إلى الشاعر إن لم يكن أسلوبه في العرض والتركيب والتلوين والتصوير واستخدام الخيال والتصرف بعناصر الجمال تعقيداً وتبسيطاً وتوليداً - جاعلاً لكل ما يعرفون ويحسون أبعاداً، وصوراً وفتنة أعمق، وأغنى، وأحفل ببواعث التأثير!؟

وهكذا؛ فما حاجتهم إلى النجار والبنَّاء؟! أفلا يسع أحدهم أو يسعهم بالتعاون والاشتراك في أن يصنعوا من الحجر والخشب ما يشاؤون على النحو الممكن، ومعناه المقصود؟

معركة ضد ثلاثين شاعراً حجازياً

والآن - وإن كنت لم أستوف الكلام بعد إبقاء على صبر القارئ - أدعوه، أو أعزم عليه - باسم الله - أن يخوض وحده معركة سافرة ضد ثلاثين شاعراً - على وجه التقريب - من شعراء الحجاز في هذه المجموعة التي اختار جامعها - غفر الله له - أن لا يقدم لهم أو لها؛ سواي؛ دون عباد الله قاطبة.. ففعلت بعد أن سدَّت في وجهي أبواب الهروب، والإفلات.

والقارئ لا شك يعلم أن من مصطلح أدب التقديم الذي جرى فيه الناس على مألوف العادة والعرف؛ أن يكون تنبيهاً عريضاً إلى المحاسن، وإعلاناً عنها أو لها، وإشارة مجملة إلى نقائصها وأضدادها لا تخرج عن نافلة الاستبراء بحركة.. أو بحركتين إن رؤي أن هذا ضروري لإثبات الأمانة وهذا - ولا أكتم القارئ - مزاح ثقيل الوطأة على مزاجي وعقلي أو هو امتحان عنيف لطبيعتي بما لا تواتيني عليه؛ فما يسهل على أن أنزل منزلة المعلن أو قارع الجرس أو السمسار؛ يروّج السلعة بالباطل أو بما يدخل تحته من صور الحق والجد المصنوعة الجاهزة للطلب!!

وإني لأعرف؛ كما يعرف أي عاقل من القراء - فما يعنيني غيرهم - أن الجيد إعلان بذاته؛ فحسبه من الداعي إلى الإقبال عليه؛ التنبيه الرصين أو الإشارة المجملة. أما الرديء فهو أخلق بطول الكلام عنه وفيه وحوله، من الناقد أو العارض، أو «المقدم».

المقدِّم.. وسيط بين الشاعر وقرائه

والمقدم - وهو هنا أنا إذا كان القارئ لا يعلم - وسيط بين الشاعر وقرائه فأول ما ينبغي أن يتصف به أمانة الوسطاء في دفع أسباب الخداع والتضليل ووضوح البراءة منها.. ويشهد القارئ الجاد أني فعلتها بما قلت، وإن كنت لم أفتح الباب على مصراعيه؛ اعتماداً على فطنة الناس، وزكانتهم.

ولقائل أن يقول: ولكن الناس يعرفون، أو هذا هو المفروض فيهم؛ فما ضرورة تنبيههم إلى المساوئ أو يجهلون؟ فما حكمة أن تفتح عيونهم على ما يسوء ويغثي!؟

والرد على هذا يتلخص في أن الإنسان - الطبيعي - إنما يستهدف

حتى من تحمّل الخير الخالص؛ نفعاً لنفسه، ولو جاء هذا النفع من باب اللذة والارتياح. وإذاً فليس أقلّ لمن يقدم مجموعة من الشعر كهذه؛ من أن يدفع التهمة عن رأيه وفطنته وبصره، وإلا كان قارع جرس، أو حامل طبلة، أو سمساراً. وما أحسب أن الجامع يبطن الرضا لي بهذه المنزلة، وعلى أعين القراء وأسماعهم، وفي هذا المقام الذي لم يحملني على التعرض لأذاه المؤكد، إلا هو ومن استعان بهم عليّ.

نعم.. إنه لكذلك، وإلا كان شر ما في الدنيا صداقة جامعي الشعر، وحاشدي الشعراء.

أو هبني بائع دابة سليمة! فما يكون اشتراطي العيب فيه تفادياً لاحتمالات السوء الممكنة، وأخذاً بخطة الحزم في سد باب الذرائع؟ فهذا ما آثرته لنفسي على بينة.

وما زلت أرى أن الناس ينالون بالحظ أضعاف ما ينالون بجد المساعي.. حتى في دنيا الأدب والشعر والتقديم..

كلا والله؛ وما يعييني الرضا بالميسور؛ إن كان هو كل ما يتأتى لمثلي على وعورة الجهاد، ووعثاء الإمعان في السعي، وكمال العدة على أقوم الوجوه وأسدّها.

الرقصُ تعبيرٌ والقيادة فن

ويحلو لي الآن أن أصرف حديثي إلى القارئ - مترفقاً على صبره - فأقول:

إن الناس يتعلمون الرقص قبل أن يقوموا به علانية في المجتمعات. ويحذقون قيادة السيارات قبل أن يقتحموا بها الشوارع. أو أن هذا هو المفروض والواجب؛ فإذا خرج راقص في حفل عن مساوقة الموسيقى

والإيقاع وداس في كل دورة من دوراته مرة أو مرتين على قدم من يزاوله؛ كان لا يصلح أن يرقص على أعين الناس وأسماعهم؛ لأن الرقص عرض سليم واتساق وجمال وترابط وانسجام وقدرة على التصرف وتعبير وقواعد.. أو.. لأنه أسلوب!

وإذا اضطربت عجلة القيادة بين يدي قائد السيارة؛ فتأرجحت أو جنحت، أو كان لا يتاح لها التماسك والربط عند وجوب أحدهما أو كليهما، أو كانت لا تنساب وتتدفق وتلف وتتحول في إحكام وسلامة واتزان يدل كل منهما على صحة التقدير وقوة السيطرة؛ كان سائقها جاهلاً بخصوصيات القيادة كفن أو كصناعة أو كعمل.. ولو اقتنى مصنع سيارات، لأن قيادتها فطنة، ولمح وإدراك وحذق وحسن تقدير.. وصناعة.. أو.. لأنها أسلوب.. فالأمر على هذا القياس بالنسبة للشعر والشعراء.. ولو كان حجازياً..

ولو كانوا حجازيين!!

إنه أمر مهول...

للقارئ وحده أن يخوض المعركة

وما على القارئ الآن - وهذا هو الحق لا غيره - إلا أن يخوض المعركة وحده فيسأل نفسه، أو يسأل سواه - وله الخيرة - ما هو نصيب كل شاعر - في هذه المجموعة - من قصة الأسلوب والديباجة هذه؛ إشراقاً وقوة ومتانة تركيب!؟ وما هي قدرته على التصرف وفطنته وحذقه في الصياغة والتركيب والتعبير والاتساق وسلامة الحركة ورشاقتها.. وتجنب وطء الأقدام أثناء الرقص!؟ وما هو حقه في ادعاء الشاعرية، واكتساب رسمها؟ أو حقه في أن يرفع عقيرته بين الناس بالشعر!؟

فإذا عرف القارئ شيئاً - وسيعرف - فقد تهيأت له أسباب الحكم والتحديد، واستعان بخير الطرق، وأقلها مشقة على التقصي والكشف عن مزية كل شاعر، وطابعه، وخصوصياته، وشخصيته، وقدرته.. وقد وقع على الجمال الذي يجتمع له إلى جانب حسن الشارة والميسم في ظاهره؛ جمال المعنى، وفتنة الدعوة والتأثير في ما تحت هذا الظاهر المجلو. أو وقع على القبح الشنيع؛ يزيده شناعة أنه شعر من صناعة شاعر بين شعراء.

أديت حق الوساطة

أما أنا فقد نصبت الميزان، وأقمت المقاييس، ومهدت الجادة بما وسعني من جهد ودفعت التهمة عن فطنتي بما حسب القارئ به وكفى.. وأديت للوساطة حرمتها أو حقها من الأمانة ولم يعد للقارئ إلا أن يزن، ويذرع، ويحدد الفروق، والمراتب، والدرجات؛ فما يتسع طوقي لأكثر من هذا، ولو اتسع لكنت خليقاً بألا أتجاوزه اتقاء لما يجرّ إليه من الجرأة على حرمات الشعراء من نصيب الدفاع، وأوصاب الزباد في هذا الزمن المدبر الذي تضخم فيه كل شيء حتى الشعر والشعراء.

وهذا حق نفسي عليَّ في التماس السلامة بالتقية والاحتراس، أو بقبول تهمة العجز عن اضطلاعي بأعباء الملاحاة المتوقعة من نيف وعشرين شاعراً.. وذوي عصبياتهم الأدبية وأشياعها.. فإن الأمر - على ما يرى القارئ - جدير بأن يروع القلب، أو يخلعه. والإنسان مطالب باتقاء التهلكة؛ فإن قال القارئ - متخابثاً - وهو مطالب أيضاً بألا يجهر بالسوء.. قلت: إن تعميم الرمز والتضمين والإشارة، وإطلاق الدلالة بالقواعد التي يكتشف بها النقص أو تفرق المعابث في الشعر والشعراء.. مثلاً ليس من باب الجهر بالسوء، أو الهمس به.. أفلا يقول الواعظ لوجوه الناس

وعلّيتهم؛ وفي المسجد؛ وبملء صوته:

أيها الناس.. لقد فسدت أعمالكم، وزاد إمعانكم في الضلال، وركوب الموبقات والأوزار، والسوء.. وكيت وكيت من الرذائل.. فلا يكون لأحد من سامعيه أن يأخذ بتلابيبه إلى حيث يقاضيه. فإذا ما رمى رجلاً بعينه، أو باسمه بشيء مما قال؛ لزمه ما يلزم المعتدي على كرامة مسلم، فأقام البينة، وأخذ بالجريرة!؟

ولم يبق للقارئ بعد هذا في عنقي إلا أن أسأل الله لي وله المغفرة، وحسن العاقبة، وسلامة المصير، ولطف الختام!

وبعد.. فإن من شعراء هذه المجموعة من لا يفخر الحجاز وحده بهم ويتيه.. بل كل بلد عربي.. وهم السرحان، وعواد، وقنديل، وحسين عرب، وأشباههم في معظم السمات، وفي بعضها دون جملتها.

ومنهم من يستحق الرثاء.. ومنهم مستوجب التعزيز؛ حتى يعلن التوبة من رفع عقيرته بمثل هذا الهراء.. ظنه شعراً؛ فأفسد به - أو كاد - جو هذه المجموعة الرقيق - حتى أوشك أن يتحول به إلى جو مظاهرة من المظاهرات التي يغلب عليها عنصر الرعاع والدهماء...

والله من وراء القصد وهو الغفور الرحيم.

المسألة الأخرى!

عيب النصح أحياناً؛ قصر النظر

سمعت هذا الجزء من الحوار التالي:

الناس يعرفون أم يجهلون.

وأنت بالنسبة لمشكلتك من أحد الفريقين.

فإذا كنت تجهل؛ لم يكن وجود للمشكلة؛ لأن من يعرفها لن يجاهرك بها.

وإذا كان العكس؛ فلا تزعج نفسك.. تجاهل مشكلتك.. اهرب منها بتجاهلها.. لا تتعود مواجهة المشاكل لتصفيتها.. إنها شيء لا ينتهي؛ فكيف ومتى تعيش؟ هل فهمتني!؟

وقال الآخر بصوت معذب؛ نعم.. ولكن من المشاكل ما يواجهك؛ فإذا أدرت له وجهك أخذ بقفاك كأنه ملك شرعي له.

وسأل الأول مندهشاً.. مثل ماذا؟

فأجاب: مثل مشكلة استقبال المواليد.. يا صديقي!

وهنا اعترف الناصح بأن هذه مسألة أخرى.

وعرفت أن القصة الخالدة.. كاملة.. قصة الزوج، والزوجة، والمسألة الأخرى.

دُعَائي لصديق

أنكر صديق لي أني أديب وشاعر؛ وقال إني فيلسوف، وهو يعرف أني لا أدّعي الفلسفة جهلاً بها.

وهكذا غدوت بلا موقف؛ إلا موقف مسؤوليتي الضئيلة «كمخلوق» مسن؛ محكوم عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ؛ ليؤدي ضريبة السن الثقيلة، في بقية عمره المجدبة.

هذا الصديق من أبرّ أصدقائي، وأعرفهم بي، وأحبهم إليّ صواب رأي، وعمق معرفة، وصدق سريرة، وطهارة وجدان، والتزاماً للحق، وجهراً به.

أحسن الله إليه؛ فقد حطّ عن عاتقي الموهون؛ عبئاً ما كان أحوجني إلى التخفف منه؛ منذ تجشم الناس لي، وتجشمت لهم؛ تلك المشقة في

ما لم تتحقق به لنا معاً أية جدوى - آمين.

* * *

بعد الخمسين لا يكون أمام الرجل غير الندم.. الندم على أنه لم يطلق لنفسه من قبل؛ عنان شهواتها.. أو على أنه أطلق لها عنان شهواتها.

وللمرأة الدور نفسه؛ ولكن قبل الأربعين.

أما المتزوجون؛ فندامتهم على الزوجية فقط.

تجديف..

أليس في الوسع القضاء على شعار العمل للأجيال القادمة؟

هذا الشعار البالي من القدم.. الحلم الكبير الذي لم يكتب له قط أن يتحقق لجيل من الأجيال قبلنا على نحو ثابت.

إن الأنبياء كانوا منطقيين أكثر من الزعماء، والقادة.. إنهم بثوا الإيمان في قلوب جماهيرهم بأن الحياة عمل شاق، ومتاعب، وكدح مرير.. جزاء احتمالها جنة الخلود في العالم الآخر.

وكل ما فعله الزعماء، والقادة المغامرون؛ أنهم استعاروا هذا الشعار وحوّروه إلى «أجيال قادمة» أجيال أخرى لن تظفر أبداً بغير ميزان اللعنة ذاتها.

* * *

كلتاهما تشكل خطراً مباشراً على عقلك؛ المرأة التي تحبها والمرأة التي تحبك ولا سبيل لتوقّي الجنون في الحالتين إلا بمعجزة خارجية.

* * *

هناك حكمة في كل اصطلاح.. فشهر العسل فترة ضرورية لتخفيف

آثار الصدمة.. كما أن فترة الخطوبة اختبار لقدرة الزوجين على الخداع، والصبر؛ باعتبارهما ضماناً لمد أجل العِشرة بعد الزواج وقتاً يكفي لإنتاج الأطفال الذين يصنعون التسوية الجبرية للعلاقة إن لم تسبقهم إليها المحكمة بطريقتها المألوفة في علاج المعضلات.

النّذالة.. والتسامح..

في الحياة الزوجية.. لا يضع حداً حاسماً؛ إلا نذالة الرجل، أو تسامحه. وهنا لا معدى عن أن ترتفع النذالة إلى مستوى التسامح، أو ينحط التسامح إلى مستوى النذالة..

هذا مغلق..

ثمن المعرفة

قال زوج لصديقه الذي يتكفل برعاية أبنائه من ثلاث مطلقات، إنك لا تستطيع الاحتفاظ بالمرأة إلا بالتسامح والصبر على ما يسوؤك؛ اتقاءً لما هو أسوأ.

وفكّر الصديق طويلاً.. ومضى يستعرض جملة الأسرار والمآسي التي تعبر عنها هذه الحكمة.. فهاله ثمن المعرفة.

البيوت سواء..

في البيوت التي انهدمت؛ كما في البيوت القائمة؛ الأسرار والمتاعب، والكوارث نفسها.. والفرق في الظهور والخفاء؛ مع اختلاف يسير في الكم والكيف؛ إذا روعيت الدقة.

* * *

قليل من التستر، والحيطة يكفي لإنقاذ المظاهر، وتوطيد الثقة بين الزوجين، أما المصادفات السيئة فمتروكة للحظ، لحظ الزوج أو لذكائه.. وليس في هذا ما يخيف؛ فهو عادة الذي يدفع الثمن.

* * *

اختيار الإنسان

في كثير من المواقف؛ لا يكون للإنسان بدٌّ من الاستمرار في عمل فاشل بلا توقف؛ حتى عندما يكون هذا الاستمرار تحقيقاً للإفلاس، وهذا ليس غريباً على الإنسان؛ فإننا جميعاً؛ نتقبل الحياة؛ تحت شروط، وظروف غاية في القسوة؛ نتقبلها كما هي، سائرين من سيئ إلى أسوأ حتى الموت ـ ذلك في ظاهره اختيار، وهو في حقيقته اضطرار لتقبل مواقف محتومة؛ ليس من تقبلها مناص.

هناك من يتوقف أو يتصلب، ولكنه سيدفع ثمناً أفظع من هناءته سواء نجح بتصلبه، أو فشل.

المواطن والوطن..

الاصطلاح قانون، والقانون اصطلاح.

من غرائب الاصطلاح أن يسري على غير المؤمنين بصحته، وغير المنتفعين به، وعلى المتضررين بأحكامه.

إنها ضريبة أن يكون لك وطن.. ولا معدى عن الصبر، والإذعان. في وسعك أن تترك منزلاً لا يرضيك إلى غيره.. ولكن المسألة بالنسبة لوطنك ومجتمعك؛ مختلفة.. أيها المواطن الحر الصالح.

انتحار . .

الأفراد للجماعة . . مبدأ صحيح

والجماعة للأفراد . . حقيقة واقعة

فهل من معترض يتقبل اتهامه بالثورة . . أو بالإلحاد، أو بالشيوعية!؟

أين هو؟ ومن هو؟ ثم . . ماذا يستطيع أن يفعل؟

هناك طريقة واحدة لتحويل أي خلاف بسيط بين متنازعين إلى معضلة طويلة الأجل . . .

المحكمة . . . !!

* * *

مسؤولية

لا شيء يضللنا أكثر من رغباتنا.

* * *

القديم والجديد

التزام القديم هروب طبيعي من مشقات التجديد . .

ولكن من حسن الحظ أن الحياة هي التي تتولى دائماً دفع الإنسان إلى الأمام مكرهاً كان، أو راضياً . .

إن الشعوب التي تتوقف عن السير مع تيار الحياة والتغيير؛ تضطر بعد: إلى أن تعدو لاهثة، وبجنون؛ لكي تعوض ما فاتها من الوقت . . وفي هذا العدو الاضطراري مزالق الخطأ، وكبواته.

* * *

المساواة

المرأة ترى لها الحق نفسه في ارتكاب الرذائل التي يمارسها الرجل لأنها تحمل ميولهن نفسها وشهواته. هذا هو معنى الجد بصراحة..

لقد سلّم الغرب بهذه الحقيقة.. أما الشرق ففي الطريق.. وكل ما في الأمر أنه سيصل متأخراً بعض الوقت..

ليس الشرق كل ما أعني.. لكن بقاياه المتخلفة.

ملابسات

الخلاف بين الزوجين يقوم دائماً على أسباب في غاية الدقة والخطورة ولكن كليهما يقفو ذكراها ليحتفظ بمركزه المعنوي في النضال.. وهذا من تقاليد الحرب التي تراعى ظاهراً بين المتحاربين وتدور المعارك في عنف وقسوة على أسباب يُظنّ بتفاهتها وسخفها، لا بد أن يتقبله المصدِّق والمكذِّب على السواء...

إن في مسألة الهند والصين شيئاً من هذا..

لا خط مكماهون، ولا حماية الدالاي لاما؛ سبب هذا الخلاف، ولكن النقطة التي يتركز حولها الحوار، وتفصح عنها الملابسات..

* * *

قليل من الأزواج يدركون أن الزوجة تغمض عينيها أثناء عملية التقبيل؛ لاستحضار صور رجل آخر.. بعيد.

* * *

كم كان الإنسان منافقاً عندما وضع للحب الشهواني أسماء أخرى.

* * *

لولا الآلام والمتاعب والقلق؛ لما كان في الحياة شيء يسرّ.

* * *

الفقراء هم الذين يصنعون الثراء، والأغنياء يتمتعون به.

* * *

الدولة ذكية في تحصيل المال، وغبية في إنفاقه.. تأخذ من الصغار والفقراء، وتعطي كبار الموظفين والأغنياء.

* * *

لا تصدق أن شيئاً غير استبداد الدولة؛ يعلّم الناس الحكمة، فالناس يسبون الأغنياء، ويسبون أنفسهم عندما يكون رأيهم سيئاً في الدولة.

* * *

ليس للمرأة إلا أحد موقفين.. أن تكون سيدة الرجل، أو تابعاً له؛ أما المساواة فتجربة فاشلة في مجال العلاقة المشتركة.

* * *

ابحث عن الراحة إذا كنت متعباً.. ولا تبحث عن المتاعب إذا كنت مرتاحاً. ولكن الناس لا يتبعون هذه الوصية، لأن طبيعة الحياة تستوجب التغيير، حتى لو كان من حسن إلى سيئ، إنه القلق، والرغبة في التجديد، على أي نحو كان..

* * *

الحياة كالمرأة..

كلتاهما تحب الذكي، وتكره العاقل

ولكن ليس كل النساء.. يكرهن العقلاء.

الوقار

عندما يكون الطعام غير كاف؛ يسيطر الوقار على المائدة.

* * *

الصحفي الذي يعض، ويجرح؛ هو الذي يكون أسلوبه غاية في الروعة.

* * *

إذا كنت لا تهاجم النساء بجنون.. أو لا تدافع عنهن بحماقة؛ فمن الخير لك ألا تضع اسمك على مؤلفاتك..

التوابل

الجائع لا يهمه خلو الطعام من التوابل.

متى يتقاعد الضمير

حاجة الإنسان إلى الضمير تنتهي عندما يحصل على مقدار كاف من الذكاء..

عمل الضمير

كلما تقدم الذكاء؛ لم يبق أمام الضمير مجال للعمل.. غايات الذكي تتفاضل.. أما وسائله.. فلا..

* * *

إن للنذل ضميره أيضاً.. ولكنهما دائماً على وفاق..

* * *

الذي يسيء إلى من أحسن إليه ليس شريراً.. إنما هو نذل.

* * *

إذا كان الطعام رديئاً، أو قليلاً؛ تنعدم المجاملات على المائدة.

* * *

لا يستطيع النذل أبداً أن يرتفع إلى مستوى المجرم.

* * *

كان يقول بانفعال:

لقد سرقت، وكذبت، وغرَّرت بالآخرين، ولكنني لم أخن من ائتمنني.. ولم أكذب على من وثق بي..

نعم أنا مجرم.. ولست نذلاً..!

* * *

يبدو أن الزواج في المستقبل سيكون عبارة عن تناول حبة عند الرغبة.. في النوم..

* * *

صخرة شريفة

السر في بلبلة الشاعر، وعذابه، أنه يحاول تحويل الحلم إلى واقع.. ثم تحويل الواقع إلى حلم..

* * *

الجمل حيوان مجتر.. وكذلك الشاعر.

* * *

ليس من الممكن فقط أن يعيش الناس بلا شعر.. بل من المستحب.

فرصتك دائماً؛ يحددها ما تجد.. لا ما تريد.

* * *

أمر سيئ جداً أن تنكسر عصاك عندما تكون في أقصى الحاجة إليها، والأسوأ أن تتحول إلى ثعبان ينهش يدك.

* * *

عندما تتعرض للخطأ ينقلب كل شيء ضدك.

* * *

أيهما تختار.. أن تكون الجاني.. أو الضحية..

* * *

لا تعكس في القانون.. ولكن انظر إلى المجتمع قبل أن تجيب.

* * *

منطق الغابة هو واقع المدينة.. بزيادة طفيفة هي القانون.

* * *

طول التقاضي في المحاكم هو الذي أغرى بابتزاز الحقوق وابتلاعها.

* * *

أول ضمانات العدالة سرعة البتّ، وتغليظ العقاب، والقانون والمحاكم يجهلان هذا.

* * *

لا بد أن تحمي العدالة حقوق الغافلين، والعاجزين لأي سبب عن حماية أنفسهم؛ أما غيرهم فليسوا في حاجة إلى حمايتها؛ بقدر ما هي في

حاجة إلى ما يحميها من ذكائهم.

* * *

ماذا يعمل القضاء؛ إذا لم يحم؛ وبشرف، حقوق الغافلين والعاجزين، والسذّج.

* * *

تسعة أعشار فساد المجتمعات راجع إلى فساد المحاكم، وتسعة أعشار فسادها راجع إلى طول زمن التقاضي فيها.

* * *

أن تبذل كل جهدك، وكل وقتك للعمل.. هذه هي الحياة.

* * *

العمل لا يقتل؛ مهما كان شاقاً، وقاسياً.. ولكن الفراغ يقتل.. حتى أنبل ما في الإنسان.

* * *

إذا فشلت فهناك خطأ.. أنت المخطئ أو غيركَ هذا شيء آخر؛ عليك أن تتقصى، وبحذر.

* * *

ينبغي ألا نعاب لأننا - كأدباء - لم نستطع تحريك هذا الحيوان البليد الذي تدعوه أمّة.. لأن هذا لم يكن ميسوراً لكرّة الزمن نفسه في ثلاثة عشر قرناً.

* * *

طالما سألت نفسي بحزن عميق؛ أفي وسع هذه اللغة التي نتخذها وسيلة لنقل أفكارنا؛ أن تهيئ لنا جواً طبيعياً للتفاهم، وتبادل الثقة

والشعور؛ مع هذا الخليط الجاهل الذي يكوّن شعبنا؟

* * *

إذا كانت الحياة لا ترتقي إلا بعد أن يدب في تجانسها التركيبي تنافر؛ فلماذا لا يدفع الحياة إلى الأمام أو إلى الأعلى؛ هذا التنافر الظاهر في كيان أمتنا كجسم اجتماعي حي؟

* * *

ينبغي أن لا نشك في مستقبلنا الاجتماعي كأمة.. كلما ارتفع ميزان الحضارة والتقدم الفكري والصناعي في الأمم البعيدة.. لا معدى عن أن نرتد بدواً نضرب في هذه الصحاري المقفرة لنشارك الحيوانات حياتها..

إن من لا يندفع إلى الأمام؛ يدفعه تيار الحياة إلى الوراء.

* * *

كيف لا تنعدم الوطنية، وتموت الدوافع الشريفة في وطن؛ القوت الضروري هو شغل أهله الشاغل.

إن الفاقة تقتل أشرف الدواعي في النفس.

* * *

سيزداد ضغط الفاقة على بلادنا؛ باستمرار الهجرة الدينية إليها ولكن أتراه ضغطاً يولّد انفجاراً؛ كلا! لأنه إنما يسحقنا بالتدريج.

* * *

إن العراقة في العبودية تجعل منها عادة قاهرة، وربما جعلت لها جمالاً؛ لا يختلف عن جمال الحرية في نفوس عشاقها.. أليس العشق ضرباً من العبودية!؟

عبودية نفس لأخرى.. وهو مع ذلك جميل..

الهوان يصبح سهلاً بالممارسة.. ككل شيء آخر..

* * *

إن النفس التي تستطيع الاحتفاظ بكبريائها؛ إذا امتحنت في عزتها بعوامل الإذلال من القوى؛ هي نفس الرجل الذي يستحق أن يدعى «جباراً».

* * *

يتحتم على من يحلم بإصلاح هذه الأمة؛ أن يكون مفرطاً في التشاؤم؛ إلا إن كان لا يعبأ بالخذلان.

* * *

من السهل أن تعرف أسباب انحطاطنا، ولكن من الصعب أن تقضي على سبب منها ما دمنا جياعاً.

* * *

لا يرجع ضعفنا لعجزنا عن الفهم، ولكن لعجزنا عن المقاومة..!

* * *

الجَمَال منجم غني بالأعاجيب والذخائر النفسية، ولكن الرغبات لا تصطرع حوله كما تصطرع على منجم فحم.. أليس هذا عجيباً!؟

* * *

يجب أن نعترف بأن وجود كثير من الرذائل؛ إنما هو نتيجة منطقية لنظام الحياة.

* * *

كلما أتيحت لي تجارب جديدة؛ ازددت إيماناً بأن الحب صرخة

الجنس وسواء أكانت صوتاً منبعثاً أم أنيناً خافتاً؛ فإن المعنى لا يتغير.

* * *

الحب لمن يعتاده كالخمر عند من يدمن عليها.. كلاهما يشتري هذه النشوة، والخدر اللذيذ، بصحته وماله.

* * *

إن الشباب هنا؛ كالشيخوخة، لا مستقبل له.

* * *

ليس أقبح ما في حياتنا أنها لا تخلق القابلية للأحكام بل إنها تخلو من واقع واضح.

* * *

لكل شيء في العالم ثمنه.. إلا الحياة، والفكر، والحرية.

* * *

الذبح يؤلم الخرفان، ولكنه لا يحركها للثورة، ولا يدفعها إلى الهرب.

وهناك شعوب لا يستطاع ابتكار أسباب لتحريكها مع أنها تتألم.

إن هذه الأمة كالمعدة القوية؛ تهضم كل شيء بسهولة، وهذا علة هوانها.

* * *

الألم الذي لا يبعث على الضجر والحركة يصير مكيفاً لذيذاً بالاستمرار.. هذا معنى أن أمة تفيض ألماً.. ولكنها لا تتحرك..

* * *

لا بد لمن يحب هذه الأمة أن يحتقرها.

* * *

حاول أن تكون مصلحاً.. ولكن حذار أن تتكلم؛ إلا إن أردت أن تفقد السيطرة على النفوس.

* * *

احذر أن تشتهر بالطيبة في أمة خانعة.

* * *

لو كان للتاريخ أن يسألنا.. ماذا تنتظرون؟ لقلنا.. المعجزة وهذا صحيح.. ولكن أتراه ميسوراً!؟

* * *

أليست الرغبة في الحياة أقوى أسبابها!؟

* * *

بين كل من تتحدث إليهم عن نفسك لا تجد أكثر من واحد يحسن الإصغاء إليك، ويتابعك باهتمام.. من تظنه!؟ إنه.. أنت.. أنت فقط..!

لكي تجد من يصغي إليك بارتياح عندما تتكلم عن شيء لا يهمه لا بد أن تكون امرأة جميلة، أو رجلاً مرموقاً يرجى خيره.

* * *

لو علمت عشر ما أجهل؛ لكنت من كبار العارفين.

* * *

لو قالت لهن.. إني الشيطان نفسه، لصدقتها.. لقد كنت أباً لهن..

الأب الذي ترك كل حياته، وكل نجاحه، ومتعته؛ ليقوم بدوره في حضانتهن؛ عندما ذهبت الزوجة.

* * *

ليس شيئاً أن تجد نفسك في معركة للدفاع عن غيرك.. المهم أن ينجوا هم ويتركوك وحدك بلا غطاء.

* * *

أي عمل رائع في أن تناضل لاستبقاء حياتك؟!

العمل الرائع أن تناضل لاستبقاء حياة الآخرين؛ عندما يفرضهم ضعفهم عليك.

* * *

العفة والشرف والأمانة إيمان قبل أن تكون سلوكاً؛ والإيمان معرفة قبل أن يكون اعتقاداً.

* * *

الكراهية تأخذ ولا تعطي، والحب يعطي ولا يأخذ.

* * *

الواقع حقيقة؛ لا يقرها المنطق.. والمنطق حقيقة لا يقرها الواقع.

* * *

النذالة مثل الفن.. فهي موهبة في الأصل.. ثم استمرار بعد ذلك..

* * *

الذكي هو الذي يجعلك تعتقد طوال الوقت؛ أنه لا يدخل بيتك إلا عندما تفتح له الباب بيدك؛ بينما يعيش بداخله، وأنت لا تعلم.

* * *

حتى عندما يكسب العقل المعركة؛ يفوز الذكاء بغنائمها.

* * *

رائحة الطعام؛ وأنت جائع؛ غير رائحته بعد أن تشبع.. إنه الفرق نفسه بين رائحتك؛ وأنت والد الخطيبة، ورائحتك وأنت أب للزوجة.

* * *

الضعيف يتكلم أكثر، والقوي أقل.

* * *

إذا لم تجد ما تقوله؛ فأنت عاجز أو حكيم.

* * *

الحرب محكمة؛ لا تدين إلا المغلوب.

* * *

لن يكون لديك ما تشكو منه؛ إذا كنت بلا زوجة ولا أولاد؛ هذا إذا كنت قد تزوجت، وأنجبت من قبل.

* * *

الزوجة والأولاد غمٌّ في الليل، وهمٌّ في النهار.

* * *

حتى السجن أرحم من فتاة عشقتها، ثم حولتها حماقتك إلى زوجة.

* * *

لا يحقق للإنسان أكبر قدر من التعاسة، والعبودية مثل الحضارة.

* * *

مواجهة الحب أقسى، وأخطر تجاربه عندما يتحول إلى زواج.

* * *

إذا صدّقت كذبك أكثر من مرة؛ فليس ذنبي أن أكذّب صدقك مرة بعد.

* * *

يجب أن تتوقع الضربات ممن أساؤوا إلى نفسك؛ لتحسن إليهم، وممن أهملوا حق الله عليك لتحقق لهم رغباتهم، أو تتستر على شرورهم.

* * *

الاعتراف الذي تطهر به نفس المذنب؛ هو الذي يأتي قبل وضوح الذنب، أو كشفه.

* * *

لا تكفي الندامة لمحو أثر الذنب.. التكفير هو الذي يكفي.

* * *

هناك فرق بين التكفير والعقاب.. تماماً كالفرق بين ما تنشئه الإرادة وينشئه الضغط الخارجي.

* * *

إذا وسعك أن تضع في ميزان عملك لآخرتك مقدار ما تضع في ميزان عملك لدنياك؛ فقد نجوت.

* * *

أول سبيل الهداية الصدق في مراقبة النفس.

* * *

أين من لا يصرفه عن العمل لآخرته إقباله على دنياه!؟

* * *

ما غالبت الدنيا إنساناً إلا غلبته.. إلا من أشاح عنها، وزهد فيها.. وذلك هو الانتصار.

* * *

حسن أن تتكلم.. وأحسن كثيراً؛ أن تصمت.

* * *

الصمت أفضل لغة للحوار.

* * *

الإسهاب صنعة، والإيجاز فن.

* * *

ليست المعرفة أن تعلم ما تجهل.. ولكن أن تنتفع به.

* * *

أعرف الواقع تماماً.. ولكني غير واقعي.

* * *

ليست المعرفة هي التي تقودنا.. ولكن ما بداخلنا مهما ناقض معرفتنا.

* * *

ما الذي يمكن أن تضيفه المعرفة لإنسان لا يعمل!؟

* * *

لا شيء يعطي تفسيراً تاماً للحياة، غير الموت!!

* * *

الإنسان لا يشكل حياته، ولكن تشكلها الظروف.

* * *

عندما لا يرتبط السلوك بالعقيدة؛ فكلاهما باطل.

* * *

كلما ازددت معرفة اتسعت أمامي مساحة جهلي..

* * *

لا تحقق المعرفة بالجهل، ولكنك تحقق الجهل بالعلم.

* * *

ماذا يمكن أن نعلم بالنسبة إلى ما نجهل!؟

ما نعلم محدود، أما ما نجهل.. فلا..

* * *

ستظل المسافة بين ما نجهل وما نعلم ثابتة، لا تتغير.. مهما تقدم العلم.

* * *

من بداية الحياة حتى نهايتها؛ كانت هناك حرب واحدة، متصلة هي الإنسان، أو كل المعارك والأحداث في تاريخها آثار وصور مصغرة لها.. وباختصار؛ الحرب المدمرة والباقية هي الإنسان.

* * *

الفشل والخطأ أنجح أستاذين للإنسان..

ليس لكل إنسان، ولكن لمن يستفيد.

* * *

أجل ما ترى قوله ضرورياً بعض الوقت.. في ٩٩٪ من المواقف؛ لن تأسف على ذلك.

* * *

لكي تظل محتفظاً بإنسانيتك؛ تعلّم ألا تربط سلوك الآخرين بدوافعه وأسبابه.. أو على الأقل.. تعلّم أن تتجاهل، وتتغابى، وتحتمل سخرية الآخرين بك، ولو على حساب أعصابك.. وإلا فاحفر لإنسانيتك ضريحاً يواريها.

* * *

إذا لم يعد لديك ما تتلمس به حقك غير الكلام؛ فمن الخير أن تسكت.

* * *

تقدم إلى المشنقة صامتاً.. لا تدافع عن نفسك أمام محكمة يشكلها أعداؤك.

* * *

الحب والسعادة والحقيقة أقدم وأكبر وأخطر أوهام الإنسان، وفي الوقت نفسه أقوى وأفضل حوافزه للتقدم.

* * *

لا يكون الصمت حكمة؛ إلا عندما يكون الكلام غير ذي جدوى، ولكن الناس يلتزمون العكس...

* * *

البطولة هي الجريمة؛ إذا كتب لها النجاح..

* * *

الرغبات؛ هي المصادر الطبيعية لموارد الشقاء البشري.

* * *

مما لا شك فيه أن الفضائل ليست مجرد زينة؛ ولكنها في الحقيقة أردية متقنة الصنع؛ تستر واقع الخليقة، وتحجب نزعاتها الأصلية؛ تماماً كوسائل التجميل بالنسبة للمرأة.

* * *

لم يبق في المرأة ما يثير الفضول، ومتعة الاكتشاف، ولذة التعقيب.. بعد سفورها...

* * *

صار جمال المرأة مجالاً للشك؛ منذ تقدمت وسائل الزينة، وتفصيل الملابس، وفن التصوير..

* * *

كل وسيلة من وسائل تجميل المرأة ليست أكثر من مغالطة سيئة العواقب؛ عن علاقتها بالرجل...

* * *

في كل امرأة تسرُّك امرأة أخرى تسوؤك..

وهذا ينطبق على الرجل بالنسبة للمرأة..

* * *

الذين جمّلوا المرأة بالوسائل الصناعية؛ لم يفقدوها سحر الأنوثة الطبيعي فقط؛ بل جعلوا منها صدمة لعواطف الرجل، وخياله..

ما كان أغنى المرأة عن المحاسن المصطنعة التي أضعفت فن الطبيعة في تجميلها، وتحبيبها..

* * *

أعقد عملية خداع في العالم؛ تلك التي يقوم بها دور الخطوبة بين رجل وامرأة؛ لأن المخدوع فيها يعتقد أنه الخادع...

* * *

مضاضة الحرمان من المرأة أخف وطأة من مضاضة الارتباط بها؛ حيث يتعذر الخلاص منها بلا كارثة..

* * *

المرأة للرجل غاية، وهو لها وسيلة لتحقيق مآربها المعقدة في الحياة.. لا أكثر...

نسبة

لا بد أن يكون هناك نسبة معقولة بين ما يقول الإنسان وما يفعل.

نعمة الجهل

ما الفرق بين أن تسير إلى الأمام أو الوراء، إذا كنت لا تعرف أين أنت!؟

* * *

عندما يتعلق الكاتب بظاهرة البيان، وشارات البلاغة، فالمعنى أنه في مأزق.

* * *

عندما يكون الواقع أقوى من أحلامنا، وقدراتنا؛ نضعف عن مقاومة ميل أفكارنا ومشاعرنا؛ إلى التشرد.

إن الشموع لا تضاء بين أيدي العراة والعميان.

* * *

لا بد أن يتعلم الكبار من الصغار ما نسوه عندما كانوا أطفالاً.

* * *

بعد الخمسين يحتاج الرجل إلى مزيد من الصبر والتغابي والمرونة؛ لكي يتفادى تهمة التخريف، أو الجنون.

* * *

لا مجال للكلام مع المجنون والعاشق والزعيم؛ عندما تتم له السيطرة على رجل الشارع.

* * *

تحتاج المرأة إلى تقرير الاعتراف بحريتها.. أما الحرية ذاتها.. فلا.. لأنها لم تفقد قط..

* * *

نظرة الفتاة إلى الرجل العجوز مجردة حتى من الرحمة.. ولكن للمال تأثيره في تدبير احتمال العلاقة في أقصر وقت ممكن.

* * *

ما لا تحققه الجهود والأحلام؛ قد يحققه الزمن.

* * *

عندما لا تكون بحاجة إلى الشيطان تجده دائماً كظلك.

* * *

عندما تناهز الستين لن تكون لك متعة غير التحديق في الفضاء.

* * *

لكي تدرك قدرة المرأة على التمثيل؛ تظاهر بأنك لا تعي مما يدور حولك شيئاً.. إنها ستنفر من ضغطة يدك، وتبيت في هدوء مع صديقك الذي يمدك بكل أخبارها.

* * *

الغباء والتغابي حكمة وقدرة خارقة على ضبط النفس.

* * *

من النادر أن ينقلب الرجل امرأة، والمرأة رجلاً.. ولكن من الشائع أن يمثل أحدهما دور الآخر.. كل دوره.. باستثناء أيسر مقدار من الفروق الجنسية..

* * *

تعجبني.. تدهشني.. تروعني.. تملأني إكباراً لك.. أما أن أحبك، وتمتلئ نفسي بذلك الخشوع الذليل؛ فلا..

وأما أن أسعد بأن أنسحق تحت قدميك.. فلا.. هذا هو الفرق بينك، وبين الإنسان الضعيف العادي الذي أحبه.

* * *

من الصعب جداً تحديد الفرق بين ما ينبغي أن يكون، وما يمكن أن يكون، وما هو كائن بالفعل.

قد يتضح الفرق لكل منا بين ثلاثتها؛ على نحو مختلف.. أما أن نتفق عليه؛ فهذا هو الصعب... ربما لأنها اصطلاحات ومعايير اعتبارية إذا

كنت لا تحمل نقوداً؛ فمن الخير أن تسكت عندما تسمع ما يؤذيك..

الوحدة هي دائماً أوسع مجال للثرثرة...

عندما لا تجد ما تنفقه يجب أن تختفي...

* * *

الحب والمال والزواج.. أقدم أسباب التعاسة في العالم.

* * *

الهدايا الثمينة المتلاحقة هي خير تعبير عن حبك للمرأة.

* * *

أن تملأ يديها بالمال خير من أن تملأ أذنيها بالقول.

أي مظهر من مظاهر الحياة في هذه الأمة؛ لا يزعزع الأمل في إمكان تقدمها؟

* * *

إن الطعام الذي ينهض بالصحيح يقعد بالمريض وبالعكس!!

* * *

إني أتقبل الكذبة أحياناً؛ لا لأني أجهل زورها.. ولكن لأتفادى هول الحقيقة المستترة فيها.. فإذا قال لي حبيب.. أنت وحدك من ملأ قلبي وشغله؛ وكنت حينئذ المحروم مما يناله مزاحمي السعيد؛ لم أقل.. أنت كاذب.. لأن هذا يحرمني حتى من الكلمة الطيبة، أو من العزاء.

* * *

الحياة مليئة بالدسائس؛ لا يسع العقل المجرد إلا أن يؤمن بهذا... ولكن الحياة ذاتها؛ أليست دسيسة كبرى على الأحياء!؟

إن للحياة غاية؛ لا يمكن أن أشك فيها.. ولكن ما معنى هذه الغاية بالنسبة للحي!؟ هذا معنى أن الحياة دسيسة كبرى.

* * *

أنا عميق الإيمان بالله، ولكني أفكر.

* * *

التشبث بالمثالية تهور، وليس شجاعة...

والإذعان للواقع حكمة، وليس ضعفاً..

هذا هو منطق الحياة اليوم...

* * *

المعركة الأبدية بين الرجل والمرأة غير متكافئة... ينتصر فيها الرجل باستمرار.. ولكنه الضحية دائماً..

* * *

ما أعمق احتياط الطبيعة!!

لم تجعل للوراثة قانوناً ثابتاً؛ لكي لا يضيع النسل.

اليأس ليس فقدان الرغبة في النضال، لكن فقدان الإيمان بجدواه..

* * *

السعادة كالمرأة..

كلما ازددت رغبة في امتلاكها؛ نأت عنك.

* * *

سرُّ تعاسة الإنسان أنه يطلب أكثر، ويعطي أقل.

* * *

ما الإبداع.. إذا كانت الصور التي يعطيها الفنان؛ هي الصور ذاتها التي تقدمها الحياة!؟

* * *

الآن فهمت أن الانسحاب من المعارك حكمة أكثر منه جبناً...

* * *

حتى الفتاة الدميمة تعتبر قبولها للرجل العجوز تضحية، وضرورة.

* * *

من أقسى الضرورات؛ أن تكون مضطراً لمداراة إنسان شرس الطباع.

* * *

انسَ الذين أحسنت إليهم، وأساؤوا إليك.. أما من أسأت إليهم وأحسنوا إليك؛ فلا تنسهم أبداً.

* * *

إذا لم تكن المرأة بحاجة إلى شبابك أو مالك أو حمايتك، فأنت عندها؛ شيء لا وجود له في نظرها.

* * *

إذا لم تكن مرجوّ النفع؛ لا تنتظر استقبالاً يسرّك.

* * *

عندما يبتسم لك رجل ذو شأن؛ يقبل عليك الجميع بحرارة وإعجاب، وبالعكس.

* * *

عندما تنتهي المرأة منك؛ لا تنتظر منها أن تشفق عليك.

* * *

أنت طيب الرائحة، ما دمت تدفع أكثر.

* * *

المرأة لا تحب إلا الشباب.. ولكنها تعتمد على من هم أكبر سناً وهذا سرُّ حذقها.

* * *

لم يعد الاستيلاء على امرأة تريدها مشكلة.. ادفع، وخذ، ولا حاجة بك إلى الدموع، ولا إلى أي نوع من متاعب الغزو ومعدّاته.. دع لها كل ذلك؛ متى حددت قدرتك على الدفع.

* * *

أصالة الخصائص والمزايا هي التي ترفع قيمة الخيول؛ أما الآدميون فمن السهل أن يكتسبوا الأصالة ومزاياها عن طريق المال.

* * *

معنى شرف المرأة من وجهة نظر الرجل؛ نقيضه من وجهة نظرها.. ومع هذا فهو اختلاف لا يؤبه له.

* * *

المرأة لا تعرف للشرف والعفة معنى عندما تحب.. إلا أنهما حكم جائر ضد حريتها...

* * *

لا تحتاج المرأة إلى كامل حريتها إلا في حالتين.. عندما تحب، وعندما تكره.

* * *

الخطأ الصغير غالباً؛ هو سبب الجريمة.

* * *

الرجل يحب بقلبه وخياله، أما المرأة فلا تحب إلا بجسدها، ومطامعها.

* * *

تبحث المرأة عن الحب لتتزوج، وعن الحب بعد أن تتزوج..!!

* * *

المرأة دائماً؛ لا تحب إلا ظواهر الرجل... ولكنها تتقرب إليه بمدح أخلاقه، ودخائله.

* * *

يضيق الرجل بالمرأة المستعصية؛ وبالمقياس نفسه الذي لا يطيق به المرأة المستسلمة.

السوق السوداء.. والتسعيرة

الداعون لمبدأ الاختلاط بين الجنسين؛ كالداعين لإلغاء التسعيرة كلاهما يريد تصفية السوق السوداء بجعلها حرة.

* * *

أغنى وأعرق نشاط بشري؛ هو العلاقة الحرة بين الرجل والمرأة ولذلك كان؛ وسيظل؛ أقوى من الشرائع، والقوانين في جميع أدوار صراعه ضدها.

* * *

الفضائل في المجتمعات اليوم مجرد شعارات تماماً؛ كبطاقات

التسعيرة. . كل نفعها أن تحدد لك الفرق بين الواجب والواقع؛ وهذه فائدة للمواطن على كل حال.

* * *

من الحكمة أن يتخلى الزوج عن وساوسه؛ إذا كان يهمه ألا يفقد أطفاله الصفة الشرعية.

* * *

الحب مؤامرة لا يستطاع كتمانها.

* * *

لا يضرم شوقك مثل الرغبات التي لا يسعك تحقيقها.

* * *

أرخص منح الحب الشرف. . ومع هذا فهو أغلاها.

لغة جديدة

كم هو مجرم من يحول بيني وبين حريتي بحجة حرصه على حمايتي من أخطارها وتبعاتها.

* * *

لكي يستعيد المجنون عقله؛ لا بد أن يهبط إلى مستوى العقلاء.

* * *

أشجع كثيراً ممن يقتل نفسه الرجل الذي يتزوج.

* * *

أرحم تفسير لمن يتزوج أنه يجهل الخطر.

مصدر الحكمة

لا تتوفر الحكمة للقدرة كما تتوفر للعجز.

* * *

يحدث كثيراً أن نجهل إنساناً بقدر ما نعرفه.

* * *

لكل منا طريقته في تحقيق العدالة.. حتى اللص.

* * *

كثيراً ما تجيء الأعمال الطيبة متأخرة بعض الوقت.

* * *

اللغة الجديدة

عندما تكون النية حسنة... فالعمل لا يهم، ولكنه غالباً ما يكون حسناً.

* * *

ما أقذر الشماتة عندما تتخذ مظهر الشفقة.

* * *

الحياة كميادين الحرب؛ لا اهتمام فيها بمن يسقط؛ وإنما بمن يبقى قبل انتهاء المعركة؛ دون إحصاء الخسائر.

* * *

العقل كإشارة المرور؛ يرشد ويحذر، وينبه، ولكنه لا يمنع الحوادث.

* * *

لو استغنى الإنسان بالموعظة عن التجربة لضاقت مجالات الرزق.

لو كانت السعادة تحب البيوت؛ لما امتلأت المقاهي والملاهي بروّادها.

* * *

ما أروع النذل عندما يلعب دور الرجل النبيل المهذب.. أمام ضحايا نذالته على الأخص؛ عندما يظنهم لا يعرفون.

* * *

حتى الشيطان يختفي عندما نكون بحاجة إليه!!

شهر العسل

بعد شهر العسل تنتهي حدة العاطفة.. وتبدأ حدة المزاج.

* * *

خارج المحكمة.. لا أنا ولا أنت المسؤولان عن أخطائنا.. بل الشيطان.

* * *

ربما كان من حق الشياطين أن تعتبر الإنسان مسؤولاً عن غوايتها..

* * *

قالت جنية لزوجها.. أنت إنسان في شكل شيطان.

* * *

الطفرة ليست محالاً

كل شيء يتطور بعد الزواج.. إلا النفقات فإنها تطفر.

* * *

ليس هناك من هو أحوج إلى السعادة؛ من الرجل المتزوج..

* * *

الفتاة التي لا ترحم لحية أبيها؛ لن يسلم شارب حبيبها من النجاسة.. المسألة مسألة وقت فقط..

* * *

لا يتورط الذكي إلا في ثلاثة.. الحب، والزواج، والنذالة، ويتخلص من الحب بالزواج، ومن الزواج بالطلاق ومن النذالة بالإمعان فيها.

* * *

ليس في الناس من هو أكثر إخلاصاً لطبيعته من النذل.

* * *

أعطوني الحرية؛ ثم طالبوني بتبعاتها..

* * *

لا حد لصور الشقاء البشري، ولكن فقدان الحرية هو أفظع هذه الصور...

* * *

إن أول من استعمل كلمتي «الصالح العام» بمعناهما المعروف؛ إما أن يكون «خيّراً» إلى حد الغفلة، أو مخادعاً إلى حد الإجرام؛ وهو في الحالتين

يجب أن يعد من عباقرة المخترعين؛ تماماً كالذين وضعوا أسماء الفضائل.

* * *

متى أغرم الإنسان بالتقصي، والكشف، والفحص، صار أكثر الناس تقديراً لنعمة الجهل والراحة..

* * *

إذا داخلك الشك في امرأة؛ حاول ألا تصطدم بالحقيقة؛ فعذاب الشك مهما عظم؛ دون هولها بكثير...

* * *

السعادة ليست من صنع الإدراك الواعي... ولكنها من عمل الشعور الخاطئ.

وعلى أي الحالين؛ فإنها مجرد اعتبار...

* * *

المرأة تطلب الزواج عن طريق العشق.. فإذا تزوجت طلبت العشق عن طريق الزواج... وليس هناك تناقض على ما يبدو... لأنّ الشيء مقلوباً هو الشيء غير مقلوب...

* * *

إننا أمام جيل جديد من النساء، يفهم أن الرجل منتج للثروة والمرأة مستهلك لها..

أمام الأعباء، والمتاعب، والتبعات بوجه عام؛ فهي من نصيبه وحده.. أليس هو الذي خطبها، وأمهرها من أول الأمر..!؟

* * *

معظم الحقائق مخيف، ومرعب... ولذلك كان الهرب من مواجهتها؛ طبيعياً جداً..

* * *

يبدو أن تحقيق العدالة الاجتماعية، متعذر لو أخذت آراء الناس فيها...

* * *

اللذة كالألم.. كلاهما وليد الانفعال والتوتر.. ولذلك كان كل ما لا يثير انفعالاً وتوتراً؛ مولداً للسأم.. حتى الجمال.

* * *

المنطق واقع الحياة

ما المثل العليا غير أهداف؛ تنشئ لذة للمنفعلين بها، وإن كان في منطق الحياة لا تتحقق على نحو ثابت... أقصد بمنطق الحياة... واقعها...

* * *

تغير معنى الكفاف في البلاد المتقدمة... فلم يعد من حق الإنسان أن يعيش... بل أن يحيا، ويدخر، ويقتني، ويستمتع بكل منتجات الحضارة.. على نحو مُرضٍ...

فطبيعي إذاً؛ أن يتسع نطاق الصراع بين الأفراد والجماعات، وأن تتغير معاني المبادئ، والمثل العليا، والقيم الأخلاقية؛ فهذا منطق المعركة، والحاجة البشرية...

حقٌ طبيعيٌ للبَشَر

لماذا لا يكون للمحرومين أن يتذمروا!؟

إن التعبير عن الألم حق طبيعي للبشر؛ كالتعبير عن المسرة والرضا...

* * *

من دعوات البدو:

جعل الله ولدك من ظهرك..

وهي دعوة تدل على دقة الفطنة لحرج مركز الرجل تجاه زوجته إذا قدِّر له أن يتلقى أبناءها؛ باعتبارهم أبناءه.

* * *

ليس هناك فرق بين أن تكون الغالب، أو المغلوب.. إذا ناضلتك امرأة؛ فأنت الخاسر وحدك في الحالتين..

* * *

عشت مخلصاً، هادياً للذين أحبهم، وللذين يحبونني على السواء؛ وما زلت أوثر الهواية على الاحتراف؛ لأني لم أستطع أن أتغير.

* * *

لا ينسى الطائر السجين الطيران، مهما طال سجنه، ولكن الإنسان ينسى الحرية تماماً بطول الاستعباد...

هذا أغرب فارق بينهما...

* * *

أصبح مما لا يطاق أن تعيش في بلد ليس فيه نساء سافرات.. هذا

عندنا أما عند غيرنا؛ فالذي لا يطاق أن تعيش في بلد فيه نساء عاريات إن الفرق بسيط على كل حال...

* * *

إذا كان تحقيق العدالة الاجتماعية غير ممكن؛ فالرحمة ممكنة؛ ولكن الصعوبة أن الرحمة وليدة الحياء...

* * *

المتاعب، والأحزان البشرية؛ هما التفسير الطبيعي؛ لوجود الفكرة عن المثل العليا... حلماً كانت أو حقيقة...

* * *

كيف لا تتعلم وتتحرر المرأة في بلاد تسعى إلى رغبتها في التقدم... إنه عناد غير مفهوم...

* * *

عندما يكتسحك شعور بالحاجة إلى المرأة؛ يغدو كل شيء فيها ومنها جميلاً، وعذباً... وبالعكس...

* * *

لا ثمرة للحضارة إلاّ ازدياد مطالب الإنسان، وتكاليفه وهذا يتطلب مالاً كثيراً؛ فتزيد كمية المشقة والكدح.. ولذلك لم يعد محتملاً أن تظل المرأة بلا عمل، فتحررها ضرورة اقتصادية أكثر من كونها مبدأ عقلياً، أو خلقياً... والشعوب التي تقف متصلبة أمام هذه الضرورة؛ ستذعن في النهاية لها.. لأن عوامل الحياة أقوى من المبادئ والنظم.. وإن كانت هذه أفضل...

* * *

الموجودات لا تفنى، ولكنها تندثر، وتتحول صورها، أو تحتجب.. هذا معنى أن وراء الموت بقاء لا يحس للعالم الحي... فلماذا يؤمن العلم بأن المادة تندثر، ولا تفنى ولا يؤمن بحياة أخرى؛ لمجرد أنها لا تحس.

أين يذهب الأحياء!؟

ما غاية الحياة من إطراد سيرها... وتطورها؟!

ما هدف نظمها، وقوانينها؟!

أهو هذا التركيب والتحليل للمادة لا غير؟!

إن لكل تدبير منظم غاية...

لغز لم يحلّه العلم... وحلّته السماء إجمالاً في وحي رسالتها؛ حلاً يسايره العقل، وتؤيده خوالج الشعور والوجدان..

❊ ❊ ❊

إن العالم الآخر حق لا شك فيه... وأنف العلم راغم...

❊ ❊ ❊

الذين يظنون الحظ وحده؛ دعامة النجاح مخطئون؛ لأنه سببه أيضاً...

❊ ❊ ❊

الحرية الفكرية دليل الحياة...

❊ ❊ ❊

إذا كان الاغتصاب سنة الحياة، وقانونها الأبدي... فالشرائع تنظيم للمعركة، ومحاولة رشيدة لتهذيب الصراع وتقنينه...

❊ ❊ ❊

الوطن عبارة عن مصلحة، أو ضرورة، وفي بعض الأحيان تعليم يفرض كي ينشئ الشعور بها.

* * *

لا يمكن أن تنجح أمة إلا بأخلاقها وتقاليدها النابعين من تاريخها وخصوصاً في هذا العصر.

* * *

إن فساد الأخلاق نتيجة لفساد الأنظمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية؛ أكثر مما هو نتيجة لانحلال الغرائز...

* * *

لن يكون الذكاء ضابطاً للشهوات، ولكن محرضاً لها، وقلّ أن ينتصر العقل عليها...

أما الضابط الحقيقي لها فالضرورة، أو المصلحة... وقد يجمعهما الإيمان... والإيمان تربية، واعتياد...

* * *

الطب يصنع البكارة الآن، ويزيل أثر الحمل... ولكنه لا يحسم الشك، ولا يمنع الخلاف.

* * *

المال هو الكاهن الذي يبارك الحب...

* * *

الزوجية كالطعام المسلوق... مهما كان مفيداً فإنه غير لذيذ...

الأرِتسْت والزَّوجة

لو كانت حرارة الأرتيست للزوجة، وطهارة الزوجة للأرتيست لتغير قانون التناقض بدوره... ولكن لا.. لا..

إن المطلوب هو أن تجتمع في امرأة الطهارة، والحرارة

الأرتيست والزوجة... وهذه هي المشكلة...

* * *

الإنسان يعيش بالحقيقة، ولكنه يحيا بالوهم... معنى هذا أن سير الحياة يطّرد بقوانين الواقع، ولكن خطوها يسمو ويتسق بالخيال...

* * *

الحقيقة والواقع مادة الحياة لمن يعيش...

أما الخيال والوهم؛ فمعناها عند من يحيا...

* * *

يوزن الإنسان في واقع بما نال، وحقق من أهداف عيشه، لا بما ابتغى وسعى إلى تحقيقه، وهام به من مثل.. وهذا قانون يستوي عنده الصاعد والنازل، ولا خلاف في القيم؛ إلا بفروق الوزن والكيل والزرع.

ويفضل إنسان إنساناً في ميزان الواقع؛ لا بما لكل منهما من مزايا الخير والفضل والنيات الطيبة والمساعي النبيلة؛ بل بما بينها من فروق القدرة المادية وحدها، أو بسماتها ومظاهرها عندما تخفي أو تدق هذه الفروق.. هذا خطأ محض، ولكنه قانون الاصطلاح..

* * *

ما من شيء قتل وهدم أشرف وأعظم ما في النفوس النبيلة... كالخيبة.

* * *

شح الجمال بنوافله؛ كشح الثراء بفواضله، كلاهما يحول الانكسار في نفس المحروم إلى حقد عميق...

* * *

يظهر أن ما صار إليه الغرب سيصير إليه الشرق... سيظل الفارق كله متمثلاً في المظاهر التي يوحيها اختلاف الجو.

* * *

سواء أكنت مطمئناً إلى المرأة، أو شاكاً فيها؛ فأنت لا تستطيع أن تتقي شرها.

عندما تحتقر إنساناً بقدر ما تحبه؛ فهي غلطته... وعندما تحب إنساناً تحتقره؛ فهي غلطتك...

* * *

لا بد لأحد العاشقين أن يفيق قبل الآخر.. من يسبق؟! ومتى؟! هذا هو ما لا يسعنا تحديده.

* * *

إذا كانت في عمرك بقية؛ فالشفاء مضمون.

* * *

عندما يفشل الطبيب؛ فتكون المرجعية على القدر.

* * *

إذا ركبك عفريت، أو ارتبطت بك امرأة، كان الحكم على مصيرك مجرد تكهن. .

* * *

تدور الفراشة حول النور حتى تحترق. . . ويدور الرجل حول المرأة حتى تمسك به. . .

* * *

المرأة كالصياد الماهر؛ تتعامى عن الفريسة، ولا تضرب إلا في اللحظة المناسبة.

* * *

حتى العفريت الذي يركب المرأة يتعذر عليه الخلاص منها وفيه رمق.

* * *

يحدث أحياناً أن يفلت رجل من امرأة. . . ولكن بعد أن يكون قد لحق به العطب. . .

* * *

المعجزة الإلهية هي التي تسوق إليك زوجاً لبنتك.

* * *

حتى الحب العفيف يتهرب من الزواج.

* * *

ليس الزواج عملية اختيار. . . إنه قدر.

* * *

حارس الطعام لا يمكن أن يظل جائعاً أكثر مما يحتمل.

* * *

إن الذي لا يخاف من السقوط، هو الذي يسقط فعلاً.

* * *

إذا أصرت امرأتك على طلب الطلاق؛ فأنت المسؤول عن هذه الغلطة حتى النهاية.. أقصد حتى بعد أن يتزوجها أربعة رجال غيرك.

* * *

عندما لا ينجح الزوجان في حل مشكلاتهما؛ يتولى الشيطان حلها بالتعاون مع كل منهما ضد الآخر.

* * *

إن كل شيء يتحطم؛ إذا لم يبق في حياتنا ما نتطلع إليه.

* * *

كل الأشياء سواء؛ إذا لم يكن هناك ما هو أفضل.

* * *

لا تفاضل بين المقدمات إذا كانت النتائج لا تهمك.

* * *

لا يشغلك اختيار الرفيق؛ إذا كانت الرحلة إلى جهنم.

* * *

لا قيمة للعملة التي تحملها؛ إذا لم يكن هناك شيء تشتريه.

* * *

أحياناً يكون الزواج خيراً من الانتحار، ولكنها مسألة لا يمكن فهمها من البداية...

* * *

لا شيء على ما يرام؛ إذا لم تدخل السجن. . . أو تتزوج.

* * *

إن من الخير أن تيأس عندما يكون التدخل باهظ الثمن.

* * *

الحياة عبارة عن عملية احتراق، حتى في حالة السكون.

* * *

طريق البقاء، هو طريق الفناء.

مَن أنا؟!

عندما سألتني «البلاد». . من أنت؟! ذهلت. . لأني لم أجد في حياتي كلها، ما يعينني على أن أعرف من أنا؟!

نعم، وبمزيد من المرارة، والخجل والحيرة والضياع. . من أنا؟!

صِدْق المشاركة

في ٩٨٪ من الحالات؛ يتحتم عليك أن تبكي بحرقة لكي يفهم أهل البيت أنك تشاركهم في حزنهم؛ مشاركة حقيقية. .

* * *

اتقاء الشُبهات

من الصعب أن تثبت براءتك عندما تكون بجانبك امرأة تصرخ.

الرُّضوخ للواقع

لا بد أن تتقبل الهزيمة في هدوء وإذعان؛ عندما لا يبقى هناك من يفهمك.

القدَر والإنسان

القدر هو الذي يلزمك بالسير في طريق تكره السير فيه، لتلتقي بغايتك.. على عكس ما تتوقع...

وفي الطريق التي تختارها؛ لكي لا تلتقي بهذه الغاية..

الكاتب، والقُراء

من الحقائق المحزنة؛ أن حاجة الكاتب إلى قراء؛ أكثر من حاجة القراء إلى كاتب...

ولا يبدو أن هناك أملاً في أن يتغير وضع هذه العلاقة في بلادنا.

روح الجماهير

يفرض على الكاتب أن يستعمل الطريقة التي تخاطب بها العفاريت، وتستحضر الأرواح.. لا الطريقة، ولا استحضار الأرواح والعفاريت، مما يستغل بها الكاتب غفلة القارئ.

ولكن حب الاستسلام للأوهام؛ من غرائز الجماعة، أو مما تستثار به كوامنها الدفينة.

هذا عندما يسع الكاتب أن يقول شيئاً مفهوماً، وعلى درجة من

الوضوح والحدة تحرك عواطف الجماهير، أو تثير حماسهم.

الكاتب.. كم هو مسكين؛ عندما لا تكون طريقه معبدة.. أقصد عندما يضعه ذكاؤه في مستوى أقل، أو أكثر من مستوى قرائه..

نفسية الجماهير

الجماهير من الوجهة النفسية، والعاطفية، والعقلية أيضاً، كالأطفال في حب عناصر الإثارة، والتغيير، والانفعال بمظاهر البطولة، والانتصار، والارتقاء بها بحماس، وفي فقدان القدرة على تمييز المعقول، واللامعقول، والممكن والمتعذر هذا صحيح، وعلى الأقل من ناحية علاقة جماهير القراء بالكاتب.

خطيئة الكاتب

القراء لا يطيقون المداورة، ولا يفهمونها إلا على أنها خطيئة الكاتب.. هذا لأنهم يجهلون أن القلم شيء، والهراوة شيء آخر..

أزمة التعبير

كثيراً ما يكون دوران الكاتب حول نقطة موضوعية ناشئاً عن شعوره بأزمة التعبير..

إني؛ ككاتب قديم، لا أجد في أكثر الأحيان الكلمات التي تعبر تعبيراً مباشراً، أو جلياً؛ عما أريد الإفضاء به... الكلمات التي تحمل التأثير، وتنقله... هذا ما نسميه بأزمة التعبير.

غرض الإبهام

عندما يبدو أن الكاتب يهرب من الوضوح؛ فهو يعطينا جرعة أكبر من التنبيه، والالتفات، واليقظة، وحدة الشعور بأغراضه..

ولكن ما هو مستوى العلاقة الذهنية بين الكاتب وقرائه أولاً؟!

إنه السؤال الذي يتضمن جوابه، وبالطريقة ذاتها..

الثبات والحركة

ليس هنا تقدم، ولا تأخر؛ بالنسبة إلى من لا يتحرك أحياناً يكون هناك اختلاف، أو تغيير... ولكنهما ليسا تقدماً، ولا تأخراً على أية حال.

متى تغرق الأسرة

عندما يكبر الصغار؛ تتأثر ظروف السكينة في الأسرة، باختلاف مستويات الفهم.. وعندما يصغر الكبار؛ فليس للأسرة أن تنتظر شيئاً.. سوى الغرق..

الحرية اختيار

إذا كان لكل رأيه في الحرية؛ فلكل طريقه إليها.. لا يلزمنا اتفاقنا على الغاية بالاتفاق على الوسيلة إليها... إن هذا لا يحدث إلا نادراً... وعندما يكون الوفاق التام ضرورياً لا يعبأ بتضحية الرأي، أو الاعتقاد.

قيمة العجوز

عندما يعجز رب الأسرة عن تحقيق رغباتها يكون موته أفضل.

إنكار الذات

لكي يحتفظ الأب العجوز بحب أسرته؛ يجب أن يضع ذاته وإمكانياته تحت تصرف الجميع؛ لا يستثني أحداً.. غير نفسه.

العجوز واللعبة

ليس للعجوز ـ إذا خالط الصغار ـ أن يستنكف من أن يتحول إلى لعبة.

الوقار والحرية

لك أن تحتفظ بوقارك بين الصغار، ولهم أن يحتفظوا بحريتهم... والمسألة بهذا؛ ليست بأكثر من اختلاف في الفهم..

الحِمَار والحرية

أي حمار هذا الذي ينهق، ولا يرفس... ينهق لكي تصدر تأثراته بطريقته... ويرفس لكي يحمي مصالحه.

* * *

صورة الكبير تصغر كلما قل نفعه للآخرين.

تأثير الصمت

أكثر الناس كلاماً؛ الذين لا يقولون شيئاً.

لا علاقة للأمل بالماضي، ولا بالحاضر.. إنما يتعلق بالمستقبل..

فكيف لا يستطيع الإنسان أن يعيش سعيداً إلا به!!

إن مصدر الشقاء والقلق، هو الأمل..!

* * *

كل الأشياء تبدو صغيرة عن بعد، وتكبر كلما دنونا منها... إلا الرجال الكبار.

* * *

يبدو كثيراً أن الناجحين يكتسبون الصفات التي تستوجب التقدير زوراً لأنهم محرومون منها...

كما أن المتخلفين يمتلكون صفات بطولية، ولكنها محرومة من الاعتراف بها.

* * *

إنني أفضل أحياناً من الحقائق في واقع الحياة والناس مالا أُؤمن بصحته، وصدقه إطلاقاً.

* * *

كل فضيلة من الفضائل أشبه بعانس فاتها وقت الزواج... فإما أن تقضي حياتها منسية في حرمان... وإما أن تخرج على قانون العفاف...

* * *

هذه الموجات البشرية المنساقة إلى بلادنا، وفي شكل هجرة دينية ستمحو المعارف الأصيلة لابن البلد الحقيقي... وحينئذ تموت الفكرة والوطن، وتموت دواعي الصراع النبيل...

* * *

ما الأمة التي تكونها عناصر غير متجانسة؟! إنها قطيع خليط من سوء الرأي أحياناً. . . ألا تبتسم، وإن كان قلبك يتقد ناراً. . .

لا معدى لنا عن الاعتراف بأن ما ندعوه سوء الطالع، وحسنه؛ تعبير عن مصائرنا. . .

لقد تزوجت ثلاث نساء على التعاقب، وأنا الآن أعزب. . . وولد لي من إحداهن أربع بنات باطراد، وبنت من الأخرى وبقيت وحدي المسؤول عن خمس بنات محرومات من الأمومة.

أليس في حاجة إلى تفسير؟! إن حسن الطالع أو سوءه هو التفسير. .

* * *

الحب إشكال لا يحله إلا الزواج، والزواج إشكال لا يحله إلا الموت أو الطلاق. . . والخيانة في كليهما حل وسط، أو هي إشكال ولكن من الممكن أن يعيش أي إشكال مدة أطول. . . وهنا فقط؛ تتفاضل وجهات النظر حسب الظروف. . . أليس كذلك؟!

* * *

إذا كان جارك ذكياً، وجب أن تكون دائماً على حذر. .

* * *

إذا كنت على وفاق تام مع ضميرك فأنت إما قديس أو شيطان.

* * *

أحدكما المسؤول عن خيانة زوجتك. . الشيطان أو أنت. . وليست هي على كل حال. . . !

* * *

يظهر أن الشياطين قد اعتزلت العمل من عهد بعيد.. ولكن كل شيء يسير في مجراه بحكم العادة.

* * *

إن الشعر لا يصور لنا الجمال والقبح، ولكن يصور لنا الإحساس بهما في غمرة انفعاله مدّاً وجزراً..

* * *

إن المستحيل يتحقق أحياناً... فلماذا نيأس؟!

* * *

إننا نستغني بالحب عن الطبيعة، ولكننا لا نستغني بالطبيعة عن الحب.

* * *

إني أشعر بقيمة الفضيلة والخير الواجب... ولكن الذي يحيرني أن الآخرين لا يشعرون شعوري، فهل يتحتم عليّ أن أبقى مقيداً مكبوحاً، في سباق ينطلق فيه الناس حولي؟!

هبني استطعت أن أستمر على العيش بينهم.. أليس معنى هذا أني أعيش منفرداً في وحشة؟!

* * *

لا يعيب الحب أو يرخصه؛ كونه لا يدوم... أي شيء في الحياة يستقر على كرة الزمن.؟!

* * *

لا تتزوج متعلمة؛ إذا كنت جاهلاً، ولا جاهلة إذا كنت متعلماً.. فإن

الحب وحده لا يصلح أساساً لعشرة يفرض لها البقاء الطويل؛ ولكن القرابة الفكرية بين الزوجين أمتن أساساً.

ألسنا نهرب من الحب إلى الصداقة؟!

* * *

سمعت أحدهما يقول: إنها تحبني وتخلص لي... ما في ذلك ريب... ولكنها لا تقدم غذاء لفكري وإحساسي بالحياة.. فالعيش معها ـ كزوجة ـ لا يكون إلا محدوداً كعيش البهائم... والحب وحده لا يستطيع أن ينهض بأعباء الدوام لعشرتنا.

وقال الآخر: هناك من تلهب فكرك وإحساسك، ولكنها تهب قلبها غيرك، فهي صالحة لأن تكون صديقة أو حبيبة؛ كل شيء إلا الزوجة المخلصة الأمينة.. فهل يكفيك هذا لدوام العشرة..؟!

وزفر الأول زفرة كانت صك اعترافه بحيرته، وقال:

ألا ليت الزواج لم يكن ضرورياً..!!

* * *

ليس في الدنيا تجارة يكثر فيها التغابن كالزواج!!

* * *

ما تم من الاكتشافات العلمية صدفة؛ أعظم مما تم بالتتبع والأمر في العثور على زوجة تسعدك لا بد أن يكون كذلك...

* * *

إن الزوجة الكاملة لا تقلّ قيمة عن اكتشاف علمي عظيم.. فإذا جاء يوم تغدو فيه الحياة سخية بالاكتشافات العلمية العظمى؛ فإنه لن يأتي اليوم

الذي تغدو فيه سخية بالزوجات الكاملات... لأن هذه سعادة لا يستحقها نقصنا البشري في ما يظهر.

* * *

تتقدم قابليتنا للتسامح بتقدمنا في السن.. لا لأن التسامح مظهر فتورنا الحيوي، ولكن لأننا غدونا أكثر فهماً للحياة ونقائصها المضروبة عليها... ولكن حتى هذه الحقيقة البسيطة الواضحة تحتاج إلى قابلية خاصة لفهمها، لا يهيئها لنا سن الشباب.

* * *

في اللغة كلمات فقدت حرية الحركة في غير مناسباتها التي لا تتغير.. فكلنا يعرف القدر، ويؤمن به، ويسميه «المكتوب» فكلمة «المكتوب» هذه تعيش في الجو الذي تشيع فيه النقائص الخلقية.

وكلمة «النصيب» تتردد حيث يدور حديث عن الزواج مع أن المكتوب والنصيب والمقدر كلمات تترادف معانيها تقريباً..

* * *

كنت أنفر من الزواج، وأهابه؛ فلما تزوجت كرهته، ولكني راغب في أن أتزوج مرة أخرى، أو أكثر؛ لأكتشف الزوجة التي تطابق رغائبي الفكرية والنفسية.

* * *

ليس الكتاب الجيد هو الذي يسرّنا.. ولكنه الكتاب الذي يروقنا؛ وكما أننا لا نعرف ما يروقنا إلا بالاختيار والممارسة، أو بالصدفة؛ فإننا يستحيل أن نظفر بالزوجة الهانئة في بلاد تخطب فيها المرأة للرجل دون أن يراها، أو في بلاد يخطب فيها الرجل قبل أن يعاشر.

* * *

يخلع الناس على حبهم لأطفالهم ثياباً ضافية من التهويل والمبالغة. إن الذي أعتقده أن حبنا لأولادنا لا ينبثق من قلوبنا بمجرد وجودهم بيننا؛ ولكنه يتكون ببطء كتكوينهم، وينمو، ويتأصل كلما اكتسب من عادات حياتنا بفهم ودوام رعايتنا لهم ـ أسباباً جديدة للنمو والتأصل، ومعقول أن يصبح حبنا إياهم شاغلاً قوياً بعد ذلك؛ لشعورنا بالحاجة إليهم كجزء متمم لحياتنا، وفي بعض الأحيان كضوء ينير جوانبها المظلمة.

* * *

أصبحت أعتقد أن للزواج ـ كالزمن كرّة على الفكر والنفس تفعل الأعاجيب... فكرّة الزمن كفيلة بأن تنسينا أعظم أرزائنا... وأن تجعلنا نألف ما كنا ننفر منه.

بعض الحلول يرفض بإصرار؛ على أنه أسوأ الحلول؛ في وقت وقد يقبل بعد قليل؛ على أنه الحل الممكن، أو أنه الحل المعقول وأظن أن كرّة الزواج - وإن كانت هي كرة الزمن على نفسه - أقدر على تطويع الفكر لهضم الصعاب، والاستعداد للتسامح.

* * *

المطالب التي تتحقق كاملة؛ تكاد تندر في حياة الأمم والأفراد؛ وهذا علته أن الصراع في الحياة لا ينتهي...

* * *

بعض الناس يكون أكثر احتمالاً للمشاق؛ لا لأنهم أقوى؛ بل لأنهم أقل شعوراً بالألم...

قد يكون احتمال المشاق دليل البلادة..

أي إنسان لا ينقلب إباحياً، شريراً؛ عندما تتحطم كل مجهوداته

الشريفة في سبيل العيش والنجاح؟! إن الصبر على مثل هذا الصراع القاتل؛ لا تطيقه إلا قوى الأنبياء فقط... حتى الأنبياء... ألم يكن متوقعاً أن يملوا الكفاح، لو لم يكونوا واثقين من النتائج..

* * *

كيف أبقى فاضلاً إذا استحال أن أنتفع في حياتي بأية محاولة شريفة؟

* * *

أعذب أيام الإنسان تلك التي يكون فيها محدود المطالب..!

* * *

أي رجل لا ينقلب طفلاً.. على الأقل في باطن نفسه.. عندما يعشق..؟

* * *

كم نرثي لفهم الآخرين إذا لم يشاطرونا الإعجاب بجمال نهواه..!!

* * *

إن كل القلوب البشرية لا تتمتع بقابلية الحب.. هناك قلوب لا يهزها هذا الشعور.. ولكنها تعرف الصناعة، وتمارسها وربما بحذق أكثر..

* * *

الحب - في الغالب - تمثيلي.. وأعتقد أن المرأة عندما تمثل الحب تكون طبيعية أكثر.. لأن التمثيل هو صناعتها الفطرية.

* * *

في وسعي أن أتقبل الأوهام، وأن أعيش بها.. ولكن لا على أنها حقائق..

* * *

تستطيع أن تحتقر المرأة، وأن تنبذها، وأن تبغضها. . ولكنك لا تستطيع أن تنساها. . فهي أبداً، تسمم حياتك بعيدة، وقريبة. . وحبيبة، وبغيضة. .

* * *

عندما أرى المرأة. . يقول عقلي: أشد ما يخيفني هذا البناء الموهوم.

* * *

كم هو شريف أن تخلو الحياة من الأوهام، والنفاق، والكذب! ولكن. . ألن تصبح قبيحة، مريرة؛ إذا غدت هكذا؟!

إننا نقضي على سعادتنا عندما تطرد آخر الأوهام من نفوسنا. .

* * *

قال والدها عندما كان يتوقع طلاقها. . إنها تكرهه، وتؤثر الموت على أن تكون له. . وأقسم. . ولكن الزوج لم يصدق، وقال عندما تصافيا. . إنها تحبه حباً يندر مثله. . وأقسم ولكن الزوج لم يصدق. .

لقد غدت المسألة في عينه نفاقاً عارياً، وعرف أنه لا يستطيع عشرتها إلا على أنها كذبة أبيها، ورمز نفاقه، وإلا على أنها الباطل الذي يكرهه.

مسكينة. .!! لقد لفظت آخر أنفاس ضعفها الذي كانت تعيش به في نفسه؛ بوهم أنها ضعف مفروض على قوته. . أترى والدها يفهم أنه المجرم الذي أجهز عليها؟!

* * *

الرجل عند المرأة رمز القوة التي تحقق أغراضها؛ فإذا لم تكنه، جعلته ستار الشرف الذي تلعب وراءه لعبة سقوطها.

* * *

التلاعب بالألفاظ قديم.. وإلا فما الفرق بين الجشع والطموح.. والتهور والشجاعة؟!

يتفاوت نصيب الناس من الشقاء والسعادة؛ بتفاوت نصيبهم من عمق الإحساس، وسطحيته.

* * *

الذين لا يعللون، ولا يتعمقون؛ هم الذين يضمن لهم النجاح؛ قانون الواقع.

* * *

لن أفخر بشرفي إلا في حال نُجحي.. أليس ادعاء الشرف عزاء من أخطأ النجاح؟! ولكن.. ما هو النجاح؟!

* * *

إذا لم تخش القوي؛ قالوا إنك متهور.. وأنا أخشى الضعيف فهل أنا جبان؟ يا ليت شعري.. ما هي الشجاعة؟!

* * *

سبب إيماني بالحظ أني أراه في نجاحي..

* * *

عرفت ما ينبغي أن أصنع لأكون ناجحاً.. ولكني فقدت القدرة على العمل.. إنه عبء السنين؛ وأعباء المثالية، وهذا غير غريب.. الغريب أني غير آسف..!!

* * *

إن حياتي سلسلة طويلة من الاستشهاد.. أفكاري، رغباتي، ميولي،

أهوائي.. هي أنا.. ومن هنا يسهل أن تتصور أي إنسان تعس. هذا الذي مات بعدد الذي مات له من أفكار، ورغبات وميول، وأهواء..

* * *

إن العيش بالنسبة إلى من استكمل وعيه؛ محنة تستوجب الرثاء.

* * *

لقد استغنى العالم المتمدن عن الحسن الطبيعي؛ بالجمال المصنوع ليتكافأ العرض والطلب.. وهذا تدبير صحيح؛ سينتهي بالحب إلى أن يكون في جملة المضحكات.. أليس الجمال؛ وهو سعادة الحب؛ قد أصبح صناعة مضحكة..؟!

إن الحب في بلد ما يزال نصيبه من المدنية ضئيلاً - كالقاهرة مثلاً - أشبه بلعبة «الثلاث ورقات» لا يؤخذ بها إلا الساذج الغرير.. ترى، ما الأمر في لندن، وباريس، ونيويورك؟!

* * *

التشييخ رزية عندما يكون شباب إنسان أهدر شبابه.. في شبابي عشت شيخاً، وفي شيخوختي تشبثت بعيش الشباب فأضعت شطري عمري هباء..!

* * *

ظللت أدور كالسجين في نطاق العقل والأخلاق والواجب عندما كنت شاباً؛ ففقدت نشاطي، واكتهلت؛ فمضيت أجري وراء ما فاتني من أحلام الشباب فسقطت إعياء...

* * *

العلم هو الجهل الذي فرضته السماء على العارف؛ ليشقى..

والجهل هو العلم الذي ضنت به على الجاهل؛ ليسعد..

أليس هذا صحيحاً.؟!

* * *

الحياة معركة.!

والقسوة هي سلاح الذود عن النفس، وتحقيق الرغبات.. هذا بلا رياء هو الواقع في منطق هذه المعركة.

التاريخ هو مجموعة الأكاذيب، والمبالغات التي اصطلح الناس على تصديقها، وتقديسها، والاحتكام إليها..

* * *

كلما قل نصيبك من الإحساس؛ وجدت الحياة ممتعة..

* * *

لا يصبر المحروم إلا لأنه يخشى قسوة القانون.

* * *

ما دام الموت هو المصير؛ فالحياة مهزلة.. أسخف ما فيها الأمل والطموح.

* * *

التردد من مظاهر الرحمة، وهو ضعف تصاب به الشخصية؛ إن عقلي يتداعى أمام هذا القانون.

* * *

العبودية نتيجة الضعف، والجهل سبب الضعف.. والحرية نتيجة القوة، والعلم سبب القوة.

* * *

قبل أن تختار شيئاً؛ يجب أن تطيل التفكير.. أما بعد اختياره.. فلا..

* * *

إن الإنسان ليس وحشاً خالصاً؛ كما أنه ليس على بُعد ثابت من الوحش.. أحياناً يدنو إليه أكثر، وأحياناً يبتعد عنه أكثر.

* * *

حتى الوحوش تحمل ذخيرة من الوداعة واللين أمام بعض الظروف.

سهل جداً أن ينقلب القديس شيطاناً.. أما أن يتحول الشيطان إلى قديس؛ فأمر بالغ التعقيد والصعوبة..

* * *

بماذا تفسر من تضحكه نكتتك قبل أن يسمعها؟.

* * *

الحق والعدالة والمصلحة العامة؛ أسماء مستعارة لأضدادها.. الباطل الظلم.. الأنانية..

* * *

إن لكل رذيلة اسماً مستعاراً هو اسم الفضيلة التي تقابلها.

* * *

ممارسة التهرب مما لا يستطاع مواجهته من أقدم وأثبت ممارسات الإنسان.

* * *

ما أبعد المسافة بين رأس الإنسان، وقدميه.. وفي الوقت نفسه ما أقصرها..

* * *

ما أكثر صغائر الحياة، وما أكثر التفاهات فيها.. لأنها نسيج الحياة!!

* * *

ما تعدّه كبيراً وعظيماً فيها؛ ليس أخيراً؛ إلا مجموعة لا حد لها من الصغائر والتفاهات.

* * *

إنسان لا يطاق؛ الكاتب الذي لا يضحك قراءه على الدوام، وكذلك رب الأسرة باختصار، وللسبب ذاته.

* * *

أحزان الناس، ومتاعبهم؛ أمراض تتطلب العلاج؛ وليست عيوباً أو رذائل تتطلب الوعظ والإرشاد.

* * *

ضحكات الجمهور في المسرح اعترافات على المذبح أمام كاهن؛ ولكن بالعكس.. أي أن الكاهن هو الجمهور والممثل هو المعترف بالخطيئة ممثلاً للجمهور..

* * *

إن الدنيا خارج دائرة أحلامنا ليست أقل ولا أكثر من أنها معارك نضال لا تنتهي.

إن الجندي الذي يدعى إلى خطوط القتال يعرف مسألة الحياة والموت.. شيء لا يجب أن يناقش.. وكذلك ما دونها من المشقات.. هكذا بالضبط: الإنسان خارج نطاق الجندية، وخطوط القتال.. وستكون المتناقضات والمفاجآت، وكل ما هو غير متوقع هي نسيج الحياة..

* * *

إن كل حمل يثقل على الإنسان يمكن أن يلقيه، وينطلق بعيداً عنه؛ ولكن أين حساب المسؤوليات التي يختلف بها الإنسان عن الحيوان..؟!

* * *

الإنسان المتسامح هو الذي يغفر جميع الخطايا لنفسه.

* * *

الكلام مفهوم.. لكن ما الغاية منه؟ وما جدوى هذه الغاية؟!

* * *

ما نحسبه من إرادتنا ورغبتنا، واختيارنا؛ ليس سوى شيء مفروض علينا من خارج نفوسنا والظروف.. أو من داخلها.. التكوين والدوافع اللاإرادية.. جذوراً متوارية عن عيوننا.

مسألة تافهة؛ أن يكون لك شارب..

وجهة نظر سطحية.. أن يكون لك عمل يشغلك: أمر لا يمكن أن يكون تافهاً عند من يعرفون الحقيقة..

* * *

إذا خطر لك أنك أنت المربي لأولادك؛ فأنت خيالي إلى حد البلاهة؛ وإذا اكتشفت أنهم هم الذين يربونك؛ فأنت واقعي أكثر من الشيطان.

* * *

كم أسرة تعتقد في أولادها الخير، وسلامة السلوك، لا أحد يدري من أين تجيء هذه الجيوش الجرارة من الأولاد الفاسدين المنحلين ولا من أين تهب كل هذه الروائح الكريهة.

* * *

مسألة الحب والكراهية لا تهم؛ ما دام كل منا يؤدي واجباته ومسؤولياته بصدق وضمير.

* * *

أكثر الأشياء التي يمكن استعارتها الشعور المستعارة، الشوارب، اللحى، الأهداب، الحواجب.. وأحياناً بعض أجزاء الجسم، ولكن هناك ما لا يستعار، ولا تستعار له الوسائل.

* * *

إن الشعور المتطرف، الحاد؛ بالكرامة؛ يكون أحياناً عقدة نقص أو حماقة أقل صورها الشراسة.. إن الكرامة ليست سيفاً يسل في وجوه الآخرين.. إنها سلوك متعقل؛ يلتزمه الإنسان.. وليست شعاراً يضعه على صدره أو يعلقه على رأسه.. ما في داخل الإنسان لا يمكن أن يمس بالكلمة العابرة ولا بالسلوك الشائن من الآخرين.

نعم.. ولا..

أن تقاوم شهواتك.. نعم.

أما أن تفرض الطريقة على الآخرين.. فلا.. إنه المنطق المعاصر.

* * *

إذا كنت خادماً لزعيم القبيلة.. فأنت زعيم من الدرجة الثانية.

* * *

لا يدير الناس ظهورهم للشيطان إلا بمقدار ما ينتهي القديس من إلقاء كلماته.. هذا إذا لم تكن مطولة.

أدب الإصغاء

الصمت أثناء كلام المتحدث إليك؛ ليس دليل الإصغاء.. أحياناً يكون التماساً للراحة.

عندما تركت لشاربي حريته في النمو، وجدت ما يشغلني.. أما قبل ذلك فلم يكن لي عمل بعد استقالتي من آخر وظيفة، وطلاقي لآخر زوجاتي الثلاث..

* * *

ما دمت تأكل أرزاً وفيراً؛ فأنت بخير.

* * *

ما دام الإنسان نفسه يتغير؛ فإن كل شيء يتغير.

* * *

ليس أثقل من الإنسان عندما لا يكون..

* * *

ما أثقل عناءه؛ إذا غنّى، وما أشنع خطأه إذا لم يصب.. وصوابه إذا لم يخطىء.

* * *

هذا يهتم بجمع الملايين، وذلك بغزو الفضاء، وذلك يصارع لينتصر، ويسحق غيره ويسود.. وهذا يدأب ليكون له شارب مهيب..

الكل سواء.. أي اهتمام من هذه الاهتمامات له القيمة ذاتها.. كل الأشياء المتفاوتة تستوي في النهاية؛ وأحياناً قبلها.. سواء ما تم منها، وما لم يتم..

* * *

تتقبل القبيلة من زعيمها أي لون من النقائص.. أما من قديسها.. فلا..

* * *

لا يتم طهر القديس بأن يحتفظ بالفضيلة لنفسه، بل أن يحاول تحقيقها للجميع.. وإلا كان ناسكاً فقط.

* * *

عندما كنت صغيراً كان أهلي يكرهونني على الصيام؛ لأعتاده والآن يكرهني الأطباء على إلغاء العادة.

* * *

ضع نفسك دائماً في الدائرة الواضحة، المضيئة، وستجد كل ما يسدد إليك؛ يعود في هدوء إلى صدور مطلقيه.

* * *

ألوف القصص والحوادث عرضت أبسط وأخطر الاكتشافات في العلاقة بين الأزواج.. كل شيء من هذا؛ وجد مع تاريخ وجود الإنسان من عهد الكهوف والأشجار.. ما هو الجديد إذاً؟!

* * *

لا تصدق أن هنالك شيئاً أسوأ من أن تكون أباً لبضع بنات.. إلا إذا كنت لا تسمع، ولا ترى، ولا تشعر، أو إذا كنت سدائياً؛ تستوي عندك الأشياء مهما تناقضت، وتباينت.

* * *

متاعب الآباء مع أولادهم واحدة.. ولكن زوايا الرؤية، ومجالاتها

تختلف، وبذلك يكبر الشعور بالمتاعب، ويصغر.

* * *

الزواج الأول غلطة، والثاني حماقة.. أما الثالث فإنه انتحار.

* * *

الحب ليس أعمى.. ولكنه بالتحقيق أحول.. وهذا ما يجعل نتائجه أكثر تعقيداً.

* * *

المسألة التي لا أتقبل المزاح فيها، ولا الجدل؛ هي أن أكون متعطلاً بلا عمل.. وعندما تكون الأمور على غير ما يرام لا بد أن يكون لي شارب مهيب أشتغل به.

* * *

عندما يكبر الصغار يحدث العكس.

الحكِمة واليأس

إذا رضخت للواقع؛ فأنت إما حكيم أو يائس.

* * *

القانون لا يمنع الأفعال السيئة، ولكنه يمنع ممارستها علانية وكذلك التقاليد.

* * *

كل ما تطلبه زوجتك لتسعد بها؛ أن تدع لها حريتها بلا اعتراض وما تملك.. بلا تذمر.

* * *

ما أصعب أن تعيش؛ إذا فاتك أن تموت في الوقت المناسب.

أية خطوة من خطوات الإنسان يمكن ألا تتحول إلى مشكلة؟!

* * *

الفرق بين زعيم القبيلة وقديسها: أن الأخير مطالب دائماً بالتزام الحقيقة، والتجرد.

* * *

من الممكن أن تلد الثقة الحب، وأن يلد الحب الثقة، وأن يظل كلاهما عقيماً.

* * *

العمل؛ لا الكلام؛ هو محور الصدق.

* * *

لن تقف المرأة عند حد مساواتها للرجل، ولا أن تصبح لها القوامة عليه؛ حتى تتحول رجلاً، ويتحول هو امرأة.. كل هذا؛ لأن هناك شيئاً يتعذر فهمه..

* * *

القيادة والزعامة أربح تجارة في العالم.

* * *

كل كسب يضاف إلى القادة والزعماء، وكل خسارة تؤدي ثمنها الشعوب راضية، كارهة، حزينة..

* * *

إذا كان الجميع يشقون ويكدحون.. لتحتفظ أنت بالنعمة والمجد،

فأنت إما قائد أو زعيم.. وإذا كان الجميع يسعدون ويمرحون ويوجهون إليك الضربات القاتلة؛ فأنت رب أسرة..

فإذا لم تكن هذا ولا ذاك؛ فأنت إما دافع ضريبة، أو متسول.

* * *

كانت نظراته إليهم تقول.. متى أسعد بكم.. وكانت نظراتهم إليه تصرخ.. متى نتخلص من رؤيتك.. وكانت الرحلة مريرة، وطويلة، ومعقدة..

* * *

أولادنا يريدون الانطلاق، ونحن نخشاه عليهم.. وتبدأ المشكلة بعدم التفاهم، وتنتهي بانتصار التقدمية على الرجعية وعزلها، إنها أكثر صور الشقاء شيوعاً اليوم.

* * *

الحياة هي مجموعة ما تحتويه حياة الإنسان من الصغائر، والتفاهات في شكل متاعب، ومسرات.

* * *

أنت لا تجرؤ على تقبيلها، وهي لا تجرؤ أن تبدأ بذلك، ويطول الحوار، ويتعقّد في صمت وصبر ومرارة حول العقدة؛ حتى يحلّها الشيطان ارتجالاً.

* * *

لا تحاول أن يفهمك أبناؤك، ولا أن تفهمهم.. إلا إذا كان لا يهمك أن تتحول حياتك إلى جحيم.

دع لأولادك أن يفهموك كما يريدون، ودع لهم أن يعلموك أن تفهمهم كما يريدون أيضاً.. فبهذا يمكن أن نتذوق حلاوة حبهم واحترامهم، وإلا فليخطفك الشيطان ليلقي بك في أقرب مزبلة..

* * *

عندما يعبر مظهرك عن القدرة أو الضعف؛ فهذه جنايتك.

* * *

عندما تكون نقودك غير كافية يكون الأرخص؛ مهما بلغت رداءته؛ هو الأفضل.

* * *

عندما تتعقد الأمور بدرجة معينة؛ لا يكون من التعقل والحكمة التعرض لمحاولة حلها.

* * *

هناك لحظات حرجة يفرض فيها على القائد؛ ألا ينسحب.. ولو كان ثباته تحقيقاً عاجلاً أو بطيئاً للكارثة..

* * *

عندما تفشل جهود الإنسان في تلمّس الطريق إلى النجاة؛ تتحول هرطقته أملاً زائفاً، أو صحيحاً في أن يجد بين الآخرين من يفكر معه.

* * *

إنها ساعة حرجة؛ أن تدور بعينيك؛ محملقاً في جميع الوجوه والعيون.. فلا تجد من يفهمك..

* * *

لا يمكن أن ينسى الناس التفكير في ما يشغلهم؛ لكي يفهموك، ويتابعوا ما تقول، ولكن كل ما تستطيعه إنسانيتهم؛ هو أن ينظروا في وجهك، ويهزوا رؤوسهم لتتوهّم أنهم معك..

* * *

كثيراً ما تكون الزوجية مدينة بدوامها لشعور الزوجين بأن التطلع إلى شيء آخر قد فات أوانه.

* * *

التظاهر بالسعادة من الزوجين غطاء جميل للخيبة.

* * *

لا تستطيع أن تعرف أن من الحكمة استغناءك عن المرأة قبل أن تتزوج، وأنت بعد الزواج لن تنتفع بهذه المعرفة؛ لأنك ستكون على الدوام بحاجة إلى ممرضة.

* * *

الطلاق دليل نفاد الصبر.. أما الزواج مرة أخرى؛ فبرهان على عمى البصيرة..

* * *

أنت لا تتخلص من ضريبة الدخل إذا فقدت ثروتك؛ فهناك ضريبة كسب العمل حتى تتشرد.

ولا تتخلص من المرأة بطلاقها؛ فهناك الأولاد حتى تنتهي.. هذه هي العلاقة بين الضريبة والزواج.

* * *

في الصين، وفي الهند لا ثمرة لحياة الطبقات المحرومة؛ إلا الجوع حتى الموت؛ فأي مبدأ يضمن وجبتين أو ثلاثاً في اليوم، وتحت أقسى شروط العمل؛ يحوز أقوى تزكية لاختياره، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون.. لقد كان الصينيون يبيعون أبناءهم ليشبع الطرفان، ولكنهم الآن لا يفعلون.

❊ ❊ ❊

يقولون إن لكل مشكلة حلاً، ولكني عرفت بالتجربة الواقعية؛ أن لكل حل عدة مشاكل، فأنا الآن أتقبل المشكلة؛ وأغفل الحل. هذا أسمى مراتب التصوف، ولكنني لست متصوفاً، وإن كنت تأملياً، ومتجرداً.

❊ ❊ ❊

أليس ما نفعله للذتنا الخاصة؛ كالذي نحمل عليه اضطراراً؟! كلاهما لا يصح أن يدعي فضيلة؛ أو خيراً في منطق العقل المجرد.

❊ ❊ ❊

عندما تخلو الحياة من الرغبات؛ تفقد آخر معانيها وحوافزها.. ما نفع الحرية لمن ليست له رغائب..؟!

❊ ❊ ❊

عندما تتلامح عينان متفاهمتان يكون هناك لحن موسيقى مشترك.

❊ ❊ ❊

الكلام وحده ليس لغة التعبير والتفاهم، ولكنه اللغة الشائعة لأنها الدارجة.

❊ ❊ ❊

طبيعي أن أملّ؛ إذا كان كل شيء هنا يعييني تفسيره.

❊ ❊ ❊

أليست حياة التسول خيراً من أن يكون الإنسان موضع رحمة الآخرين؟!

* * *

إننا لا نتبذّل؛ لأن الشجاعة تنقصنا فقط.

* * *

لا حد لبواعث الألم عند من يحس ويدرك.

* * *

إذا اتسم الإقبال على الحياة بميسم عدم المبالاة؛ كان التشاؤم في صورته اللامعة.

* * *

إن الابتسام للحياة ليس دليل التفاؤل دائماً؛ قد يكون دليل السخر ودليل الإذعان بالواقع.

* * *

في الإقبال المتبادل بين الناس أثر لفطرة التعاون، أو أثر للمصلحة، أو أثر للذة.. هي الفائدة لا تتغير، ولكن تتنوع أسماؤها.

* * *

إن خير ميول الإنسان، وأشرفها لا تخرج عن كونها صدى لأنانيته.

* * *

ما حاجتي إلى إثبات شيء أنا مقتنع بصحته حين لا يكون لي نفع من وراء إقناع الناس به؟ إن المهم أن ألقي كلماتي غير حاسب لنتائجها حساباً!!

فإذا كان الكشف عن خوارج الفكر والنفس استهدافاً لمجاذبات فكرية؛

فإن من دواعي سروري أن أعترف بأن هذا شأن الأنبياء والقواد فقط.

❊ ❊ ❊

الذي ينقصنا ليس الإدراك الصحيح للحقائق، ولكنه الضمير.

❊ ❊ ❊

ماذا تعرف أيها المخفق؟ وكم تعرف أيها الناجح؟

الناجحون يقولون: إني قوة تذهب هدراً.

والمخفقون يقولون: إني ضعف يتصنع القوة.

إنه إجماع على أنه غير نافع.

❊ ❊ ❊

إذا أقنعت الناس بأنك لا تكذب؛ فأنت داهية في الكذب.

الحب والكره أقوى ما في الإنسان من عوامل الخداع والتضليل.. الحب يريك المقابح محاسن، والكره يريك المحاسن مقابح.. وليس هذا كل الخطر.. الخطر أن كليهما يهبك القدرة على الإقناع، ويصنع لك البراهين.

❊ ❊ ❊

قد تملك الشيء، وتعجز عن السيطرة عليه.

وقد تسيطر عليه، وتعجز عن امتلاكه.

ولكن الشيء الذي لا تحققه الجهود البشرية إلا نادراً أن يتهيأ لها الامتلاك والسيطرة.. أهذا واضح؟!

❊ ❊ ❊

يحدث كثيراً أن أرى عدلاً غير معقول... إن في القصاص العادل

أحياناً ظلماً فادحاً؛ يزلزل العقل.. ولكني أرهب التدليل، والتفسير.. لأني مؤمن بعدالة الأحكام السماوية.

* * *

الشك والتردد أصلاً من مزايا العقل السليم، ولكنهما من عيوبه ـ في الاصطلاح ـ.

* * *

العبرة في حقائق الموزونات بالثقل؛ لا بالحجم.. إن طناً من القطن ليس أثقل من طن من الحديد، ولكنه أكبر كثيراً.. وهكذا الإنسان الكبير.. بالنسبة للإنسان الصحيح، ولكن بميزان الحساب.

* * *

الشيخوخة أكثر قابلية للأحلام العاطفية من الشباب الغرير لأنها أحوج إليها..

أليس كل شيخ على أتم الاستعداد لتصديق أن فتاة في العشرين تهواه، وتؤثره على فتى في مثل سنها؟!

* * *

التمسك بالمثل العليا كالسباحة ضد التيار؛ عاقبتها الغرق أو الوهن.. في هذا العصر على الأقل.

* * *

الحب قبل الزواج يضع الزوجين أول فصل أمام عقدة المسرحية؛ وأحياناً أمام خاتمتها..

* * *

كل من الزوجين يستمد معرفته بحقيقة شعور الآخر نحوه من شعوره الخاص.. وهكذا تتحول المأساة إلى كوميديا وأحياناً يحدث العكس..

* * *

من الوجهة العملية؛ لا يمكن أن يكون الحب مسؤولاً عن تحقيق السعادة لزوجين زيادة عما تطيقه أعصابهما..

* * *

كلاهما من وجهة نظره ممتحن بالآخر.. الإنسان والشيطان وكذلك كل زوجين، وبلا فرق..

* * *

لكي تصدق المرأة أنك تحبها لا بد أن تنفق بسخاء.. ولأجل أن تحبك هي؛ لا بد أن تنفق بجنون..

* * *

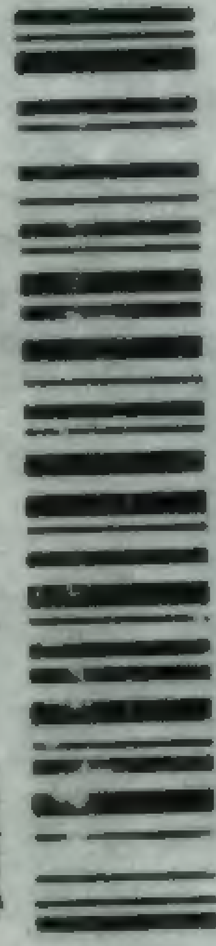
عندما تكون صديقاً للشيطان؛ لا بد أن تتحمل نصيبك من اللعنة.

* * *



(*) حمزة شحاتة يقف في أقصى اليسار وإلى يساره الأساتذة إبراهيم فلالي وعبد الله عبد الجبار وتجلس في المقدمة الشريفة دينا عبد الحميد في إحدى المناسبات بالقاهرة.

فهرس المحتويات


Bibliotheca Alexandrina
11333919